

أحمد المؤذن

فزاعة بوجه الريم كالكاشف

رواية



فزاعة بوجه الريح "كاشي"



اسم الكتاب: فزاعة بوجه الريح "كاكاشي"

اسم الكاتب: أحمد المؤذن

نوع العمل: رواية

لوحة الغلاف: المؤلف

الدعم التقني: حسين المؤذن

الرقم الدولي EBIN: 16-1-281-231119

الناشر: دار بسملة للنشر الإلكتروني

هذا الكتاب برعاية: مكتب خدمات سرديات عربية/ مملكة البحرين

الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ



00212771814934



داربسملة للنشر الإلكتروني (المغرب)



Darbassma1@gmail.com



المملكة المغربية

كل الحقوق
محفوظة

دار بسملة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

فزاعة بوجه الريح "كاشي"

رواية

أحمد المؤذن





الإهداء

إليك يا (محمد) بعد أن عرفتك متجولاً على أرصفة الغربة والعمر
الضائع، غارقاً في جبانة الصمت المستسلم، تنسج من الريح شباكاً
تصطاد القوافي التي تشتهي، تمر عليك الوجوه ولا تراك حيث تنبت
يديك براعم الضوء.

لكن قوافل الأشباح تغتال اطمئنانك المؤقت، وحيداً تنبذك الأماكن،
تغادرك اللجنة التي تريد، عبثاً ترتدي اخضرارها متعطرًا.. وها ضحكهم
يرقص في أرضك الحرام!

حيثما أنت واجه قسوة البشر، ابتسم بسخرية وانتصر، أهديك
عملي المتواضع هذا ولك تحياتي.

صديقك // أحمد المؤذن - 23 أبريل 2010 م.



(1)

المنامة

صباحك كل الألوان

لمي أحزان المساكين

وحزني..

ها ورود قلبي

شيئاً لا يشبه ما تعرفين

كلنا نلاصق الظلال

ياكلنا..

خوف تلك الأيام

وأنتِ

المنامة..

رغيف خبزي ها هنا

عند رصيف الوجع

أحلى

ولا أجمل الأماكن

أنتِ..

عاصمة موتى الذي أريد..

خلع نظارته ونظفها بقماش فانلته الصفراء وهو يحدق في زكية التي أخذت تغرف بعضًا من حبات الذرة المسلوقة في قدر الألومنيوم، وتطفئ الموقد الغازي، يستريح بعض لهائه، أحضرت كوبًا بلاستيكيًا وملائته بالحبيبات الطازجة، يطير بخارها الشهوي، رشت عليها الملح والفلفل، تركت فوقها ملعقة وقدمتها للطفل المنتظر، أخذ وجبته ومضى إلى الحديقة.

تبسمت قليلاً للمجاملة ثم التفتت إليه وقالت:

- يا عارف.. في هذا الوقت من العصر يكثر الزبائن عندي ولست متفرغة الآن لسماع قصائدك.
- أنت.. أنت لا تحين الشعر.
- صدقني قصائدك جميلة.. أكيد جوعان؟
- خبأ قرطاسته في جيب بنطلونه المهلوك ذي اللون الباهت، لبس نظارته وأخرج من حقيبته القديمة صحنًا خزفيًا مستهلكًا، يفشي ابتسامته الخجولة، تبرز أسنانه الصفراء..
- تلويحك بالملعقة هكذا يذكرني بأمي وهي في المطبخ تعد (الهريس) في شهر رمضان.

- أنا أفضل من يطهو الذرة في المنامة. طبخ الهريس ليس صعباً.
- وأمامك أشهر شاعر في المنامة، لا يطبخ قصائده كالأخرين،
تشتري مني القصيدة؟

وضحكا معاً.. تأمل بعمق وجهها المائل للصفرة وحاجبيها الكثيفين
والتؤلؤل المنتفخ كحبة حمص على الجانب الأيسر من أنفها الطويل
المعقوف. زكية إنسانة طيبة النفس وتحمل قلباً عطوفاً يسع هذه المدينة،
يتذكر كيف كان اللقاء الأول في صبيحة يوم شتوي.

كان جالساً على حافة الرصيف يقرأ كتاباً رثاً نفض عنه بعض
الأوساخ التي لحقت به في مكب الزبالة، وهي كانت على بعد أمتار
قليلة هنا في نفس المكان قرب الحديقة. تحرش به ثلاثة مراهقين خرجوا
لتوهم من الحديقة، أو سطهم - ضخم الجثة - رفسه في ظهره، أما البقية
فيتسليان بالسخرية والضحك والحركات القذرة، كانوا يمرحون في أرض
عجزه، بدا أن الثلاثة يلهون به كما لو كان كلب رصيف سائب حيث
لا أحد هنا يذود عنه من المارة الأجانب، يكتبون بالفرجة العابرة على
غير رغبةٍ منهم في التورط بالمتاعب. كانوا يضحكون عليه والكتاب
يُرمى متنقلاً من يدٍ إلى أخرى، ثم يمزقون كتابه بتحويله إلى كرات ورقية
وهو يحاول منعهم، فغرز أصابعه في وجه حامل الكتاب وهو يصرخ..
كتابي.. كتابي يا شياطين الشر!

فحاول الاثنان تخليص صاحبهما.. هنا يذكر أنها سارعت إلى إنقاذ غربته وتدخلت قبل أن ينقض عليه الثلاثة ليضربوه، هددتهم في البداية باستدعاء الشرطة فرد الضخم:

- لا دخل لك يا "جلحة"⁽¹⁾ ابتعدي هيا هيا..

قال آخر وهو يضحك:

- أكيد ستتدخل، المهبول هذا صاحبها وهو.. (مثل بيديه حركة بذيئة فضحكوا). يتذكر كيف جمحت كالفرس البرية ولطمت الأخير بملعقتها الكبيرة، الضربة حملت كل غضبها المندفع ثأراً لكرامتها، الضربة فتحت في وجه المراهق جرحاً، لحظة شاهد صديقه منظر الدم النازف، انقلب المشهد، ففر الثلاثة من المكان.

نعم، صباح مختلف ذلك اليوم، نهض وشكرها، جمع بقايا كتابه الممزق متأسفاً عليه أكثر من نفسه.

يتذكر كيف كانت تنفض عنه غبار الموقف المزعج بكلماتها الطيبة، وكيف ساعدته في جمع شتات كرامته المهذرة، وكيف قدمت له كوب الذرة الساخنة وكوباً من الشاي بالحليب أدفأ به أحشائه الخاوية.

(1) جلحة: لفظة عامية عنصرية تستهدف الاستهزاء بذوي البشرة السمراء.

يرى أمامه هذه التي تلملم نفسها بعباءة رثة متهالكة بما ثقب أو
اثنين؛ ورغم ذلك، هي ذي تبتسم في وجهه المرتبك، وكانت تسأله عن
الأقدار التي رمته على أرصفة الشقاء في مدينة يختلط فيها كل شيء،
يختلط فيها الحزن والفرح الوجع واللامبالاة، فلا يتضح شيء في بعض
الأحيان كما هو حال المدن المغتربة عن نفسها!

تلوح بكفها أمام وجهه، تشتت كل خيالات الذكرى، يستيقظ من
شروده وهو ذاهل الحواس ينظر إليها لتسأله:

- واضح أنك بدأت تؤلف قصيدة.
- تذكرت أشياء حدثت من.. لا تشغلي نفسك بملوسات مجنون
بئس مثلي، يبحث عن نفسه في التيه ولا يصل إلى مكان،
ضائع في نفق حزنه الأخرق.
أخذت تصفق كفاً بكف غاضبة..
- عارف، متى ما استسلمت لما يقولون، عندها تنتهي.
- أنا... حياتي في المنامة، واحد نكرة.
- أنت أنظف من عرفت في هذه الدنيا القاسية. فقط انس
الماضي. ستتصالح مع أهلك وتنتهي معاناتك، بيتك ينتظرك.
ارجع لأهلك؛ ترجع لنفسك.

- أرجع لهم حتى يأخذوني للجحيم هناك.. أرجع لأكلي أحسن من أي شيء.

تنظر إليه وقد زرع فكه في حمى الأكل غير مكترث بكلامها، يبدو كمن صام عن الطعام وأخذته شهوة المضغ مستعجلاً لقمةً بعد أخرى. تعرف بأنه في الغالب لا يطلب منها أي وجبة مجانية، الأغرب من هذا؛ أنه يجمع بعضاً من قمامة الجزار على الضفة الأخرى من الشارع في بعض أيام الأسبوع، ليقدمها لكلب من كلاب الشوارع هنا قرب الحديقة. ينسى جوعه مؤقتاً كي يمارس عطفه الطيب على هذه المخلوقات المسكينة.. لا تعرفه حق المعرفة، لكنه أكثر شيء يدهشها في المنامات ويستعصي أحياناً على التفسير. الحالة المزرية التي تكتسيه تجعلها تتألم الآن، كم تحوي هذه الدنيا من نماذج بشرية مسحوقة في مثل شخصية عارف! إنه أشبه ما يكون ب... خيال رجل بلاستيكي يُترك مصلوباً عند واجهة بوتيك ملابس بأحد المجمعات الفخمة، شيء مفرغ من الحياة، عليه قشرة خارجية، بدونها يبقى عارياً ولا يكثرث به أحد. لكنها تهتم بأمره، وأحياناً تسأله بفضول، كيف قضى نهاره، يخبرها عن عناوين كتب جديدة تصفحها في بعض الأماكن التي لا تعرف وجهه فلا تسارع إلى طرده!

ويتحدث عن بعض المكتبات العريقة في المنامة التي هجرها الناس وتركوها لغبار النسيان، فرقع أصحابها لسيل الفواتير؛ فباعوها أو رحلوا عنها مخلفينها، تركة تنتظر التصفية وإهمال الورثة. يتحدث عن السياح العرب، يفضحهم السكر على أرصفة الفنادق، قد باعوا عقولهم ولوثوا شرف العربي النبيل ليحولوه إلى دمية غارقة في قعر كأس (فودكا) على منضدة بار، يحتفل على خراب الأشياء الجميلة! يتحدث ويتحدث؛ وهي تصغي إليه محاولة فك طلاسم عالمه الثقافي العجيب ونبش مكنوناته. على الأقل؛ فهو من الأشخاص القلائل الذين تقابلهم، لا يتقزز من قبحها أو تفضحه نظراته المسروقة، شخص يتحدث معها باحترام ويشعرها بإنسانيتها. صحيح أنها لا تعرفه إلا من مدة قصيرة فقط، لكنه شخص مألوف، تشعر معه أنه معرفة قديمة، مثل وجه رجل من طفولتها الماضية يزورها في حلم أو رآته في ساحة السوق ذات يوم!

تستطيع أن تفتح معه حديثاً آخر، ليكون حديثاً يلامس شغاف الروح، ويبلبل بعض يباسها الصحراوي المشتاق إلى مطر المشاعر الجميلة التي تخاف اختبارها كأنتى، علمتها تلك العممة العانس معنى أن يشوه حريق ما ذاكرتها البريئة.

تتذكر الآن.. يا ١١١١١هـ، يا لتلك السنوات المعجونة بالعذاب، كيف أساءت لها، كانت مجرد طفلة وحيدة لأب أرمل، عمله يقتضي

ركوب صهوة وحشه الحديدي ليعبر حدود الدول حاملاً البضائع المختلفة والأشياء الاستهلاكية من مكان إلى آخر، فتعودت أن تكون ضيفة - غير مرغوبة - عند هذه المرأة الغريبة الأطوار، تضطر لقضاء أياماً مملة مع مزاجها الحاد المتقلب، ثم تحولت الأيام إلى سنين.

امرأة قاربت على الخمسين، فاتتها قطار الزواج، لسانها يسترسل في النميمة مع صويجباتها أثناء الجلسات المسائية، حيث تشعل حرائق هنا وتشير زوابع هناك! لا تعرف شيء من حياتها غير تخريب الأشياء الجميلة.. الآن فقط تتذكر المشهد، كان باب الحمام موراباً، ويحفل المكان بنغمات غريبة يتأوه فيها الصوت بلذة، صوتها هي في خلوتها .. ما عساها تكون هذه الخلوة التي تجعل من امرأة تتأوه براحة حيناً، ثم تلعن حيناً آخر، مشتكية غياب هذا الذي تأخر؟؟ ثم كان هناك خيط الدم الذي زحف باحمراره فوق سطح البلاط الأبيض مختلطاً بسائل ما، له رائحة مميزة، فتغيرت نغمة التأوه وصدرت (ضرطة / ريح).. ولم تفهم - حينها - طبيعة ما يجري خلف ذلك الباب، أفزعها استمرار الخيط الأحمر، فخافت على عمتها، لكنها قبل أن تقرر دفع الباب، استفسرت بقلق الخائفة المترددة، تتذكر هذا جيداً.

جاءها صوت مؤنب.. (وماذا تفعلين خلف الباب يا شيطانة؟ جعلتِ رجلي يهرب وقد فعل فعلته). فمدت كفها الملوثة ببعض بقع

الدم وكأنها نبتت من جسد الباب وهي تقول: (هذا ما يفعله الرجال بالنساء، أترغبين بهذا الاختبار)؟! كانت الكف تنتفض في فراغ الخوف، يسكن روحها منذ ذلك اليوم الكريه، كيف لا تنساه الذاكرة؟!

ترغب الآن في الحديث إليه، وترغب في أن يقترب من وحدتها، هو هكذا يجلس منزويًا وكأنها تعاني مرضًا معديًا! تريده أن يقترب أكثر، لا تريده أن يفعل في نفس الوقت.. الرجال أشرار، ولا يفكرون إلا في هاجس واحد، شهوة الدم والألم التي تزيدهم غرورًا بأنفسهم حينما تقتنص غرائزهم من الأنثى ما يريدون. عارف - في النهاية - رجل كبقية الرجال، وعليها أن تأخذ حذرًا منه، قد يخبئ خلف هذه الابتسامة الطيبة الساذجة روحًا ذئبية تواقه للافتراس ساعة تحين الفرصة! الرجال كائنات تتسبب بالشقاء لهذا العالم، عارف حتى لو كان نصف رجل، فهو ينتمي إلى جنسهم ومن لحمهم ودمهم.. لا مبرر للحديث معه الآن، عليها أن لا تتبسط أو ترفع الكلفة معه، بخبرتها تعرف أن الواحد من هؤلاء ساعة يحصل على اللين والابتسامة؛ يذوب ويبيح لنفسه التدخل في الخصوصيات وكل شاردة وواردة، ثم يحسب نفسه معرفة طيبة كصدقة وهكذا ينتابه الغرور، يصير مثل اللصقة!

لا لا عارف إنسان آخر، لا يهش عن وجهه ذبابة! جل ما يفكر فيه، القراءة والتسكع في شوارع المنامة أو ممارسة التسول، أحيانًا..

يجالس العمالة الوافدة عند شارع الشيخ حمد، حيث يجتمعون بالمتات، يراقبون أعين المارة بحثًا عن عمل ينتشلها من حرارة الغربة والحاجة. يجلس ويثرثر مع أي شخص، تعرفه كل الأماكن، تألفه كل الوجوه. فهو مثل الماركة المسجلة على علبة السجائر الرخيصة، لها شعبية وانتشار بين الجماهير، إلا أنه مسكين الحال، حلقات كثيرة من حياته مفقودة.

الاقتراب منه كفيل بفك هذه الأقفال التي تسجن صمته.. تشعر اللحظة بتحد مائل أمامها يمتحن ذكاءها، علمتها الحياة أشياء كثيرة، تخمين الوجوه ونبش معادنها، هي واحدة من هذه الملكات التي تتمتع بها. موهبة ربانية مركبة في وجه قبيح يستفز حسرتها عند مرآة الحمام ذات الصراحة الوقحة! هي هكذا؛ ولدت وهي تحمل جينات وراثية عجنت هذا القبح الذي تشعر به يسري في دمها، ولكن.. إحساس يدها شيء آخر حينما تتحسس طراوة الصدر المشربب عنفوانًا تداعبه الصابونة بفيض الرغوة ويتصاعد منه بخار الماء الدافئ في ليالي الشتاء التي تحن فيها الروح إلى ما يماثلها من طين آدمي تشتهي الرقص معه.

تبًا لكل هذه الهلوسات المتسللة إلى تفكيرها تذكرها أنها امرأة وحيدة. ها هو قد أنهى وجبة الذرة المسلوقة وشرع يدور بإصبعه في حلقات عبثية داخل الصحن الخزفي، والذباب المتطفل يحوم على وجهه،

وبالقرب طفلة صغيرة تكتشف براءتها ملامحه الغريبة، وقفت تنظر إليه فحسب حتى أتى والدها واقتادها من المكان. نظف صحنه بخزقة متسخة ثم أودعه جوف حقيبته القديمة، التي بحث فيها عن شيء لعدة دقائق وهي تراقبه، قد يكون فقد شيئاً ما، هل يدخر مبلغاً من المال وسيدفع ثمن وجبته؟ نددت بالفكرة التي طرأت على حسنها واستنكرت تفكيرها المادي، فالرجل مطحون وما من أحدٍ يطمع فيه. على الأرجح لا يملك شيء غير هذه الحقيبة البالية، ينتقل من مكان لآخر حاملاً فيها أغراضه القليلة المتقشفة، أغراض يجدها في مكبات القمامة على الأرصفة من بعض ما يرميه الناس، وكل فائض عن حاجتهم. إنها المرة الأولى التي ترى فيها محتويات الحقيبة. مشط، وبرواز خشبي صغير يطل منه شبح امرأة كبيرة السن - ربما هي والدته - ومقصد ذو مقبض برتقالي، وملعقة ذات مقبض نصف صدئ، ودمية من البوليستر على شكل الفأر (ميكى ماوس)، وقلم حبر جاف، ودفتر، وآلة حاسبة، وعبوة ماء بلاستيكية فارغة، ومنديل قماشى مطرز، ممزق من الزاوية. أخذ يبحث ويستخرج أشياء أخرى، ثم فتح جيّباً جانبياً في الحقيبة، ويا للمفاجأة.. قدم لها حمالة صدر بيضاء بها بعض البقع! ابتسم ببلاهة وهو يلوح بيده ليرك لها دهشة الموقف.

الآن تتأكد أن عارف ليس من السهل سبر غوره، هو أكبر من كل
تصوراتها السابقة، هو أشبه ما يكون بأحجية صعبة الفهم، وربما سهلة
من زاوية أخرى!



(2)

يتمشى في ليل المنامة، تعج بالخلق من كل أصقاع الدنيا، يضحك على هؤلاء الآسيويين، يصورون كل شيء يلمع. أحدهم عرض نفسه لخطر الدهس مجرد التصلب أمام نصب تذكاري من الخرسانة المسلحة وهو يبتسم لصديقه الذي يحمل هاتفه الجوال، يتهيأ للتصوير!

يتمشى مطلقاً صفيحه الموسيقي، لا يعبأ بشيء الآن، يقف متأملاً طابور الناس المحتشدة عند جهاز الصراف الآلي، الكل يتلهف صرف الراتب، الكل يأتي وفي عجلة من أمره. هو أيضاً - في هذه اللحظة التي يحرق فيهم - يفكر، لو أنه يشبههم فيكون طبيعياً مثلهم، يعني.. أن يعاني مثلهم حينما يبحثون في زوايا الشوارع عن مكان لركن السيارة، أو يفكر في زوجة تنتظر رجوعه للخروج معها إلى أحد المطاعم العائلية، وعندها ثلاثة أطفال، وأحمال متراكمة من المسئوليات في نهاية الشهر، أو يفكر بمنزل أنيق يزرع فيه شجرة. كما لديه رفاق عاديين عنده الوقت الكافي ليشاطرهم الضحك والثرثرة، ثم يرجع إلى عمله.

البيت.. منذ متى غادره؟

لا تسعفه الذاكرة بشيء، كأنها استقالت من عملها حينما تعلم العيش في الشوارع، لهذا هو ليس طبيعياً مثل هؤلاء المتصنمين في ملل الطابور، الجميع هنا كالحبوب أسفل طاحونة الحياة.. إنهم حقاً مساكين! ولكنه الآن يهجس إحساساً غريباً يطرق باب قلبه لحظة أن شاهد امرأة مسنة تنبش حاوية القمامة، تنتقي من جوفها الوسخ بعض الفواكه الفاسدة. تحسس جيب بنطلونه الأيمن، خمسمائة فلس بالكاد تكفي لتناول (صالونة خضرة - حساء) في مطعم عبد الحكيم البنغالي. التسكع في الشوارع يستفز معدته الجائعة، التضحية بالمبلغ تعني البقاء جائعاً حتى الصباح وانتظار زكية حتى تجهز البسطة، أي شيء قابل للتأجيل ما عدا الجوع.

قرر أن يبدد مخاوفه البسيطة وقدم لها المبلغ عن طيب خاطر، شكرته بصوتها الواهن ودعت له بالخير وبصلاح الذرية. عاد ثانية يفكر برائحة بيتٍ غادره ويحن إليه، على بعد خطوات من المكان، فقط ينعطف غرباً باتجاه جامع المهزغ، قبل أن يبلغ الجامع بأمتار قليلة يصل إليه. ثمّة دفء مفقود غادر الروح العطشانة وألقى به في ضياع الأيام.. الأيام التي شهدت حياة الشقاء مع أب مطحون مضطرب عقلياً، اعتاد أن يخرج شحنات غضبه وفشله خبطاً عشوائياً في الأبواب أو على الأجساد. هو من يأكل وجبات غضبه، يبعثر الكتب والمجلات وكل

ألوان أحلامه المخبأة أسفل وسادته، عندما يتركها ويهرب خارج البيت لينجو بجلده. أب نصفه مضطرب والنصف الآخر من حياته عواصف هوجاء، لا أحد يختار الوقوف في وجهها عندما يحين حينها، هكذا انتشرت التصدعات وسط أسرةٍ تعيسةٍ.. يتذكر بمرارة تطفر في زوايا ذاكرته الآن كل تلك الأمور.

أسرة غريبة حقًا، لطالما كان يفضل البقاء خارج دفتها وبعيدًا عن مشاكلها؛ ليجد لنفسه فسحة من الهدوء والسكينة. هاني على العكس من ذلك، كان مغناطيس مشاكل في البيت، تلاحقه شكاوى الناس والاتهامات، تتلون يمينًا ويسارًا، بعض السرقات الصغيرة من دكاكين المنامة، أو ضرب أحد أبناء الجيران. يومها صرخ صرخة غضب في الشرطي المنتظر عند عتبة الباب، وهو ينادي على هاني الذي جاء صاغرًا ذلك اليوم.. بمجرد ظهوره مترددًا، خفت لهجته الحادة قليلًا.. (ولد طائش، خذوه ليتأدب) وهاني يستشفع ويقسم بأنه لن يكررها، وأنه.. تلك النظرة التي ارتسمت على وجهه شيء لا يُنسى. الأم الصابرة تتجرع المتاعب في صمت الذين فارقوا الحياة، أما سهام الصغيرة، فقد بكت عندما رأت المشهد مع أمها التي حاولت في اندفاعها أن تمنع الشرطي، و.. كانت أول تجربة سجن يعيشها هاني في

حياته المشحونة بالمتاعب، أول ستة أشهر يتورط فيها هذا الشقيق المتعفرت، كم كان غريباً أن يتمتع حضرة الأب عن دفع مبلغ الكفالة! كان هذا التوتر المشحون بالتعاسة، هو سمة البيت، .. يتذكر أنه رافق والده إلى مركز الشرطة وشهد هذا الموقف المتخاذل، كيف لأب أن يطاوعه قلبه ويتخلى عن ابنه في مأزق صعب؟! يومها تفوه بكلمة وهو يحمل كيساً ورقياً به شيء من طعام خفيف، شفقة من أم تقاسي أوجاعها، كان قد منعها من أن ترافقه. هي كلمة واحدة قالها محتجاً، اعط هاني فرصة يا أبي لا تتركه. فما كان منه إلا أن زجره بصفحة حانقة أمام الضابط! يتذكر وجه هاني المنكسر خلف سواد القضبان، ينتظر حلاً ما أو يستعد لإعلان توبته كي يغادر حزن المكان، كان كالغريق يبحث عن منقذ. هاني لم يغادر سجن ذلك اليوم، قبع في ذاكرته مثل سيخ محمي على نار الصدمة، تغير هاني كثيراً، خرج من بيضته وتدرج في عتبات شره وانحرافاتهِ وعرف الكثيرين من أمثاله. تلح عليه الذكرى الآن، سنوات مضت يحن إلى هذا البيت، ولا يستطيع ولوج عتبة بابه، متآكل الأطراف من هجوم الصدا، بيت يبدو مهجوراً لولا اللبنة الصفراء خافتة الضوء تتدلى من الإفريز الخرساني المتصدع ذي الطلاء المتقشر. ابتعد عن الباب ومضى إلى زقاق آخر، يشعر بمثانته المحتقنة، يواجه أحد الجدران بشكل عشوائي ويتبول واقفاً. فيسمع صدى

ضحكات تتسرب من الأعلى، يرفع رأسه ناحية الصوت، ثمة فتاتان من مساحة النافذة المضاءة في أحد البنايات، تراقبانه في هذه اللحظة.. خبأ عضوه ولم يبد عليه الارتباك قط، ولم يكذب يتعد بضع خطوات حتى داهمته برودة الماء المنهمر مسبقاً من صوت رجولي خشن، هو الآخر كان يراقبه ويهتف مستنكراً.. (تطهر يا نجس لا بارك الله فيك، أنت بيميمة؟) أخذ يشتم ظلمة الزقاق؛ والأصوات تحتفل ضاحكة على منظره المبلل، انسحب محطماً من المكان.

صادف في طريقه مقعداً أسمنتياً؛ فجلس يللم حزنه المبلل ويعاين ملابسه الرثة، يتساءل.. كيف أصبح سكان المنامة هكذا؟، هل قلوبهم من أسمنت أم ماذا؟ لا فائدة الآن، فهو مبلل ومنظره مضحك، لو توجه إلى المطعم فستحاصره الأعين بسهام الأسئلة أو ربما تتسلى بالضحك عليه.

هنا يوجد بيت خرب في هذا الحي، مشي إليه بضع خطوات، قرر أن يدفن حرجه بين الجدران المهجورة، من الجيد أن تتوافر هذه البيوت لأمثاله من مشردي المنامة. الجوع يطحن معدته بلا رحمة.. فتح حقيبتته وفتشها جيداً، وجد العلبة التي يبحث عنها، علبة تمر صغيرة من مآتم (بن رجب) حصل عليها بمناسبة المولد النبوي من الأسبوع الفائت. بضع تمرات وها هو جوعه يستكين، ثم زاد عليها أخرى وأخرج من

الحقيبة مجلة مستعملة شرع يتصفحها، أحس بالملل ردها مكانها. رائحة البيت الطيني تشده، تهيج نفسه اللحظة بعقب تلك الأيام، هي ذات الرائحة من البيت الذي يسكن ذاكرته.. أيعود أدراجه الآن ليقتمح باب شوقه المحبوس كي يعلن طقوس التوبة ويغتسل من أدراجه ومشاكساته وحماقاته؟

الرائحة تطبق عليه تستفز زوابع في النفس لا يستطيع مواجهتها، هناك أشياء كثيرة تجيش في عتمة النفس، قد لا نحصل على ترجمتها الفورية إلا عندما نكتشفها في لحظات صفاء تجيء هكذا بلا توقيت محدد. يتذكر كيف كانت المرة الأولى مشحونة بالقسوة، هي شقاوة الطفولة التي لا تعرف التبريرات، دفعته لتدخين عقب سيجارة رمي بها أحد المارة في الحي، سعل قليلاً ثم ضحك مع ذلك الرفيق غائم الملامح الآن، لكنه اكتشف أمره فجأة!

كان الغضب يتطاير شرراً من عينيه، كيف يقع هكذا ضحية حنق والده؟ صفة واحدة أطاحت بقامته الصغيرة نحو الأرض، أخذ يبرق ويرعد ويهدد، أمه تريد معرفة ما حصل وتحاول التماس العذر، لكن لا فائدة..

تلك الحجرة الطينية الشبيهة بالزنزانة، حاصرته لأربعة أيام معجونة بالكوابيس والأصوات! المسكينة لا حول لها ولا قوة لا تملك إلا أن

تسري عن وحدته، تغني حيناً أو تحكي ساعة ثم يطبق عليها النوم، يراها من ثقب الباب.. يخرج من حجرته حائقاً.. أدخلي، أنا أعرف ما تنوين فعله، لازم يتأدب! يقتادها قسراً وتعود إليه تلك الكوايس، أقسى من أن يتحملها قلبه الأخضر الصغير. رائحة الطين لا تفارقه، ينوس في فراغ الخوف، أشباح تحتفل أو تصرخ فيه، لا يدري؛ تخشخش بأقدامها حوله فتسلبه النوم حتى ينهكه التعب. أذان الفجر يتسلل بوتيرة منخفضة، سكينه الكلمات الربانية التي تصعد للسماء، مثل ماء ينهمر على روحه الضئيلة، تنسى أفكار الخوف وتستعيد بعض سكينتها. بزوغ الشمس احتفال أحلى حينما تتخلل أشعتها فراغات الباب الخشي المبلل برائحة الرطوبة الصباحية يصاحبها صياح ديك الجيران، فتنعش نفسه أكثر، لكن حرارة الحجرة الطينية ترتفع تدريجياً لتفسد طمأنينة نور النهار.

نهار ما هو شكله وماذا سيحمل؟ كانت تأتي بجزن وجهها المنعرق وتسمعه سيمفونية قصيرة لامرأةٍ تندب حظها في الرجال والذرية، لتحارب وجوهاً وتشتتمها متهمة إياها بالحسد وما آل إليه حالها، الباب مقفل، فتضطر إلى مد كفها الحنونة من أسفل تجويف عتبته كي تشد على كفه لتواسيه، تدس صحن (الباقلاء - الفول) مع رغيف خبز

ونصف ليمونة، يتذكر الآن الغلاف الورقي الملون لحبة الشوكولاتة التي ذابت في فمه شيئاً من فرح الطعم، يخدر كدره وحزنه الصغير .
يتذكر.. فقد حاولت جهدها أن تستميل شفقتة، تذكره بأنه ولده الأكبر الذي سيرفع رأس والده عندما يكبر، وأنه بكل تأكيد تاب عن فعلته وسيسمع الكلام و.. لكنه لم يلن وزجرها، غسل وجهه المرید وليس ثياب عمله وخرج صامتاً. لكنه عندما رجع من عمله عصرًا، كان يحمل عودًا من قصب السكر ولعبة معدنية بدت من شقوق الباب شاحنة و.. بسرعة أتى إليه وفتح ذلك الباب، أخذه في حضنه وبكى، كانت المرة الأولى التي يرى فيها والده بهذا التدفق الحار من العواطف، لم يفهم من ذلك الموقف شيء غير أنه قد سامح والده في تلك اللحظات ولكن..

نفض عن نفسه بقايا الصور التي حاصرت ذاكرته، تحسس ملبسه، لم تجف كما يجب، لكنه الآن يستطيع الخروج، سرح شعره على صفحة المرأة الصغيرة التي يدسها في حقيبتة الرثة، خرج للشارع يواجه ما تبقى من ليل المنامة. يمشي ويدندن ليتسلى في هدوء الشارع، هذه أضواء جامع المهزق تستيقظ، وعامل المسجد الحاج محمد غلوم، يقوم بكنس عتبة الباب الكبير.. ما عساه يريد؟، يلوح بيده زاعقًا بصوت مبحوح، بضع خطوات ويصل إليه، هذا العجوز طيب لا يؤذي أحدًا والابتسامة

لا تفارق وجهه، حتى أنه في شهر رمضان يتركه يستريح عند عتبة الجامع يستعطي المصلين، تفتتح شهيتهم وحماسهم لعمل الخير، العام الماضي كان يكسب حصيداً مالية مشجعة، حتى عندما كان يمتنع عن أخذ المزيد من الدنانير بحجة أنه حصل على ما يكفي، كان الحاج محمد غلوم، يهز رأسه كإشارة له أن لا يرفض! إلا أن تلك اللحظة الغيبية التي صدرت منه قبيل أذان المغرب، عندما تصاعد فرحه بالدنانير التي تفرخ بعضها وشرع يعدها قبيلة تلو الأخرى وكانت لحظة الهجوم المباغت.. تلقى لكمة قوية من الشبح الضخم الذي لثم وجهه وكفن الفلوس في جيبه وهرب من المكان.

قد كره الجلوس هنا وكره التسول، اكتفى بعرض خدماته على المصلين، يكد ويعرق في تنظيف سياراتهم فيجودون عليه بما يتيسر أو يعنفه بعضهم ويتهربون من الدفع! يعرف أن البعض من هؤلاء المصلين أو العابرين، هم الذين يحاولون الالتفاف على الله تعالى، داخل الجامع يسكبون دموع التوبة والنزع، قلوبهم الأسمتية لا تخشع كما يدعون، ساعة يخرجون من الجامع تتبدل جلودهم لتعود إلى سيرتها الأولى!

الحاج غلوم عجوز طيب يخاف الله، وصل إليه فأمسكه بلطف وسلمه منشفة وصابونة وأمره بدخول حمام الشقة الملحقة بالمسجد. ولأنه يحب هذا العجوز الطيب، لم يمتنع لثقتته أن خلف هذه الطيبة خير

وأمان. استمتع بحمام بارد وقتذاك مع شذى الصابون. أقصى ما يحصل عليه في الصيف أن يسمح له حارس الأمن في لحظات خلو الحديقة بالتوجه إلى النافورة يستحم بملابسه لدقائق متذوقاً نعيم الماء البارد ثم يصرفه على عجل، ليتوارى عند شجرةٍ أو يخرج من الحديقة وذلك حسب مزاج الحارس.

حمام بارد وبشذى الصابون رفاهية جميلة من كرم هذا الرجل الطيب، المنامة ليس فيها رجل بمثل طبيته ودماثة خلقه.

خرج من الحمام وارتدى ملابس نظيفة من كرم العجوز، دس في يده مبلغاً من المال وأعطاه كيساً لا يدري ما به. فقال له:

- عارف ولدي، ادع لي بالصحة والعافية.

- ألبسك الله ثوب العافية، الله يغنيك من فضله حاج غلوم.

مضى من المكان، ثوانٍ حتى انتشر في فضاء المنامة صوت أذانه الجميل، الصوت يسبح به في غيمةٍ من الطمأنينة والهدوء، يتعطر بصفاءٍ نفسي يهبط على أرضه، يستريح من حصار أوجاعه وكأنما يسافر إلى مدينة أخرى.



(3)

تسللت أشعة الشمس من وراء قماش الستارة الكحلية الزرقاء، منبه الساعة كان توقف عن الحركة وهي تتقلب مكانها فوق السرير. تستيقظ لتجد الساعة مشلولة الحركة وعقرب الثواني يرقص مكانه لا يقدم ولا يؤخر، نسيت تغيير البطارية المستهلكة، لجأت إلى ساعة معصمها، الثامنة والنصف! أزعجها أن تتأخر هكذا عن عملها فقد فاتها الآن موعد احتشادهن عند سور الحديقة، يتحلقن حولها ويشترين الذرة الساخنة والشوكولاتة.

طعم المرطبات الباردة في الصيف يستهويهن، طالبات الإعدادية الأنيقات. لا فائدة الآن من هذا الندم الصباحي الأخرق. حتى الحاج مرزوق صاحب سيارة (البيك آب) الذي يقوم بتوصيلها، هو الآخر مضى إلى عمله وسط السوق، إطلالة واحدة من النافذة وها سيارته ليست في مكانها المعتاد، فصرخت محتدة تلعن خبيتها.. (كان على هذا الشايب أن يوقظني على الأقل، هو لا يخدمني حسنة لله!) ستيني ولازال يشتهي النساء.. نظراته تفيض برغباته المتأججة، كلما صعدت معه السيارة تراه يزرع نظراته في تفاصيل جسدها محاولاً اختراق سواد العباءة وكأن عيناه أشعة كاشفة تصل إلى المستور بصمت وفحش

متلذذا! أكثر من مرة يعرض في ثرثرائه الماسخة، أن المرأة ليس لها إلا بيت زوجها، وحرام أن تتوزع الحرمة بين لهات الشوارع وفضول أعين الناس الجائعة، المرأة يجب أن تتسيّد وتتنعّم في بيتها ولا شيء يعيب الرجل ما دامت الصحة موجودة.

أصلاً هي الحاجة التي تجعلها مغلوطة الحيلة وتضطر لمجاملته، كم تتقزز منه عندما ينظف حلقة من البلغم، أو حينما يبصق معجون التبغ الهندي الذي يلوكه في فمه الممتلى بالحفر مثل فم بعيرٍ موشكٍ على الهلاك، وكلماته تختلط بكحته: الصحة موجودة؟! ليبحث لنفسه عن مقبرة. يتصنع الكرم ويمتنع عن أخذ أجره التوصيلة لاعتبارات الجيرة (حق الجار) لكي يصل إلى مبتغاه. ثرثرائه لا تنتهي، يتحدث عن زوجته المريضة وأولاده الناكرين للجميل وضجره من الإحساس بالوحدة وحاجته لمن يستمع إليه ويحمل عنه بعض أوجاعه.

ضراوة الشمس خارجاً في هذا الوقت لا تحفز على الخروج، مكيف حجرتها المستهلك بالكاد يلطف جحيم الحر، تشاءبت وهي تنظر إلى السرير؛ تملكها الرغبة في معاودة النوم ولكن.. الشقة الصغيرة تحتاج إلى تنظيف، وكذا كومة من الملابس مهملة في الحمام، وبعض الأواني في مغسلة المطبخ، تأففت بضيق وهي تجلس على حافة السرير، أرسلت طرف بصرها إلى نافذة الحجر، فتحت الستارة وتفقّدت الشارع بشيء

من الفضول. الحاج مرزوق يدخل إلى الحي بسيارته، فيها بعض الأغراض يقوم بإنزالها، يبدو في عجلة من أمره. هو ليس سيئاً إلى هذا الحد، الرجل يهتم بمنزله وزوجته، أغراض كثيرة يتضح منها أنها أشياء جديدة، لكن من أين؟ يطوف المنامة بسيارته بحثاً عن الركاب الذين يلتقطهم من الشارع، مكسبه المادي قليل، وكثيراً ما كان يشتكي من غلاء المعيشة.

الواحد لا يبوح بكل شيء، الحاج مرزوق عنده خير، لكنه يتحدث عن نفسه بتلك الروح المحبطة، كي يغلف نفسه بالشفقة ليدراً عنه الحسد وأعين الناس، هي تعرف ذلك في تحوط الناس في هذه الأحياء الشعبية، يحاولون حماية أنفسهم بالتمائم خوفاً من الحسد وضياع ممتلكاتهم البسيطة.

أغلقت الستارة وهي تتجه إلى خزانها، استخرجت صندوقاً خشبياً صغيراً، كانت قبلته على مضض من الحاج مرزوق ذات مرة، مؤكداً لها أنه هدية من أحد الركاب الأجانب ويصلح لأن يكون في حوزة امرأة تستعمله لحفظ الأشياء الثمينة. فتحت الصندوق واستنشقت عبير الياسمين العابق في اخضرار القطعة القماشية التي اشترتها من المرأة

صاحبة (ضريح الشيخ عزيز)⁽¹⁾ عندما زارت المكان من .. سنتين أو ثلاث، تفاصيل ذابت من ذاكرتها لكن الرائحة تتشبث بقطعة القماش! شيء يخترق إحساسها مثل كلام صاحبة الضريح التي رفعت كفها بالدعاء وهي تربط الاخضرار الأنيس في معصمها بأن يثبت قلبها على الإيمان بولاية أهل البيت (عليهم السلام) ويسعدها بزواج صالح وذرية تقر بما عيناها، وآخرة حسابها يسير والجنة والرضوان.

شيء ما يجعلها ترتبط بهذا الصندوق، تمنى لو أنها أصرت على رفضه، هدية من رجل غريب لا مبرر لقبولها وهذه القطعة الخضراء تحمل بقايا ذكرى، كأن الحاج مرزوق وصاحبة الضريح قد اتفقا سلفاً في تلك اللعبة المدبرة لكي يجعلانها تفكر في نصفها الآخر وتقبل بعريس لا يفوت يتربح إشارة الحظ التي ستطير به إلى السماء.

حاولت أن تتخلص منه؛ لكنها في كل مرة تحجم في اللحظات الأخيرة وتتراجع عن ذلك، فتشعر بشيء من الندم، عليها قوة خفية طيبة أو بركات ملائكية مسخرة من الضريح تنزل اطمئناناً على روحها المعذبة، كلما فتحت الصندوق يغمرها شعور بالسكينة، تضم إلى

(1) ضريح الشيخ عزيز عبارة عن مسجد ومقام تاريخي لأحد الأولياء الصالحين، تقام فيه

الولائم، والنذور وحلقات الدعاء والصلاة.

صدرها أطيافاً من ألوان البهجة تطلقها في جنان واسعة، تهرول في مساحاتها السعيدة التي لا تعرف الحزن والشقاء.

خطر على تفكيرها أن تتصل بصديقتها منصوره، قررت أن تجابه ضراوة الجو الخارجي، الخروج من سجن البيت ولا البقاء واجتاز الذكريات التي تزيدها عطشاً وقلقاً من الأيام القادمة. منصوره هي دواء اللحظات الأكثر تعاسة، لا يعادلها شيء آخر؛ مرحة، تحب المزاح والضحك، تبني قصوراً من السعادة وليس لها من حطام الدنيا شيء، ترملت مبكراً ولم تنجب ذرية من زوجها، كتب لها البيت الذي تقطنه باسمها قبل أن يترجل عن صهوة الحياة.

تعيش وحدها؛ امرأة مهجورة متروكة لقدرها، تمضي إلى البنك كل أول شهر كي تصرف راتب زوجها التقاعدي.

- آلو، منصوره ما هي الأخبار؟
- عندي فأر في البيت؛ أطارده من نصف ساعة.
- هذا فأر؛ اصطياده ليس سهلاً، ما رأيك أن نخرج إلى كورنيش الملك فيصل؟ بسرعة فالموضوع لا يحتاج تفكير، سيارة الحاج مرزوق موجودة.
- نتوكل على الله، ولا تنسي أي شيء بارد لتلطيف هذا الحر المتوحش.

ترجلتا من السيارة بعد عدة دقائق في شوارع المنامة، كانت فيها منصورة تعلق على كثرة البناءات الشاهقة التي أكلت مساحة الكورنيش وابتلعت البحر، وكيف أن تنزه الناس عند الشاطئ صار مملاً يبعث على الكآبة، ولكن ما من خيار آخر.

هبت نسائم صيفية لطيفة على الكورنيش، ظل النخلة الهزيلة الملاصقة لجدار كشك المرطبات كأنه ينتظر أحداً ما، تجاهلتنا الكشك. فرشت زكية بساطاً قماشياً ملوناً وضعت فوقه سلة من البلاستيك وأخذت تتنفس بعمق. لم تكتف منصورة بالمراقبة؛ بل أطلقت نفسها لتستوعب رائحة البحر شوقاً ومحاوله للفرار من الأوجاع التي تحاصرها، قبل أن تقول:

- رائحة البحر.. آااااااا، أنا بصراحة اختنقت من الحاج مرزوق، زكية، كيف تتحملين هذا الشايب؟
- تعودت والسلام، لو أركب مع غيره لكانت البسطة ما تكفي همها مصروف أجرة النقل، سائقي النقل المشترك طماعين.
- يتكلم في الموضوع ال..
- أي موضوع يا منصورة؟ نعم تذكرت.. هذا الشايب عنده أمل؛ تصوري؟
- كلنا يجب أن يكون عندنا أمل.

- إلا أنا.. هذه الدنيا كل مرة ترميني في مكان، حالي صعبة.
فتحت السلة وهي في لحظة تفكير توشك على النزف أو التداعي،
لا تستطيع حبس كل تلك التفاعلات المضطربة، أتراجع الآن عن
الكلام وتدعي الصمود مثل كل مرة وأن لها حظاً مشرقاً سيأتي، حتى لو
تأخر أو انه؟، أم.. أتخبرها الآن عن عارف، الذي يتسلل إلى تفاصيل
حديثها بشكل عفوي لا تستطيع إخفائه؟

هذا الضائع في شوارع المنامة؛ والمتسكع في خواء الروح، يفتش
الأماكن عن أشباح، يدخل معها في صداقات وهمية، أناس يخاف منها
أن تسلب ما عنده وهو المطحون المستلقي على بساط الفقر يلتحف
أرصفة الشقاء، لا بوصلة لأحلامه ولا مستقر لشتاته المتواصل. هي لا
تدري كيف تصف مشاعرها نحوه، أحياناً تحن عليه عندما يأتيها مطلاً
من خرابه وهو يبتسم بوجه متعرق، أنهى تنظيف بعض السيارات
وكسب دنانير معدودة تختلط برائحة عرق يديه، أو يحمل أشياءً
مستعملة نبشها من مكبات القمامة أو.. مسكين لا يسلم من تطاول
البعض، كدمات تزخرف وجهه المتعب المنكسر، يصفها أنها مجرد
حوادث صغيرة لا تذكر، يبتسم ابتسامة مصطنعة ليخفي حرجه وكذبه،
لكنها تعرف قسوة بعض الناس، تتسلى على خراب مسحوقٍ مثله
مفرط الطيبة، يقع في حبال هؤلاء العابثين.

- وإلا ما رأيك.. كيف أتصرف؟
-
- زكية، سرحت بعيداً عني وأنا أتكلم مع نفسي عن هذا الفأر،
تصوري، لقد أفلت مني وأنا خائفة.
- تخافين من فأر؟!!
- غداً يصطحب من بلاعة الجيران رفيقة ويؤسس قبيلة.
- غلبة سم صغيرة تحل الموضوع.
- جربتها لكن وجدت قطعة الجيران ممددة أمام باب المطبخ،
ضربني الندم، قتلت روح يا أختي، عقابها في رقبتى يوم القيامة،
نعم اضحكي اضحكي!
- من وجعي والله ماذا أفعل؟ هاهاهاهاهاهاها!
- خذي المتيسر واتركي المتعسر. الحاج مرزوق ما عيبه؟
- هل أصير ضرة؟، أقبل بال.. ثم أنه سُني. دعيه في حاله أحسن،
وبعيد عني، لا أريده.
- زكية، أنا أكبر منك بأربع سنوات، الدنيا ما ترحم أحياناً،
السنى يصير أحسن بألف مرة من البحريني. زوج عمتي سني،
شخص من ذهب.
-

- الوحدة صعبة؛ اسأليني أنا، أمر بأيام سوداء أكره فيها نفسي، كأني منبوذة.
- لا ينقصك شيء، أنت تتشاءمين فقط.
- أفكر حتى في عامل البلدية الأجنبي الذي يدخل الحي في الصباح.. شاب طويل عريض أراقبه من نافذتي، عضوه كبير بارز من بطنونه الضيق و.. (تكنم نصف شهقتها زكية)!
- أنا يا حسرتي قضيت مع المرحوم سبع سنوات فقط، قبلت بالرجل حتى لا أعنس بعد أن خنقتني أمي بكلامها اليومي المسموم، كلنا بشر يا زكية، نحتاج..... تعرفين قصدي.
- الجلسة صارت غمًا، تكلمي عن أي شيء غير الرجال أو سليني ولو بنكتة.

اجتاحها صمت غريب، أين تكون ذهبت بأفكارها؟ منصوره أرملة في فورة شبابها؛ لكنها في مرحلة قنوط يائس، تدفن أحلامها في حفر الأيام المتشابهة، تحدق فيها، وتتمنى في سرها أن تبقى على هذا الحال! هذه ليست أمنية خبيثة، لا، هي ليست شريرة أو تكره النعمة والخير لغيرها، إنما.. منصوره هي المرأة الوحيدة التي تؤسس وحدتها وتسقي شعورها بشيء من الأمان، تحكي لها؛ فتسري عنها أو تتبادل معها أرغفة الحزن، تخفف شعور الانهزام الداخلي الذي يطحنها. وجودها - أصلاً

- فيه عزاء لنفسها، عندما تتزوج ثانية ستشغل برجل قد يحقق لها حلم أومتها المفقودة، و.. حينئذٍ ستعتذر عن زيارتها، أو قد يمنعها زوجها لأي سببٍ كان لو شاهد تقاطيع هذا الوجه القبيح!

تتحدث عن الأمل، هي تفعل ذلك لأنها تشتتهي زوجًا وملت صحبة فتاة قبيحة ذات مزاج سوداوي وأحاديث سمجةً مكررة. أخذت تعزي نفسها، أهذه الدرجة أصبحت غير مرغوبة؟ منصوره هذه تخفي الكثير، إنها المرة الثالثة التي..، مادامت قد تذوقت حلاوة المعاشرة الزوجية، فكيف تنسى؟ أكيد سيكون الجلوس بصحبة فتاة شيء مضجر، هي تريد رجلًا يسامرها ويمدحها، رجلًا يسهر على راحتها ويمتعها بحلال الله ورسوله. منصوره هذه ينقصها فقط أن تكون صريحة الساعة، لتكن شجاعة ولتقولها الآن، إذ كانت الصداقة تحولت إلى خناق أو شؤم يحاصرها، ما الذي يمنعها عن الكلام؟

كان يبخلق في وجهها من مرآة السائق، نعم؛ الحاج مرزوق يعرفها بحكم هذه الرحلات المتكررة، و.. منصوره تخفي سرًا، رحبت بسرعة، وقبلت بالخروج إلى الكورنيش بعدما كانت نبرة صوتها مترددة قليلًا.

لا يعقل أن تصوم ثلاث سنوات من الترمل والوحدة ثم ترمي نفسها إلى شبه رجل منتهي الصلاحية. لا يمكن أن تفكر فيه أصلًا، هي اشأزت من رائحته، وكثيرًا ما جعلت من هيئته الغريبة مادة كوميدية

للضحك والسخرية. من شدة ما بها، أخذت تهلوس على الأغلب، ما بين أربع جدران، الصمت والملل والوحدة تسرع من عطب الذاكرة عند امرأة تحن إلى أحضان رجل ولا تجده!

تحدثت عن عامل القمامة وبلا خجل، أتكون قد فعلتها وتظاهر بعكس ذلك؟! هذا لا يعقل من امرأة تحترم نفسها وسط حي نظيف. ماذا لو كانت تستتر بعفاف كاذب، في النهار صديقة دمثة تؤنس من يجالسها، وفي الليل مومس لا يعلم بها إلا الله. فكرت مرة أخرى، حصار الشك هذا مجرم في حق منصوراة الإنسانية الطيبة، عملت على تنظيف الوسواس وكل الاتهامات التي تراكمت أمامها، وطلبت المغفرة من الله في سرها وهي تتظاهر بابتسامة صفراء.

هي على الأغلب بريئة النيات، كل ما هو في قلبها تفشييه على لسانها بلهجة مرحة ممزوجة بكلام ترتاح له النفس. تتحدث حتى عن أحلامها التي تزورها في المنام، شفافة لا تخفي شيئاً داخلها. تتذكر كم أكرمتها بالمزيد من الهدايا في العام الأول من تعارفهما. طاقم من فناجين القهوة، ساعة معصم مرفقة بزجاجة عطر في غلاف كارتوني أنيق، هذا غير وجبات الأكل والرحلات في الأماكن العامة، تترافقان في جولات تسوق لشراء الحنة والأقمشة الملونة والعلكة البصرية التي تجبها، منصوراة تغدق من كرمها بلا حساب، هي الأخت التي لم تنجبها أمها

كأههما (حبنتين في سروال واحد)⁽¹⁾ ، حينما تركتها وحيدة في شقاء هذا العالم. التفتت إليها وتمنت في نفسها أن تسامح ظنونها الخرقاء التي لوثت ما تبقى من صفاء هذا اليوم.



(1) مثل عامي بحريني يجسد قوة العلاقة بين اثنتين.

(4)

هو لا يدري ماذا يفعل هنا، لكن الجو يفيض بالغواية التي تشعره بالرغبة والحجل في آن؛ وها هما ثديا الراقصة يتزجرجان باشتعال طري يكاد يحرق ملابسها المتلألئة في رقص الأضواء الليزرية، تغمر مساحة الصالة. وحدها تنفرد بالمشهد الفاتن، فتتمايل وتثنى بمهارة ورشاقة مدروسة، أو تشاكس كاميرا المصور فتكاد تأكل بؤرة العدسة وهي تلتصق بشهوانية هكذا، تجبره الآن على التلذذ بالمشاهدة، بينما الحاج مرزوق يدخل إلى الحجرة وفي يده صحن مكسرات مع بعض الفواكه.

- ما رأيك يا عارف؟، هل عجبك الجو؟ المكان هنا أحسن من الشوارع والأرصفة. شاهد وتمتع، هذا القرص جديد وصلني أمس!

- أنا نظفت السيارة كما طلبت، أنت يا حاج مرزوق رجل طيب، أجرة التنظيف على حسابي.

- كل شيء في هذه الدنيا يا ولدي له مقابل، أعطيك زيادة، فقط ساعدني.

- وماذا عندي حتى تطلب مساعدتي؟

- أنت تجلس عندها وتعرف الكثير، يعني.. زكية هذه، هل يأتي إليها رجال هكذا؟ وأنت إنسان جيد، ساعدني.
- رجال وأطفال ونساء، الكل يأتون إليها لشراء الذرة.
- افهمني يا عارف، ركز معي، أقصد.....
- يا حاج مرزوق، لا أتصور أن تتهم شرف المسكينة، ثم أنها في حالها، لماذا تسأل عنها؟
- هي مثل ابنتي. هل يعيب الإنسان أن يخاف على ابنته؟ أجبني؟ هل هناك شيء تشك فيه؟
-
- قصدي شريف طبعًا، وأريدك أن تساعدني، أعني أريدك أن تتكلم معها عني وتمدحني (دس في جيبه مبلغًا من المال)، يجب أن تفهم أنني أريدها على سنة الله ورسوله، افهمني يا عارف..، يا الله؛ لقد نسيت الشاي.
- يفكر الآن كيف أوقع نفسه في هذا الدهليز المظلم؟ الأسلم لو أنه لم يركب السيارة واكتفى بأخذ أجرته أو حتى الاستغناء عنها، ما دامت هناك صفقة يرتبها هذا المشتبه، يطمع في امرأة بعمر واحدة من بناته! قال بأنه يريد بها بالحلال، وما دخله هو بموضوع مثل هذا؟ لم يريده الحاج مرزوق جسرًا يعبر عليه كي يبلغ مراده؟ لكن هذا شعور مختلف يداهمه

الآن، أن هناك من يحتاجه، كما لو أن أحدهم يحتاج غرضاً من وراء جدار. هو الآن سيد اللحظة، لطالما اعتبره الناس حثالة على الهامش، يروونه لا شيء في نهاية الصف، صفرًا مهملاً، أو مجرد حيوان ضال! شعور جميل بالأهمية أيقظ فيه معنى الحياة، شعور يأخذه إلى.. هذا أحلى من كل ما يكتب من قصائد وثرثرات مع شبح العم زوربا.

هي فرصة جيدة، الحاج مرزوق يستحق، وحتى زكية، سوف تكسب رجلاً يعتني بها وينتشلها من وحشة الدرب، الرجل كلامه ونيته نظيفة، ابتسامته طيبة، وهذا يكفي! نعم؛ فالرجل أعلن نواياه الطيبة ولا ضير من مساعدته، حتى بدون مقابل، ليكن هذا شيء في سبيل الله وسط مجتمع يلهث مهرولاً وراء الدينار. هو سيكون أفضل من الجميع في مراتب المثالية التي يريد، أن يتجرد من أنانيتهم ليختبر نفسه وينتصر عليهم، هذا الانتصار مكتوب له في الجنة التي يحلم بها خالية من الشياطين.

هو يعرفهم طوال هذه الأعوام، الكثير منهم يطالعونه بلا أكرات، البعض يرميه بنظرات الشفقة، آخرين يزدرونه وهو ملتصق بغبار الرصيف يقرأ جريدته الإنجليزية، كلهم أقزام شيطانية ها هنا في جنته.. نعم، أقزام في نظره، يتطاحنون على بقايا الخراب الذي يحتسونه من كؤوس نواياهم المجهولة، هو سيكون سيد جنته ويطرد عنها كل

الشياطين ويطهرها من الإثم، خطوة صغيرة ويستطيع تسييح الجنة وحمايتها من غابة الحياة المشحونة بالقسوة المعلنة والصامتة، هو عاشر البشر في هذه العاصمة واختبر أقنعتهم وتلون جلودهم وأمزجتهم، حينما يكونون طيبون، غاضبون أو متساحون، كرماء أو بخلاء. يعرفهم في مآتم الحزن، يعرفهم في حلقات الدعاء، وساعة تهيج الجموع بتظاهرات السياسة والغضب، يعرف الناس هنا من عرب وعجم. حتى لو كانت مساحة محدودة، يستطيع أن يفعلها الآن، هو قادر على بناء الجنة التي يشتهي.

دلف من الباب ثانية وهو يحمل صينية الشاي، يؤكد أن الزواج من امرأة أخرى حفظ للرجل وستر عليه، أحسن من الحرام. بعد انتهاء طقس الشاي، كان الحاج مرزوق ينظر إلى ساعته، ويتسمم ابتسامة صفراء عبثية، فهم عارف الإشارة، ونهض مغادراً المكان. فضل العودة راجلاً وشكر الحاج مرزوق من على عتبة بابه، فهو يعرف طرقات وأزقة المنامة جيداً. ذات يوم تجول في نفس الطرقات برفقة والده، يحمل حقيبة قديمة بها أغراض لا يعرف ماهيتها، لكن كان صوت ذلك الرجل المشحون بالشباب والصرامة، يترقق حينما يخاطب ربات البيوت، يعرض عليهن تصليح أفران الغاز والمواقد. هذه تصرفه، وتلك تدعه يدخل، وهكذا حتى تنمو في الجيب بعض دنائير الرزق الحلال أو لا شيء من

مشوار التعب. غادر بيت الحاج مرزوق، يمشي في المكان، وها قد تغيرت مفردات الأشياء. الكثير من دكاكين باعة التنن (التبغ) زالت، والبعض الآخر لازال قائماً بتصدعاته المتحدية لفعل الزمن، حلت هنا دكاكين الإنترنت والبقالات الكبسولية الشكل، والمطاعم الآسيوية التي تفوح منها رائحة الثوم المقلي الكريهة. ثمانية دنانير في جيبه الأيمن، فلا بأس من أن ينفق الآن على وجبة لذيذة ورخيصة تنعش جوفه الخاوي، صحن المكسرات طعمه مر، من فيض كرم الحاج مرزوق! فضل تجنب الصحن لكي لا يصاب بنزلة معوية.

أكل بشهية لذيذة صحنين من العدس، نظرات النادل الآسيوي كانت تظهر تفرزها أو احتقارها الخفي له، ما أكثر بشيء، وتجشأ براحته، والرقاب تلتفت إلى لحنه الموسيقي الفاضح الكريه، وقد أتى على زجاجة الكوكاكولا، محولاً فقاقيعها الغازية إلى تحديق لا مبالي وبارد في الوجوه التي تحاصره، ثم خرج إلى الطرقات يتفقد هذه البيوت المهجورة. لا يصعب إيجادها، هذا أحدها، به نخلة عجفاء لا تزال تحتفظ بخضرتها، والبيت حطام وأشياء متناثرة وقمامة وقطط تفر من المكان، استراح عند النخلة وغفا.

غادر المكان بعدها، لا يدري كم مضى من الوقت وهو نائم حتى سأل أحد المارة، فأعلمه أنها الرابعة عصرًا. مشى إلى الحديقة، هي هناك

عند حافة الرصيف، تمتد إليها الأكف الصغيرة والكبيرة ورائحة الذرة المسلوقة تدغدغ شهيته. جلس على الرصيف بمحاذاة السور الحديدي المزخرف، يقشر بعض دهانه المتهالك بشيء من العبت وهو يحدق إليها منتظرًا تفرق الناس عنها. كم هي محظوظة زكية، لا شك أنها تشعر بأهمية وجودها وتأثيرها بين الناس، ولو كان هامشيًا بعض الشيء، ها هي تباشر عملها بجد وإخلاص. لكن من الأفضل لها البقاء في المنزل، يستر الله عليها مع زوج يحبها، كما قال الحاج مرزوق. وثمة ما يستحق المحاولة هنا، ما دام الهدف إنساني، عندما تتزوج زكية من الحاج مرزوق وتتذوق طعم السعادة وتستريح من لهاتها وطحنها المتواصل، سيجيء الوقت المناسب كي تعرف أن وراء ذلك وقفة طيبة من عمل الخير لوجه الله تعالى، لكن قبل ذلك يجب أن ينقل الآن طبيعة تحركات زكية طوال النهار، هذا مهم جدًّا؛ فالنساء تخفين أسرارًا كثيرة، لا تبحن بها للرجال، كما أكد الرجل وهو يبرر طلبه!

مراقبتها ستكون متاحة إذا ما استطاع أن يشغلها بشيء.. أخذ يفكر في حل لا يلفت انتباهها، فجاء الهندي (بابو) موزع الجرائد، أوقف دراجته الهوائية، وقطع عليه حبل أفكاره، أعطاه بعض الجرائد والمجلات القديمة، ابتسم وهو يهز رأسه على عادة الآسيويين وانطلق مبتعدًا، مثل كل مرة يزوده بعطاياه المجانية، لا ينتظر كلمة شكر

وينصرف بهدوء. عاد ثانية يفكر في زكية.. ها قد أضحت وحدها تمش الذباب عن مكان جلوسها. اقترب منها وقرر أن يجرب شيئاً..

- زكية، هل تعرفين الهندي بابو؟
- موزع الجرائد الأبله تقصد؟ آسفة، نسيت أنه صديقك.
- كلنا بشر يا زكية، وخالقنا واحد.. المهم، زودني بابو بمجلات قديمة، خذي بعضها كي تتسلي بالقراءة.
- أراد أن يتأكد من حدسه، هي على الأرجح لا تحسن القراءة ولا الكتابة. فقط اكتفت بمد يدها وأخذت منه المجلات ودستها في كيس، لم تتصفح شيء.

- مواضيع شيقة تستحق القراءة، ألسنت مهتمة بتصفح المجلات؟
جري الآن.

- أ.. أعتقد الوقت غير مناسب، في البيت سأقرأ وأنا مرتاحة،
القراءة تحتاج إلى.. مكان هادئ.
- هذا صحيح يا زكية.

تواري كذبها لا أكثر. حذرة وتعرف كيف تراوغ في التوقيت الحرج، نعم، فالحاج مرزوق له الحق فيما طلب. زكية امرأة تخفي الكثير ولا تحب أن تبدو بمظهر الضعف مثل أية أنثى عادية، بلا شك أدركت الفخ المنصوب أمامها، تفادته ببراعة وحسن تدبير. لن ييأس بسهولة من أول

محاولة، حتمًا ستكون هناك فرصة أخرى، يفكر ثانية، ها هي انشغلت
مع امرأة مسنة برفقة حفيدتها الصغيرة تشتري لها رقائق البطاطس،
فغادر المكان يحمل كنزه الورقي.



(5)

هذا المساء صعب، بقايا حرارة النهار تنبعث ثانية لتشوي كل شيء مع الرطوبة المتصاعدة من البحر، الكل يندس في مكانه الخاص، هو - في هذه اللحظات - مثل أي قط متشرد، لا.. القط يأوي إلى الظل باحثًا عن أية مساحة ترابية مبللة بالرطوبة كي يخفف حرارة جسمه المتصاعدة، القط أفضل في هذا التاكتيك، هو هنا يدور في حلقات مفرغة من الحيرة، الحر يأكله ويشويه حتى الموت ببطء، لا يملك الآن إلا مواصلة المشي في هذيانه، هنا بالشوارع المنكفئة على صمتها الخائب. قطعة الورق الكرتوني المقوى التي يحملها كي يلفظ عنه جو الرطوبة الخائفة لم تعد تنفع، يشعر بأنه يغلى كالسمكة في قدر عملاق، يبلغ بخطواته المتعبة جامع المهزاع، يهرع إلى براد الماء (السبيل)، الآن يستطيع الاحتيال على الحر ويطفئ حريق جسمه، كالمهوف جاء ليتزود من خيبة الموقف، براد الماء كأنه يضحك ساخرًا في وجهه، التيار الكهربائي مفصول أو هناك عطل ما، لا يدري، فقط استند إلى حائط المسجد خائر القوى. المكيفات تحاصره وهي معلقة على جدران البيوت والعمارات، تهدر بصخبها وبرودتها لأصحابها فقط، وهو هنا لقمة

سائغة للحر، يكاد يموت في الشوارع التي أخلتها عساكر الحر والرطوبة بقوانينهما العرفية القاسية.

الحديقة بعيدة بعض الشيء، والوصول إليها يعني المزيد من المعاناة في مصيدة الحر والرطوبة، فهؤلاء الأجانب الموظفين ضمن الشركات الأمنية، لهم قلوب من أسمنت تحرس اخضرار الحديقة، مرات كثيرة يصطاده الحر في أوقات حرجة، فلا يجد الرحمة منهم، أصبح للحديقة - بكل تفتحها الجميل - وقت رسمي للزيارة، ربما هؤلاء الحراس مزودين بعدادات تحسب كمية الأوكسجين التي تتسرب من الأشجار كهدايا لهذه المدينة، لكي تتحول فيما بعد إلى ضرائب عامة واجبة الدفع!

لا حيلة أمامه الآن غير الجلوس حائرًا.. يراقب خواء الشارع، يحرك ورقته الكرتونية و.. صوت واهن يجبو من نافذة ما قريبة منه، صوت يشبه حشجة أو اختناقًا، لا يبدو أنه صادر عن جهاز التلفاز في شقة أحد السهارى المشدودين لمشاهدة فيلم سينمائي، الصوت يغيب ببطء ويحضر مقاومًا، يتعلق بالمزيد من الركض نحو النجاة من مصيرٍ ما.

في بادئ الأمر؛ اعتقد أن الصوت يأتيه من الأعلى، الزقاق أمامه طويل، المكيفات تهدر، قلبه مضطرب، يرسم سيناريوهات سوداء تذكره بمشهد مدمن مخدرات قضى بجرعة زائدة ها هنا منذ عامين فقط، كان أشبه شيء بكيس قمامة عند أحد الأبواب، يعرفه شابًا ثلاثينياً من

حمالي السوق المركزي، يسحب عربته الخشبية الطويلة المحملة بالبطاطس، متحزماً بجزامها المشدود إلى خاصرته ومنكبه، يقوم بنقل الكميات المطلوبة ويوزعها ما بين تجار السوق وسط الضجيج والزحام.

وها هو شبحة لم يغادر الزقاق، كان مجرد شيئاً مهماً، مطروداً من رحمة وحب أهله، قبع عند عتبة الباب ويقربه صينية بلاستيكية عليها عشاء بارد ومتواضع لم يُمس، "ملعون أبو الجوع"، سرق ذلك العشاء كغنيمة من جيب الشقاء. كلما تذكر هذا؛ يشعر بالتقرز من انتهازيته، كيف استنفع من عشاء رجلٍ ميت بلا دعوة مُسبقة؟!

الصوت يستمر متسرّباً في الزقاق الخاوي، شعر أنه توقف، لا، فالصوت لم يتوقف كلياً، فقط عليه العودة أدراجه للخلف، فالصوت يكاد يضيع منه، هذه الرطوبة باتت تنهكه أكثر في هذا البحث المجنون. ربما الصوت قادم من هذا البيت المهجور، أطل بسرعة وخوف على المكان، لا شيء هنا سوى قطط تتعارك على مناطق نفوذها. اقتفاء الطيف الصوتي المجهول صار أصعب، أصبح يتقطع أكثر ومعجوناً بالمزيد من الألم والنهاية.

طاقة فضولية تتسلط على حواسه الآن؛ فيتمسك بها، ويحدق في النوافذ أعلى وأسفل، يحاول تخمين مكان الصوت في غابة الأسمنت التي

أمامه، يا للجنة.. داست قدمه اليمنى قاع زجاجة (بيسي) مهشمة،
جرحته جرحًا غائرًا، لكن..

تلفت حوله فأدرك مكان الصوت، كيف غفل عن المكان؟! هذه
شقة الحاج محمد غلوم، هنا مصدر الصوت، وهنا الجامع، كيف
ضاعت منه حواسه الخرقاء في متاهة الحيرة كل هذا الوقت؟ فطرق
الباب؛ لكن لا أحد يجيبه غير ذلك الأنين المستغيث، وها هنا الباب
الحديدي الواقف بعناد، موصد أمامه، يحدق برود قاتل. دفعة، ثم
دفعتين، ثم ثلاث، يفتش في عقله عن وسيلة لفك عناد هذا المعدن
الأخرق، نعم.. حاوية القمامة في مفترق الزقاق جهة اليمين، يفتش عن
قضيب حديد أو أي شيء يستعين به، لكن، لا شيء غير قمامة
متراكمة، فرجع إلى المكان بسرعة وطرق الأبواب يستجدي نخوتها
بجنون، من باب إلى باب، لكن؛ لا جواب في متاهة البيوت التي تندب
أهلها، متروكة لغزو الأعراب، تنتشر روائح وجودهم مسيطرة، وكلُّ
يعتزل جزيرته الأسمنتية هنا، ولا يعنيه العالم لو احترق أو غرق!

هو فقط من أطل غاضبًا من ركام الخراب، شاب بحريني وسط
غروهم البارد القاسي، استيقظت نخوته العربية، بضع كلمات قليلة شرح
بها الموقف؛ وانطلقا نحو الحاج غلوم. بطريقة ما فتحا الباب، ثم..

الحجرة، هنا يتسرب منها الصوت، يعبر من ظلمة المكان، طيف روح تكاد تتمزق من وجعها موشكة على الرحيل.

وجعها.. الذي يلعب بهذه اللحظات الحرجة في حجرة مسكونة بالقلق والغربة ذات الأنياب التي تنهش الجسد الضعيف المستكين لقدره..

أي قدر هذا الذي يختار المساكين، ليغتال اطمئناهم المؤقت ويعصر وحدتهم في كأس مرارته، مستنفداً أحلامهم وذكرياتهم وفرحهم، هكذا يباغتهم بلا توقيت مسبق، يسرق الروائح الأنيسة للنفس، يشعل حرائق بلا دخان هنا.. عبوات الدواء بعضها فارغ على (كومودينو) السرير وهذه عبوة أخرى انسكب محتواها فوق السطح الخشبي العتيق يتكاثر عليه الذباب في وليمة طارئة عند عجز وحيد.

طارئة، الحالة طارئة هكذا قال الرجل وهو يجري اتصالاً يستعجل فيه سيارة الإسعاف، مر الوقت حتى وصلت إلى المكان، فبدأ فضول الأغراب يستيقظ على وقع الصفارة، كالجراد يحتشدون، كانت أعينهم متحفزة يستنفرها الحدث وهي تراقب، تتفقد بقايا القصة عند عتبات الفجر، يُفتقد صوت الحاج محمد غلوم، وهو ككل يوم جمعة يفتح مايكروفون الجامع قبيل أذان الصباح، يرتل سورة البلد والليل والقدر

تباعاً؛ هكذا، وبصوت خافت يتسلل حنوناً يغمر الأزقة بنسمات
الرحمة، وهو الآن في كونٍ آخر.

دقائق وحُملت آلام العجوز على بياض السرير المدولب إلى
صندوق سيارة الإسعاف، أعينهم تحاصر حدث هذا اليوم، ثم صارت
تتوارى خلف الستائر وتعيد غلق الأبواب.

*** **

مضت السيارة تشق طريقها نحو المستشفى، تفرق فضول الأعين،
انفضت ثمرات الألسن المستفسرة.. جاء يشد على يده لشهامته:

- أحسنت يا عارف، لولاك لمات الحاج غلوم ولم يدر به أحد،
والجيران في المنامة، أنت تدري، كل الذين من حولنا أجنب
يحاصروننا من كل الجهات.

- أنا لم أفعل إلا....

- أحسنت يا عارف، هذه شهامة العربي والله.

- شكراً، وأنت، لو لم تفتح باب بيتك يا طيب، لفقدنا المسكين،

الحمد لله، المنامة لا تزال بخير وفيها (أجاويد) أمثالك. المهم

الآن، نتمنى أن يتعافى الحاج غلوم.

رأى نفسه نهب أفكارٍ شتى، كيف خرج من جلده المسكين ليلعب

دور البطولة؟! أنقذ روحاً كادت تُزهق في عزلتها، الحاج محمد غلوم

عجوز أرملة، له من الذرية شابان. الأول - وهو الأكبر - مهاجر إلى ما وراء البحار، هناك في كندا، انقطعت أخباره وزياراته، والثاني، مات بنوبة قلبية في أحد الملاعب الرياضية خارج المنامة من مدة طويلة. هذا كل ما يتذكره من حديث الحاج ذات مساء.

أراد التحرك فوجد صعوبة في ذلك بقدم مجروحة، فاستمهله الرجل لحظات قليلة، ثم أسعف له قدمه وأعطاه كيسًا..

- هل هذا حذاء؟
- ستحتاجه، قديم بعض الشيء لكنه أفضل من.. النعال البلاستيكية التي لا تحميك، اعن بنفسك يا عارف.
- وتعرف اسمي؟!
- ومن لا يعرفك؟! هاك خذ هذا...
- أحاول أن أتوب عن التسول وأنت...
- عارف.. هل ترى تلك السيارة الرمادية (تويوتا)؟
- فهمت، فهمت، سأجعلها تلمع كأنها جديدة، هكذا نتفق يا أخي.
- تعال نظفها في أي وقت، نسيت، رجل الإسعاف أخذ رقم هاتفني من أجل كتابة تقرير عن الحادث وسأحتاجك في مركز الشرطة.

- لا لا، لا تذكر اسمي يرحم الله والديك، اعتبرني جندي مجهول..
أرجوك.

شرع يعرج في الزقاق، ينفض عن ملابسه غبار الليلة الماضية، كأنه
يكشف في طريقه نهارًا مختلفًا. يعرج ويبد الخطوات، يدخل الشوارع
التي بدأت تدب فيها الحركة، المنامة تستيقظ. زكية هناك قرب الحديقة،
يستطيع رؤيتها، كأنه يشم رائحة الذرة المسلوقة، فمشي؛ وضجيج
الشارع آخذ في التصاعد، الآن فقط؛ تذكر أنه فقد حقيته التي تلازمه،
لا يدري أين ذهبت في خضم الريح العاصف التي حاصرته البارحة، لا
بأس.. سوف يتسامح مع خسارتها، أو سيبحث عنها لاحقًا، هو متأكد
أن لا أحد في المنامة يطمع فيها. أحد العمال الوافدين مر بدراجته من
المكان، استوقفه طالبًا توصيله، فكان له ما أراد. الجو - هذا الصباح
- مختلف قليلاً عن جحيم البارحة، وما هي إلا لحظات وهذا الهواء
الصيفي يلفح وجهه، ساخن يتحول إلى حبات عرق لزجة. وصل إلى
الحديقة وهو يبتسم في وجه زكية، تراقبه ينزل عن الدراجة، يشكر
صاحبها وهو يضم كفيه كما يفعل رهبان التبت. في الحال، جهزت له
كوبًا من الذرة الساخنة، لم تتفوه بكلمة غير أنها عندما التفتت إلى
عرجه - وهو يجلس بصعوبة عند سور الحديقة - سألته:

- عسى ما شر، أذاك أحدهم كالعادة؟

- إنها مجرد.. شيء بسيط في قاموس المتشرد، عضة كلب سائب غافلني أثناء نومي، لكن هذا أسلم من أن يعضك بشر!
- أذاك أحد الأشرار أو السكارى، أنت فقط لا تريد أن تتكلم يا عارف، حسناً براحتك.
- طفل بدين جاء مهرولاً واشترى بعض الحلوى ومضى نحو الحديقة، التفتت إليه ثانية وهي تحدق في قدمه..
- قدمك ملفوفة بعناية، يعني ذهبت إلى مستشفى السلمانية، صح؟
- أحد الطيبين نقلني إليها البارحة. (يحدق فيها متممًا في سره: واضح أنها صدقت كذبتى).
- نعم يا عارف، ذكرتني.. الحاج مرزوق أخبرني أن مؤذن جامع المهزح نقلوه إلى الطوارئ.
- الرجل لا يستحق هذا، أنا أيضا سمعت الخبر!
- تناول منها كوب الذرة، أكل بشهية فقدمت إليه الكوب الثاني - وهي تبتسم - عن طيب خاطر، تنظر إلى هذا الجالس، وتقلب أحواله في عينيها، كأنه لا ينتمي لهذا العالم بكل صحبه ولهائه الحياتي المحموم، هذه المرة لا يحمل حقيبتة الرثة كما تعودت أن تراه، لا تدري إن كان قد فقدها أو نسيها في مكانٍ ما، حقيبة عادية كالتى يستعملها العمال -

الكبار في السن - وهم يتوجهون إلى المصانع أو عمال البناء، تعودت أن تراه يحملها معه أينما ذهب، تفكر في.. نعم فكرة حسنة كي تفتح صفحة جديدة مع هذا المخلوق، تريد أن تقترب منه حتى تكتشف عالمه الخفي، الفضول يأكلها وهناك صوت خافت يباغت عقلها، يتساءل عن سر هذا الرجل. شكت منذ اللحظة التي رأته فيها، هل هناك ما يخفيه؟! أوماً برأسه يشكرها، حذق في قدمه المصابة ثم قام بصعوبة. قام وهو يتشاءب، دخل إلى الحديقة واختار ظل شجرة الليمون، استلقى على بساط الحشائش الخضراء ونام غير مكترثٍ بشيء.



(6)

شيء ما يداعب أنفه، الشيء يستمر في التجول على خارطة وجهه.
يحرك وجهه محاولاً التخلص منه، قد يكون.. على الأرجح حشرة أو
ربما، شيء لا يتوقف، بدا مزعجاً بشكل لا يمكن أن..

استيقظ من نومه، تفاصيل الصورة زالت غمامتها أمامه الآن، مجرد
طفلة صغيرة في سن الروضة بملابس وردية أنيقة، كانت تحمل عوداً
أخضرًا، وهي تضحك بروح مشاكسة. قبل أن يتحدث إلى براءتها،
جاءت خادمة آسيوية تهول بانزعاج، واقتادت الطفلة من يدها، كانت
تلوح بكفها الصغيرة إليه، رأسها تتمايل فرحًا، تمنى لو تحدث معها كي
يروى عطشًا ما يرقد في خافقه المتصدع عطشًا وعذابًا وغربة.

التفت ناحية مدخل الحديقة، مكان جلوسها خالٍ، غادرت اليوم
مبكرًا قبل موعدها، يشغلها أمر ما يستدعي انصرافها المبكر، هذا
ممكن. ماذا تفعل غير الجلوس هنا صباحًا وعصرًا تسترزق؟ هو حتى لم
يسألها أين تسكن؟ ما دام الألم قد خف قليلًا، فقد قام يعرج بطيئًا في
شوارع المنامة ويصفر في خواء عالمه، يتأمل البناءات الشاهقة ذات
الواجهات الزجاجية التي تسطع في ضوء الشمس وسيل من السياح
الأجانب يتفقد معالم المكان. واصل طريقه يمشي حتى وصل إلى حي

جامع المهزوع. المنامة بكل تفاصيلها لا تشعره بالغبرة، حفظ رائحة الشوارع والأماكن، هنا أكل شطيرة هامبورجر بالجبنه من شخص لا يعرفه، وهناك تحدث مع أحد السياح كان يسأله عن تاريخ مبنى البريد، وهنا عند هذه البناية فاجأه كلب شرس عض ساقه اليمنى. كل هذه الأماكن تستفز ذاكرته الآن، يتمشى ويكتشف تغيرات كثيرة تداهم منامة قلبه التي تحفظ ظله وصوت وقع خطواته، بنايات كثيرة تنبت في جوف البحر وأرصفة من الطوب الأحمر تلون الشوارع، يشتغل عليها العمال الآسيويين المصلوبين في جحيم الصيف بلا رحمة.

اللعة.. قطعة البلاستيك المهترئة تلفظ آخر نفس لها، لو تخلص منها البارحة كان أفضل، ماذا يفعل الآن؟ بحث حوله عن حل، فوجد سلگًا معدنيًا أمكنه من إجراء تصليح عاجل للنعال المهلكة، لكنه قبل أن يواصل تسكعه محاولاً مغادرة جلسته الطارئة فوق الرصيف الخرساني الساخن الذي شوى مؤخرته، داهمه صوت أحد العمال الأجانب، ينظف حلقه بالقرب من أحد البرادات الوقفية، تذكر عطشه الآن ومضى إلى هناك، وها هي قطرات الماء تتكثف فوق سطح الصنبور الفضي، ماء بارد يدعوه للشرب، سارع يروي ظمأه وكفه تتجمد من انهمار الماء البارد، ولكن في أثناء ارتوائه، سمع صوتاً غادره منذ زمن..

– أتشرب من هذه الوساخة!؟

- كل الدنيا وسخة!!

أراد أن يبتعد عنه، من عساه يكون؟ سيارة فخمة تحيط صاحبها بأجواء النعمة والأبهة، نظارة شمسية تشبه ما يلبسه نجوم السينما، هذا الوجه يرقد في الذاكرة لكنها تستيقظ ببطء أو ماذا؟ شيء ما يعيق ذاكرته أو يضرب مجال رؤيتها، الرجل في عنفوان شبابه وابتسامته الخفيفة تشي باستمتاعه بما يجري.

- اركب السيارة.

- اذهب عني لا أريد الركوب معك.

- ما السبب؟

- مرة ركبت مع واحد ابن حرام فأخذني إلى مكان بعيد وتشارك مع آخرين .. قضيت خمسة أيام في السلمانية، حتى قضاء حاجتي، عذاب صعب، معه تكاد تطفر روعي من الوجع، اذهب واتركني.

- عليهم اللعنة.. أخبرني عنهم وسأذيقهم طعم جهنم، أحقاً فعلوا بك هذا يا أخي؟!

كل حواسه تعلن الفرح لهذا اللقاء غير المرتقب رغم كل شيء.. هذه هي أعلى الجبين تلك الندبة التي يتذكر سببها الآن، سقط هاني قرب عشة الدجاج، فاستقبله مسمار بارز أسال دمه ودمع تلك الأم

الصابرة، هاني يا شقيق الذكريات المشحونة بالحزن والعناء، شبابك متورد وأيامك شيء آخر مختلف، تلبس أعلى الثياب وتركب أفخم السيارات وتأكل في مطاعم الخمس نجوم.

- كيف لم تعرفني؟!
- ما تفعله الأيام يا أخي، أخوك نصف شاب آيل للسقوط أو مجرد مجنون، قط متشرد في أحسن الأحوال!
- لا تتكلم هكذا أرجوك.. يا عارف، هيا اطلب شيئاً تأكله ولا تهتم بنظرات الناس، نصف هؤلاء هنا حثالة متأنقين، أنت أنظف واحد فيهم.
- هاني لا تغلط على الناس.
- لا تزال على براءتك، طيب و.. صحيح أنا أخوك الأصغر لكني معجون ببلاوي هذه الدنيا، الناس الذين تدافع عنهم، هم الذين اتهموك بالجنون فوصلت لمستشفى الأعصاب، عمي هو من قدم ضدك بلاغاً في الشرطة، ألا تعرف هذا؟؟ في يوم الحادث، أي كان ثملاً وكمية كبيرة من الكحول تدفقت على ملبسه وهو سكران، اشتهى تدخين سيجارة، لكنه بلا وعي أشعل النار في نفسه، أنت هربت بدلاً من تدارك الموقف.. يستحق دفع ثمن قسوته علينا!

- أرجوك.. بعد تلك السنوات، جئت لتخبرني هذه الكذبة، ثلاث سنوات أقمت بمستشفى الأمراض النفسية حتى كرهت حياتي.. لا أطيق أكل لقمة واحدة معك هنا.
- لو كذب عليك كل الناس، أنا صادق معك يا عارف، الحادثة انتهت و.. أنت مسجون في الماضي. كل شرطي في الشارع تتصوره يتعقبك، ما هذا البله؟! عش حياتك يا أخي، الأمر انتهى، لا الشرطة أو المستشفى لا دخل لأحد بك، تتوهم فقط من فراغ. عندك وسواس قهري سيدمر حياتك، هذا تشخيص المستشفى وليس كلامي.
- ولكن الناس لا ترحم ولا تنسى أنني الشاب الشرير المجنون الذي أحرق والده.
- أنت من يجب أن ينسى، لا تجلد نفسك. تعال معي حتى تعيش مثل أي آدمي آخر في المنامة، سأجد لك فرصة عمل ومكاناً تسكنه، أنت وافق فقط.
- المنامة كلها بيتي، الله يغنيني عنك، رأسي لا تزال تتنفس، هل مددت يدي لك؟

- عنيد ولم تتغير، والدنا الآن مجرد عجوز مشوه على كرسي متنقل غارق في فاذوراته، أخذناه لدار العجزة، خليه يقضي آخر أيامه وننتهي من القصة، عارف أنت لو تقء.
 - أنا أستثقل هذه الجلسة وألا تحجلون من كلام الناس.. أبي ترمونه هناك؟! أنت وسهام من خطط للموضوع أنا متأكد. بعدها تنقلبون على أمي، حرام عليكم.
 - قسا قلبك يا عارف، هل نسيت أنني أخاك الأصغر؟، حقاً غيرتك حياة التشرء.
 - ليس أكثر منك، فتحت سجلات صورية باسم أمك وأخذت تتاجر بها بالشطارة والغش، تعتقد أنني لا أعرف. أعرف دكاكين المنامة، يا هاني لا تتمسكن عليّ أنا..
 - أنت أذهب لأي مزيلة تريد، الكلام معك مضيةة للوقت ووجع رأس على قلة الفائدة، ولكن.. كيف سأراك ثانية؟
 - كل المنامة تعرفني فلن تنوه عني لو سألت.
- انسل خارجاً من بوابة المطعم الزجاجية الأنيقة، موظف الاستقبال الآسيوي استحققر هيئته واستكف عن فتح الباب له، وحدها تلك الأجنبية الشقراء هي من سبقته لهذا التشريف ففتح لها الباب. نظر خلفه لواجهة المطعم ومعدته تجابه الجوع ونفسه تصارع كبرياءها المجروح،

سارع للاختفاء في أزقة المنامة تحسباً لهاني كي لا يلحق به أو يهتدي إليه سبيلاً، بسرعة أغرق نفسه وسط الزحام.

يفر من تلك الأيام، كل ما فيها يطارده الآن، ما بال أشباح الماضي تخريش صفحة صفائه الداخلي؟ لم يختَر تشرده التعس وضياع أيامه وأحلامه، لكنه مع مرور الوقت تصالح مع نفسه وتعود مرارة الشوارع وذل الأرصفة وتباين طباع الناس، تكويه بقسوتها أحياناً، وتنعمه برحمتها كملائكة تنشر الخير في أحيان أخرى. فكر.. هاني لم تكشفه الظروف مصادفة هكذا كأني لقاء عابر، مرت سنوات من الجفاف، حيث لا تواصل فيما بين أفراد الأسرة، على الأقل من ناحيته هو، عندما أثر أن يضرب بعرض الحائط كل طقوس فرحهم وحزنهم، نسي كل شيء يتعلق بهم، هاني محق بكلمة القسوة! هذه هي ضريبة التشرد، غدا كل شيء متكلس في مساحات النفس المتداعية والمنهكة من شقاء الحياة. ضحك من نفسه هذه اللحظة وكأنه لأول مرة يعرف خارطته الجوفية.. هكذا أحياناً نحتاج لمن يصفعنا بحقيقتنا ويعريها، حيث لا نحتاج إلى المزيد من التبريرات الدفاعية التي تزيد من اللمعان الخادع بدواخلنا. تعب من سيره وهو يعرج، الشمس تتوسط كبد السماء، أدركه العطش والإحباط والندم.

لماذا لم يأخذه إلى أحضانه؟ لا يزال يتذكر تلك الدموع الشقية من خلف القضبان، كما يتذكر صندوق المانجو.. كان يوماً صيفياً ملتهباً من شهر أغسطس حينما دخل إلى البيت وصدره يعلو ويهبط من التعب والخوف! لحظات حتى نبش حبات المانجو من بين حشوة الورق المبشور في تلك العلبة الملونة..

- خذ، خذ يا أخي، ملعون أبو الجوع هيا كل!
- من أين جئت بها؟
- أعطوني إياها بالجان يمكن.. ألا تراني أهت ونفسي ينقطع يا غبي!؟
- عدت للسرقة من جديد يا هاني؟؟
- غضب عني.. كان الهندي يعرضها في الشارع صفراء ولذيذة.. كيف سأتحمل إغراءها، قل لي؟
- كل حبة شعلة من النار في بطنك لع.. لعنك الله.

أخذت رأسه تدور، تأثير حرارة الشمس تنهش من تركيزه فلجأ إلى مظلة خشبية ترتفع فوق أحد الدكاكين المنتشرة التي تشيع في الأزقة وتغص بالهنود، بحث في جيب بنطلونه عن أي مبلغ، لا شيء في هذا الجيب المثقوب، لا يريد أن يمد يده كي يتسول هؤلاء الغرباء. افترش الأرض وشرع يفتش الكيس البلاستيكي الرث، حتى رغيف الخبز

المدخر لحالات الجفاف كهذه لا ينفعه الآن وهو مخضر تلونه بقع العفن،
تعافه العصافير لو كان على الرصيف، فكيف يأكله؟
اكتفى بالجلوس عند عتبة جوعه يعالج انقباضات معدته الخاوية في
صبر، لكنه لم يفقد تركيزه بعد، المرأة التي خرجت من الدكان وهي ترفع
عباءتها عن غبار الزقاق وتكشف عن لحم جسدها الأبيض، نسيت
بعض أغراضها. سارع إلى تنبيهها، التفتت إليه لحظات وهي تحديق فيه
ثم تشكره ممتنة..

- الحمد لله، رحم الله والديك، أفقد تركيزي أحياناً.
- نعم الواحد منا تضيع حواسه أحياناً.
- للتو صرفت معاش زوجي التقاعدي من البنك، كمل جميلك
معي وساعدني في حمل..

فطن إلى بقية كلامها المبتور وسارع يحمل عنها أغراضها، كانت تتثنى
في مشيتها وهي تتقدمه، تكشف عن ساقها وهذا عطرها يكمل سيرة
الغواية، تلتفت إليه في نظرات خاطفة وهي تتبسم، أسنانها ناصعة
البياض تلوك اللبان البصري، تحاول إخفاء وجهها بتصنع شيء من
الحياء والعفة، يديها موشاة بالحناء، لوحة فنية ساحرة التفاصيل.
يضحك في سره من تصرفها، ما الذي يلفت انتباهها في هيكل شبه
حي، وسخ وفوضوي غريب الأطوار مثله؟!

على الأغلب أنها فقط مجرد امرأة منامية مائعة تتغنج كي تسري عن كبتها الداخلي لا أكثر، توقع أنها بمجرد بلوغه عتبة باجها، تعطيه نصف دينار وتشكره أو تكتفي بالترحم على والديه كما تفعل الناس هنا. سألتها العذر إن شعر بالتعب لثقل الأغراض.. نفى أن تكون كذلك وابتسم لها بجامل لطفها، ثم توقفت عند باب حديدي متواضع داخل أحد الأزقة، لاحظ بأنها تلتفت بجذر، الحركة بدت هادئة في الرقاق ما عدا طفلة هندية بمريلة المدرسة كانت تعبر المكان وتغني بلغتها شيئاً ما.

ابتسمت وهي تزبح بعض خصلات شعرها الأسود القاتم، دست سريعاً مفتاحها في تجويف القفل، كأنها دست سهماً في إحساسه المشتعل وهي ذي تستعجل نظرتة البلهاء، طالبة منه الدخول بسرعة!

امرأة تدعوه لـ.. تذكره بنداء الطين للطين وبآدميته. لطالما تعود ممارسة أشياء تافهة لا تروي عطش الروح، الانزواء في أحد الأزقة أو منزلٍ خرب كي يفك سحاب البنطلون ويطلق العنان لجلدته اللحمية ترمي ارتعاش بياضها اللزج في مرمى اللا شيء، هذا أقصى ما يستطيع حتى يحصل على اكتفاء ذاتي تعيس يهبه بعض النشوة التي يحتاج إليها. لكنه هنا أمام امرأة تشتهيهِ، وتستعد لدعوته ضيفاً على مائدة جسدها الفتي!

عبت قدمه اليمنى أول الخطوات نحو أنس الروح، تشتعل أحاسيسه في ذروة اللحظات وهي تخطف المفتاح إلى صدرها وتكاد تأكله بعينين شبقتين لكنها لم تقد قميصه من دبر، بل أخذته إلى مساحة ظمأها الصحراوي بهدوء، احتضنته بقوة وشعر بوجع لذيذ لحظة اعتصرت (.....)، تفح فحيح الأفعى التي وجدت شريكها ثم لفظته بعيداً وتجهم وجهها الجميل، تسد أنفها.

- رائحتك لا تُحتمل، ربما زكية لا تشم شيء هذه المسكينة وأنت قرب البسطة. حاسة الشم عندها معطلة لا أشك في ذلك.

- تعرفينها؟ ثم من أنتِ؟

- صديقتي، لا تصير غيباً وتخبرها، صحيح ستعلمها القراءة؟

- نويت أن أفعل، لكن زكية صعبة قليلاً.

- لكنها قالت.. هذا ليس مهماً.

- وهكذا قررتِ تأليف حكاية حمل الأغراض إلى هنا!

- ذكي يا عارف، كشفت خطتي، تعجبك زكية؟

- لم تسألين؟

أخذت منه الأغراض ووضعتها جانباً، رتبت زهوراً اصطناعية في مزهرية من الزجاج الأخضر، ثم وضعت إبريقاً معدنياً على موقد غازي

مركون في أحد زوايا البيت، أشعلت عود كبريت، فتحت نهم الموقد
لشرارة البدء..

- لا تضيع وقتك معها، واحدة معقدة، أنا أصلاً أرافقها شفقة
ومجاملة، شيء لوجه الله، ما رأيك أأست جميلة؟ (ثم لمس طرف
لسانها ما بقي من اشتعال عود الثقاب وانطفأ)!

يتوقف هنا عند حدود ارتياحه أو الخوف من القفز على طيبة نفسه،
لا يدري الآن كيف تتهيأ الفرصة مثل برتقالة مقشرة متاحة في راحة
كفه. الحركة أخبرته جرأة هذه المرأة، رسالتها واضحة الآن وعليه أن..
فرصة مجنونة، ما هو شكل هذه الفرصة؟! المرأة تشتهي رجلاً يطفى
حريقها وكفى!! أتخسب أنه صيد سهل هكذا؟ لا ضير من فعلها ما
دامت تريد، لكن لكل هذا ثمن، ربما ورطة يتعثر في دوامتها، المرأة تريد
أن تلعب لعبة ماكي تصل إلى غايتها، وهو هنا، تلك الدابة العمياء
المطلوبة لتأدية الدور. مجرد شاب أبله متشرد يثير الشفقة، يُستعان به
للعب الأدوار الوسخة و.. حانت منه نظرة إلى نفسه المكسورة، كيف
أصبح هكذا في نظر الناس (طرطوراً) مسحوق الكيان أو شيء تافه
لقضاء الحاجة والتسلية العابرة!

هي على الأغلب تعرف بأنه اشتهر في المنامة (كمجنون) أو متهم
ألصقت به تهمة محاولة إحراق والده.. ثم أن الظروف قد تكون جمعتها

بأحد هؤلاء الشياطين الذين يسعون خلفه للنيل منه، وهي ذي هنا تتصنع فوران الشهوة كي تستبقه كجزء من الخطة ريثما تحضر الشرطة ثم..

- سأذهب، أغراضك وصلت للبيت ولا شيء بيني وبينك أكثر من هذا.

- أحتاجك يا عارف و.. ألا تشفق عليّ أو على نفسك؟ أنت ألا تحتاج امرأة؟! ألسنت من جنس البشر؟ أو أنك بهيمة تهيم في الشوارع بلا هدف؟ حتى البهائم تفعلها؟

مكث مكانه عند الباب حائرًا لا يعرف كيف.. هذا اختبار صعب لم يتوقع السقوط في مطبه، معادلة صعبة تتحداه، سيجرب ثانية لعلها تفرج عنه، هو لا يرغب في ورطة من المؤكد أنها ستجر عليه المزيد من المصائب. لتذهب هذه المجنونة إلى الجحيم وما تريده، هي أخطأت العنوان، ولتصفه بأي شيء آخر لكن.. تفتح باب عفوها عنه وترجع إلى رشدتها!

عادت تحديق فيه، قلملت من انتظار جوابه، ثم التصقت به وأخذت تعبت بياقة قميصه المتأكلة الحواف والمتسخة.

- يعني لو أغسل قميصك هذا وأخذ ماءه وأتركه لتشرب منه العصافير لماتت، سأجهز لك الحمام يا عارف، عندي لك ثياب

نظيفة وسأقلي لك سمكًا صافيًا بالزبدة، فقط نم معي، وإن لم أعجبك إنساني.

-

- أوقفف، الكلام معك ضائع.

قامت وفتحت قفل الباب، بدت محبطة ومشمئزة، تداهما مشاعر المصابة في أنوثتها ترقب حالته عند الجدار، عندما نهض من مكانه كان واضحًا تلوث قميصه الأزرق بالدهان الأبيض المتقشر، فأستثار المشهد ضحكها.



(7)

أوقف سيارته (البيك آب) عند سور الحديقة يعد حصيلة كده اليومي، لم تعجبه النتيجة، فبصق خارجًا في حنق مكتوم. أحد المارة نقر زجاج نافذته الخلفية طالبًا توصيلة، مسد بإصبعه شاربه الأشيب وهو يحدق في الشاب..

- نوصلك للمريخ لو تريد، على حسابك؟
- تأخذني للمحرق، كم تطلب؟
- التوصيلة أقل من ثلاثة دنانير ما تستحق يا طيب.
- تسلخون الناس، حرام عليكم، أنا أذهب مع غيرك بأقل من هذا المبلغ.

امسك غضبه من الانفلات، الشاب اكتفى بالانسحاب من الموقف. عاد ثانية الحاج مرزوق يداعب أوراقه النقدية، فيما يبدو أنه يتأكد من الرقم ورأسه تنتفخ من طحن يومه المتعب. دس أوراقه في محفظته الجلدية القديمة، أشعل لنفسه سيجارة وتلذذ بتدخينها، يستريح من ركضه اليومي. بصره يتجه إلى مكان جلوسها، غادرت قبل وقتها بنصف ساعة، توجد بعض المخلفات التي ترميها الفتيات على عجل

وهن تركبن حافلة المدرسة، أغلفة الكاكاو وبعض أكواب الذرة البلاستيكية وخلافه، فقط كان يحدق في فوضى الأوساخ ويهز رأسه. عراك قطين عند حاوية القمامة استلقت انتباهه، فوجده هناك ينبش كومة الأوساخ وقد اتكأ على صندوق برتقال. يتمنى هذه المرة أن يجد عنده شيئاً، يجب أن يحصل على ما هو مفيد لقاء الدنانير التي دفعها له، زكية يجب أن تصدقه، فهو جاد في الموضوع ويريدها بالحلال. أطلق نفير سيارته لكن هذا الأخير كان غارقاً في حاوية القمامة في حمى البحث.

- عارف، يا عارف، ألا تسمعي يا وسخ؟
رفع رأسه ومسح عرقه وهو يبحث عن مصدر الصوت، أدرك أن جهده تبخر في الحصول على شيء مفيد. وجد الحاج مرزوق يلوح له، خلع نظارته ونظفها ثم ركزها على أرنبة أنفه ودقق النظر، حك لحيته الفوضوية ومشى..

- حاج مرزوق، أهلاً.
- لا تمد يدك يا وسخ، قف عندك، ها.. طمني عن الأخبار.
- حسب جريدة أمس، حكومة ننتياهو لا تريد وقف مشاريع البناء الاستيطانية، وتصادر المزيد من الأراضي وتريد السلام، الجامعة العربية تندد فقط!

- صرت مسليًا يا عارف أو سخيًا، يا غبي، أقصد تلك العنيدة التي طلبت منك مراقبتها، عندك أخبار عنها؟
- تذكرت.. تذكرت، إنها.. حياتها عادية جدًا، أنت تتعب نفسك يا حاج مرزوق. اترك زكية وشأنها.
- الحق عليّ، كيف أعتمد على مجبول مثلك؟
-
- خسارة الفلوس التي أعطيتك إياها، ما منك فائدة، أغرب عن وجهي!

ركب سيارته وانطلق بها غاضبًا. أخذ يراقب الموقف، متأكد - في هذه اللحظة - أنه استفز الحاج مرزوق للمرة الأولى! إذن هو قادر على استفزاز الناس مثل أي إنسان عادي في الحياة. هذا شيء جيد يث بداخله معنى آخر للحياة، يحرك مياحه الراكدة.. أليس هذا رائعًا؟!

جلس قرب سور الحديقة وأخذ يضحك، كأنه يكتشف متعة أن يضحك من أعماقه المصابة بالمهانة. مشي بضع خطوات قصيرة نحو السور، ثم فتح حقيبته التي وجدها معلقة في شجرة بالحديقة، الحمد لله ها هي رجعت إليه ولم تُمس. فتش عن شيء يطرد به جوعه، علبة بسكويت (ماري) صغيرة مدخرة منذ عدة أيام. يتذكر أن هذه العلبة فرصة أكل مجاني عندما أكل وجبة متواضعة من الخضروات باللحم في

أحد المطاعم الهندية، وجد العلبة متروكة فوق طاولة مليئة ببقايا الطعام، استغنى عنها أحد الشبانين، هي هكذا صيد هين، فخطفها. تبًا له هذا النمل المزعج تسلل خلصة إلى جوف العلبة ونفذ غزوه الصامت، فرش منديلا قماشياً رثاً وفتح العلبة محاولاً تنظيف وجبته، مسح عرق شقائه، ها قد جاء هاني في وعيه هذه اللحظة.

لِمَ يطل عليه الآن؟ مشاعر متناقضة من الغضب والإحباط.. كان يتباهى بأشياءه الثمينة، ساعة من البلاتين تزين معصمه وسيارة فخمة، أیظن هو أن شقائه وتشرده في الشوارع شيء قابل للبيع؟! يقول.. سأعطيك مكاناً تسكن فيه وأسهل لك عملاً تزاوله مثل أي آدمي محترم في المنامة. أهذا يعني أنه كمتشرد لا احترام له إلا عندما يحنط نفسه ضمن وظيفة ويصبح نسخة مكررة مثل كل الناس؟ ما عيب أن تأكل وتشرب وتتسكع في هذه الشوارع؟ ممارسة الحياة بشكل مجاني والهرب من كل أشكال المسؤولية هي قناعة! يعتقد هاني هذا أن.. لا يريد ذلك، ولا يرغب في شفقتة الأخوية التي تخفي وراءها هدفاً ما أو مصلحة ما. هاني له مصلحة في الموضوع هذا أكيد. كثيرون يعتقدون أنه غبي، لكن هذا ينافي ما يعرفه عن نفسه، هو يعرف مدى زيفهم حينما يتصنعون الطيبة يدهنون بها مصافحاتهم الودودة، ويعرف كذبهم المتواري خلف ابتساماتهم الصفراء المجاملة، يعرف نفاقهم الاجتماعي الملون، ما هم إلا

شياطين جواله، تقتحم اخضرار نفسه وتخرّب هدوء قيلولته النهارية في الخرائب أو الحدائق، شياطين تتطفل على عامله وتحسده على نمط حياته البسيطة الحرة المتقشفة وغير المكلفة!

يتلذذ بقراءة كتاب أو جريدة وهو يتفياً أشجار الحديقة، ينسى الدنيا وكل ضجيجها المتشطي، ولهات المخدوعين ببريقها، يراقب حركة الشارع وهو يعض العلكة، يتطفل على جموع المشيعين في مقبرة المنامة، يعرف المكان المناسب كي يحصل على هباتهم وصدقاتهم، الخميس والجمعة هما أنسب أيام الأسبوع عندما تجتمع الخلق لتسلية أمواتها وقراءة القرآن على أرواحها المتوارية أسفل طبقات التراب. يجلس تحت واحدة من سقوف الخشب ويبيع أحياناً (المشموم)⁽¹⁾ لزوار المقبرة، تنصاع أحاسيسهم وبعض دموعهم وتنصهر حزناً على أقاربهم الراحلين، فتتحول إلى بركات من غيث دنانيري يهطل في جيبه.



(1) نبتة عطرية محلية شائعة الاستعمال في الأفراح والأحزان.

الحاج مرزوق - بات واضحًا - هو منهم بلا شك كشيطان مموه..
شيطان ينصاع إلى طمعه، يزحف مثل الأفعى نحو فريسة سهلة، هو
واهم إن كان يعتقد أن زكية تفكر فيه كزوج. هو لا يعرف أن نقاء زكية
ونفسها الطيبة يجعلانها خارج دائرة هؤلاء المنتفعين، طينتهم من فصيلة
الشياطين إلا هي، تتبختر الآن أمامه في ثوب أخلاقها الدمثة، التفت
إلى حيث قبر والدها، ليست هنا وها هو مكانها خالٍ، مسكون برائحة
وجودها.

ودّ لو يبوح لها الآن ماذا قالت منصوره عنها.. فتاة غبية ومعقدة
تفكر بشكل مقلوب ولا تفهم الحياة؟! الحياة ليست طحناً متواصلًا
وغرقًا في دوامة التعب، والتسمر في دروب الشقاء. إنها مجرد فتاة طيبة،
زكية لا تعرف نفسها أو فكرت حتى في التعرف على نفسها مثل أية
إنسانة.

الكثير من أسرار الفتاة تعرت على لسانها.. منصوره هذه أثملها جمر
اللقاء وحممت مثل خيل عربية التقت بفحلها، شبقة ومجنونة ترقص
بالمزيد من الاشتعال تشبه في رغبتها النار! يتذكر الآن تلك اللحظات،
سمع كلامها حرفيًا ونفذه، استحم وتنظف من صداداً ومايكروبات الأيام
الماضية، لبس واحدة من ثياب المرحوم، بسط أصابعه الخمس على الرز
المحمر وترك سمك الصافي المقلبي مجرد هيكل عظمي فارغ. غابت لحظات

قصيرة لتخرج إليه امرأة أخرى لا تشبه نفسها كما كانت منذ لقيها في الطريق. لم تتكلم، فقط تركت يدها حرة تقصد في لمسات جريئة جسده. امرأة خبيرة مثلها تعرف للمعصية طعمًا آخر لا يججل من شيء!

يود الآن لو يخبر زكية. ظاهريًا هي مجرد امرأة أرملة ومسكينة تعيش حياتها بنصف جناح! لم تكن كذلك.. رقصت وناورت وحولت فراشها إلى رماد تبقى فوق سطح الجمر الذي ذابت عليه بخور الشهوة. كانت تستحته لكي يستعر أكثر وتذكره أن عليه أن يكون رجلًا صلبًا لا يهاب اقتحام قلعتها، تطلب وتطلب في ذروة اشتهاها أن يقدم أفضل ما عنده، فهناك من سبقوه تمتعوا بفحولة بركانية جارفة تفوقه بمراحل، يا لها من مجنونة؟!

وعدته بالمزيد إذا ما أثبت كفاءته كرجل في فراش امرأة ظلمها قدرها في شرح شبابها. نعم، اضطر هنا أن يكون مثل الشياطين التي يكرهها، يفكر - نادماً - كيف ترك غوايتها تسيطر عليه بعد أن كان ينوي الرحيل وهو عند عتبة ترده؟ ترى هل يصل إلى ضفة من الأمان مع هذه المجنونة التي تطلب الجنس وتدعي أنها تعيش من أجله فقط؟! التجربة وحدها أشبعت حواسه المتصحرة، لا معنى لأي تساؤل عن رخام الأخلاق.. كلما تذكر أنه وحيدًا في هذه الحياة، أحس بالتعاسة

والانسحاق، بأنه غارقٌ في تيه اللا شيء، سيأتي عليه يوم ما؛ يتحول إلى ذرات من بقايا عظام أسفل لحدٍ - مع أو بدون - شاهد يُعرفه لزوار مقبرة المنامة، فلم عليه أن يؤجل لذة الأشياء السهلة التي تطرق بابه طازجة الاشتعال!؟

هو هكذا أسعد حالاً من أحد رفاقه المشردين، انتهى به المطاف في حجرة العناية المشددة، الغبي اختار أنبوباً معدنياً كي يختبر فحولته، الحشر قضيه في لذة اللحظات الحرقاء ثم تحول الأمر إلى ورطة حقيقية مخجلة! اختفى ذلك المسكين ولم يعد يراه أحد في سكك المنامة. منصوره ستعوده من الآن، كيف يكون إنسان سوي؟، كلامها صحيح. زكية مجرد فتاة معقدة، مرات كثيرة وهو يجلس ليس بعيداً عنها، يجتلس النظر إلى صدرها، فتتكور على نفسها داخل عباءتها محتمية عن نظراته. أما منصوره فتبيح نفسها بكل سعادة، صحيح أنها أربكنه عندما بكت في ختام اللقاء العاصف وتذكرت أيامها مع المرحوم. ما كانت حماسته ولا الوصفات الشعبية التي يجربها تنفعه في فراشها الملتهب المشتاق، تظلمت من أهلها حينما زوجها به. فهي على حد قولها: إنه مجرد شيخ منتهى الصلاحية يريد امرأة تؤنس وحدته وتطبخ لقمته وتداريه في مرضه. كان جسده المنهار والمليء بالتجاعيد تنوزع عليه دما مل حمراء يهرشها فتنفجر دماً وقيحاً يستجلب حفلات الذباب وشقاءها.

فتكره نفسها وتلعن حظها العاثر. لكنها رغم تعبتها، كسبت حب وتعاطف المرحوم، شربت المر معه لكنها أحسنت العناية به في أيامه الأخيرة، متحملة مزاجه المتقلب، يعصف ويغضب لأنفه الهفوات مثل طفل أو يضحك ويلطفها كهبة النسيم.

تقول بأن أكثر الأشياء التي كانت تخيفها عن المرحوم.. يذكرها دائماً أين وضع كفنه، شيء غريب أن يتألف مع قطعة القماش تلك ويوليها تلك الأهمية، الكفن من كربلاء وممسوح بعبق ضريح الحسين (ع) كما قال لها. لا تذكر من شكله إلا كثرة الآيات القرآنية التي تزخرف مساحته المتواضعة. كم خافت لمس الكفن حتى لا تنجسه يداها الأثمتين. كان يذكرها به دائماً، في خزانة الصلاة. حفظت المكان وملت اسطوانة حزنه وورثائه لنفسه كلما اشتد مرضه. يذكرها كيف كان شاباً معافى البدن، لم يأنف العمل في مواقع كثيرة بأجر بخس، صادق الإنجليز وتعلم كيف يتكلم لغتهم فتمت تركيته للعمل في (بابكو)، فشاهد مارديت الأسود يندفع من القاع؛ يموج غضباً على من أيقظ سباته القديم .. شريط ذكرياته يتدفق كل يوم، يتلو صفحات من مذكراته الشخصية المخزنة في رأسه. يتكلم ويتكلم حتى يتصدع رأسها وهي مضطرة لمجاملته.

يسكت حينما تشتد عليه أعراض المرض ولا يعود قادرًا على الكلام، فقط يتمتم أو يهذي، يسعل بشدة حتى يكاد يقذف برئتيه خارج صدره المعذب. منصوره تعود لبكائها وتحمد الله أن لها صدرًا حنونًا يحتوي ضعفها في هذه الدنيا، يتذكر كيف أخذته إلى حضنها ودلته مثل الأطفال راجية منه أن لا يقطعها، تتعهد له أن لا تفتح بابها لرجل غيره؟!!

ملأت له كيسًا من الفواكه، أعطته زجاجة عطر وأشياء أخرى، بدت كمن توشك على خسارة لا تعوض، احتضنته ثانية كأنها لا تريد لطاوة الحلم أن يفارقها، نصف ساعة، ربما أكثر سنحت لها أن ترتب وتشكل إحساسها الداخلي بفرح آخر يكسر طوق الوحدة والسأم اللذان يخنقانها.

الآن يقلب مشاعره نحوها، أكيد تتوقع منه العودة ثانية. تلك لحظات ومرت، أيعقل أن يترك نفسه هكذا رهن تهور وجنون امرأة تعيش هاجس اللذة وتخاف الوحدة؟ هي أقرت بأنها تستقبل آخرين، مقدمة جسدها كمائدة، ما نفع أن يورط نفسه معها؟ سيحاول الآن صرف أفكاره عنها، فهي تستولي على يقظته، تشتتته وتريده أن يكون عبدًا لها. رفض أن يبيع نفسه لها، فإذا به يقع في فخ منصوره ليكون كأي شيء تشتريه هذه المرأة؟؟ اللعنة على تلك الساعة الفاجرة في

سريرها، اللعنة.. كيف يستعيد صفاء ذهنه؟ هو ملوث الآن مثل أي
شياطين، وخز أسود يتدحرج داخله مثل كرة مزروعة بالمسامير ولكنها..
آااااا، كم هي طيبة الروح منصوره. طاف بذهنه خاطر مجنون، منصوره
لو كانت مشردة تحمل نفس جيناته الوراثية، أما كان ليتحد معها أكثر
وتصبح أحلى؟!



(8)

هذا المساء له طعم مختلف، تم تغيير ناطور الحديقة. ذلك الأجنبي صاحب السحنة المتجهمة ما كان يسمح له بالنوم ليلاً في الحديقة، الله تعالى قدر و لطف، هذا الشاب الذي لا يتجاوز عمره الرابعة والعشرين، ينظف زيه الخاص كلما داعبته بعض الأغصان المتدللية أثناء مروره، ليس صارماً ولا يبدو عليه من ملامحه أي غطرسة، يدخن في قمرة الحراسة ويجب الاستماع إلى محطات الأغاني من هاتفه المحمول ويتمايل في فرح مثل أي شاب مقبل على الحياة، حتى أنه يتشارك وبعض الفتية بلعب كرة القدم في ساحة الحديقة. اسمه حامد، وهذه أول عتبة حياتية ينطلق منها كي يكتشف ذاته ويؤسس مستقبله كحارس أمن. يشجع نادي برشلونة الإسباني، وهو من لاعبي النادي الأهلي، حارس مرمى احتياطي ويعلم بالسفر إلى إسبانيا، هكذا تحدث عن نفسه بالتفصيل.

المهم؛ أن هذا الشاب متساهل، الآن ليس مهماً أن يثرثر أكثر معه، هنا في حقيقته بعض السكاكر بطعم الفاكهة، هطلت في كفه من كرم ولطف منصور، ربما قطعة واحدة كفييلة بكسب وده في اللقاء الأول كبادرة تعارف.

- شكراً شكراً يا.. لم تعرفني عليك.
 - عارف، عارف المظلوم!
 - هذا لقب العائلة أو..
 - أنا أهذي فقط، يا أخي الصغير ولا تهتم، قلت بأنك تسمح لي بالنوم في الحديقة، صح؟
 - واضح أن ظروفك صعبة جداً، من رأيي أن تصالح زوجتك وترجع للبيت.
- الكذبة انطلت عليه، يجرب طعم الكذب ها هنا ما دام يكسبه بعض الأصدقاء لوقت الحاجة، أليس هذا التكتيك رائعاً في عالم البشر الذين يحيطونه؟ ما أعجب هؤلاء البشر، يمارسون الزيف ويعرفون، لكنهم يتآمرون من أجل حفظ مصالحهم. هو يعرف كيف يستعير بعض مواهبهم دون أن يوسخ نفسه، الاحتيال من أجل الحياة ليس إلا؟!
- عارف.. عارف، عندي سؤال شخصي لو سمحت، من الجيد أنك تتحمل فضولي، طبعاً الناس لا نحكم عليها من ملابسها لكن.. يعني أنت لماذا تلبس هكذا؟
 - لأني هكذا فحسب، هذه هي حياتي بلا تعقيدات، أسافر في آفاق أخرى. هناك مثل إيطالي يقول: فناعتك نصف سعادتك، هذه حياتي كما تراها، مقتنع أنا بما كيفما تكون.

- عفواً، لم أفهم شيئاً، تتحدث مثل المثقفين، عندما أشاهدهم
صدفة على التلفزيون، أمرك غريب.

- لا مثقف ولا بطيخ، مجرد إنسان عادي، اسمح لي سأذهب
لأنام.

- ساعني على الإزعاج، نوم العافية.

اندس بين الأشجار يلتمس الراحة، أخذ يتنفس بعمق ملتحمًا مع
الطبيعة، هذه رائحة شجر العوسج تتفاعل مع الرطوبة المسائية، تنكفي
على نفسها وتنام، وهو كذلك الآن يرتاح من دوران الشوارع، يتفقد
قدميه، كالتين بالرغم من أن منصوره أعطته نعالاً مستعملة، لكنه دسها
في حقيبته، تبدو جديدة، وسوف تتلف لو استعملها. أوى إلى عشه
الأخضر، أخرج من حقيبته رداءً بسيطاً، تغطى ونام.

*** **

في اليوم التالي كانت الشمس تمد أشعتها الذهبية إلى تقاسيم وجهه،
بهره الشعاع فاستيقظ، وصلت لأنفه رائحة سجائر حامد، التفت إليه،
يجلس فوق مقعده الخشبي ويلوح له بعينين متعبتين من السهر، بادله
التحية ولملم نفسه بسرعة حسب الاتفاق، حامد لا يريد أن يكتشف
الناطور الآخر والذي سيستلم وردية النهار أمر عارف. بسرعة خبأ
أغراضه وجلس عند سور الحديقة، معدته تطحن الفراغ من شدة الجوع،

فكر بالذهاب إليها، منصوره طيبة القلب وسترحب به .. تراجع عن الفكرة، وأخذ يهرش لحيته الكثة، أحس باحتقان مئانته، يعرف زاوية مفضلة ليختبئ فيها ويرتاح، بدلاً من استعمال حمام الحديقة المخرب أصلاً والمليء بعبارات ورسومات سوقية بذيئة.

بدأت الطالبات تتوافدن عند محطة الانتظار، ربما تتأخر زكية، سيضطر إلى تصبير جوعه قليلاً ريثما تصل، آآآ، كم يشناق لطعم الذرة المسلوقة، يتذكر أنه قال جملة مضحكة انفلتت منه بعفوية.. (الذرة لا يكتمل طعمها بدون الليمون، فبدون الليمون كأني عربية بلا حمام)!

زكية لا تدري ما هو وراء تلك الجملة، ضحكت وأعجبها التشبيه الطريف، لكنه الآن يسرح بذكرياته.. هو يوم واحد من أيام الصفاء التي لا تتكرر، كان ذلك الصباح مختلفاً حقاً. قرر والده - وهذه فرصة مناسبة اغتنمها - أن يقوم بزيارة استجمام إلى مزرعة العائلة، هناك كان الجد (الحاج عبد الكريم) يوزع البرسيم على الماشية، والدجاجات تسرح في المزرعة، ونار الحطب يتصاعد دخانها الأبيض، وأبريق الشاي يبقب بقرائحه الطازجة.

شتلات الطماطم - وخضروات أخرى - ما تعود رؤيتها إلا في تلك الصناديق الخشبية والورقية في سوق المنامة المركزي، ها هي هنا ترهو

بأوراقها النضرة من رحم الأرض، يشم رائحة التراب الذي تبرعم من
رحمه. يطارد الحشرات الغريبة التي تندس في جحورها ويكثر من
تساؤلاته عن أشياء يكتشفها لأول مرة.

مثل طعم التمر بالزبدة التي حضرتها جدته (غنية)، يتذكر طعمها
مترافقاً مع بعض حكايات الذين احتضنتهم غابات النخيل، فهذا
(خليلوه) الذي ابتلعه العين وغاص في عمقها ولم يظهر له أثر! وهذه
(حورية) البنت اليتيمة، التي جاءت تغسل ثياب زوجة أبيها فخطفتها
الجنيات! حكايات كثيرة روتها الجدة الطيبة لا تشبه ما تعلمه في
المدرسة، تمنى لو يطول به المقام في تلك المزرعة، يوم واحد لا يكفي في
هذا الاخضرار الذي يداعب الروح، شيء جميل بعيداً عن تكدر
البيوت والعمارات وزحام الطرقات وصخب السيارات الصغيرة والكبيرة
والخلق التي تذهب وتأتي.

يوم واحد لا يتكرر إلا كل بضعة أشهر، في قرية الهدوء والفرح
تلك.. طاف في ذهنه لو يستطيع أن يخترع شيئاً يوفر للناس السعادة
وقتما يحتاجونها! كيف غادرته السعادة وأصبح مثلها تماماً، فزاعة بوجه
الريح متروكة تنتصب ببلاهة في حقل الطماطم بمزرعة جده ذلك اليوم،
حتى أنها أصلاً لا يفزع منها شيء البتة! اللعنة ها هو هجوم الجوع
يتصارع بمعدته الخاوية، التي ترسل نداءاتها الغاضبة من جديد وركية -

الحمد لله - هي ذي تنزل من سيارة (البيك آب) والحاج مرزوق يساعدها في وضع أغراضها على رصيف الحديقة، ينظر إليه شزراً، وزكية تتساءل في سرها عن السبب لما رأت ذلك.

لحظات حتى تهيأت لاستقبال تكاثر الأيدي، كاكاو، بسكويت، علكة، ذرة مسلوقة بطعم الفلفل، عصائر رخيصة، بطاقات شحن الهاتف المحمول. وهو يجلس مراقباً إياها توزع انتباهها للفتيات. ها هو يرسم الصور أمامه..

هي ذي تتأبط ذراع العجوز وتصعد مسرح العرس وصخب الأغاني يتطاير مثل العطر ويرقص ال..

لا لا، زكية تستحق شاباً يتناسب وسنها، أليس من الظلم أن تقدم نفسها ذبيحة جاهزة للسليخ لهذا المتعب الحالم بالصبا والشباب؟!، يهرول خلف أوهامه فحسب. الآن يلوم نفسه كيف فكر.. مجنونة أفكاره تتخبط في الظلام والورطة، ربما من حق زكية أن تعرف. نظرتة المستاءة وهو يركب سيارته، كم هي مقرفة وتطفح بالشر، يوشك على أمرٍ ما، ربما.. شيء عصي على تفكيره، لكنه يشعر باقترابه، الحاج مرزوق هذا يتلون حسب مصلحته ويبدل أفئعته، قناع للصباح وآخر للمساء، الآن سييوح لها ولن يكثرث..

ثلاث حافلات اكتظت بالطالبات ثم ساد الهدوء. اقترب منها متردداً وكأنه يتعرف إليها للمرة الأولى، كانت تغطي أنفها بمنديل تحاول الهرب من قاذورات الديزل التي تقيأها الحافلات التي غادرت المحطة، التفتت إليه..

- يا ربي سأختق، أوف، ما بالك تضحك يا عارف؟

-

- إن لم تتكلم، ستبقى هكذا، أعرف أنك جائع، ثم تعال هنا.. تلبس قميصاً نظيفاً؟! وما هذا؟، نعال جديدة أيضاً؟، هل سرقت أحدهم؟!

- زكية.. أنت تأتمنيني على الفرشة أحياناً، إنسان مثلي مطحون مهلوك تعيس، صفيني كما تشائين، ماذا يريد من هذه الدنيا؟؟

بدا أنها شعرت بالذنب، تافه ما قالته بلا تأني، أخذت تعبت بالفوطة القطنية التي تمسح بها عرقها في شيء من ارتباك حواسها هذه اللحظة، حاولت تغيير مسار الموضوع أو تتهرب من حرجها وقد حاصرتها شباك الموقف، فهي تعرفه.. يبقى أنه أكبر منها بثلاثة أعوام ربما. الشعرات البيض التي تتوزع على لحيته الكثثة توحى لها أنه مثل هؤلاء الدراويش الذين تشاهدهم في المسلسلات المصرية، عارف لا يحمل مبخرة نحاسية مثلهم ويدور بها في الأسواق، لكنه بدلاً من ذلك،

يحمل بعض الكتب والمجلات وحقبة بسيطة وضحكته متسامحة بين الناس.

- عارف، سأحضر لك كوبًا من الذرة الطازجة التي.. أوه نسيت، اليوم البنات ما شاء الله، شهيتهن مفتوحة و.. تأكل حلاوة طحينية؟

كانت المرة الأولى، خبز وملح يجمعهما، فأكلت معه ولم تتقرف أو ترفض، تفتح الكيس الورقي الصغير وتقطع الحلاوة إلى مكعبات وتقتسم معه رغيف الخبز، كأنها تعيش أحد المشاهد الرومانسية لفيلم عربي قد تكون شاهدته أو هو من نسج ذاكرتها، تقترب من عارف هكذا، بفيض إحساسٍ يستنطق شيئاً يرقص داخلها. عارف له عينين عسليتين تبينت لونهما في شعاع الشمس لأول مرة، واضح أنهما محملتان بذاكرةٍ من الوجد الصامت من النوع الذي لا يبوح. له أصابع طويلة و.. بحركة عفوية منه، لمس يدها عن غير قصد!

لا تريده أن يعتذر! فقط هو حماس الأكل بالنسبة لجائعٍ مثله قد يكون قضى ليلته خاوي البطن في مدينةٍ فيض رحمتها يتفاوت من وقت لآخر! الآن أتراها تخطو نحو فك حلقة خجلها وتعتزف بأमितها؟ عمتها لم تتركها تتم دراستها الابتدائية، جعلتها خادمة في البيت، بالكاد تحفظ أشكال الحروف التي تدور في غمام الذاكرة والحظ التعيس! فكرت..

ماذا لو رفض تعليمها؟ ستصبح أمامه مثل النملة ومن يدري ربما
يضحك عليها؟! هي فكرت ليلة البارحة وكانت قد حسمت الأمر،
عارف سيفتح لها طريقاً آخر، هي تثق به، فقط عليها الآن أن تتحلى
بالشجاعة لتعترف بما هي عليه، ممارسة الكذب أحياناً، كذب أخرق
يدعي الكبرياء المزيف!



(9)

كانت تقف في بداية الزقاق تتطلع إلى الوجوه وتبحث عنه، المنامة تستيقظ من نومها - وكذلك هي - لا تعرف كيف استيقظ خيال عارف في حلم ليلة البارحة، تستمر في البحث عنه وتتجاوز الزقاق إلى دكاكين الأحذية غير منتبهة إلى فضول بعض المارة يحدقون في حيرة وجهها، تغطي جسدها بعباءة سوداء تنحسر عن مفرق شعرها قليلاً للوراء.

عله حدسها الأنثوي ينذر بأن خطراً وشيكاً سيصيبه، كان هناك بين زوايا عجزه كما لو كان مشلول الحركة يتضاحكون عليه، نعم رأتم وعرفت الشر المبيت في وجوههم، أحاطوا به وهناك رجل غريب يتحاسب مع آخر، تبرز محفظته المنتفخة و..

هكذا تبخر أمامها الحلم، عنيد الركض فر منها قبل أن تعرف شيئاً، لكن خيال عارف يحدث زلزالاً ما في داخلها لا تعرف له تفسير واضح، غير أنها الآن تريد أن تراه بخير وتحتضنه، تقوم بإعداد وجبة له أو تهديه شيئاً ما أو ربما تقدم جسدها شوقاً مشتعلًا فائراً بالجنون كما المرة الأولى وما أحلاها! تشعر بالتعب والإحباط، تستغرب كيف يسيطر عارف على أحاسيسها، غامض في صمته، أنيس بضحكته العفوية،

وعندما يتحدث تتدفق من فكره المعرفة بغزارة تستعصي على فهمها المتواضع كطالبة سابقة غير مبالية بالكاد أتمت المرحلة الإعدادية، يا لتلك الأيام الماضية.

نعم هي تستطيع.. حدسها يحدثها أنه يجبها، ما هذا الجنون؟، عارف إنسان طيب لم تلوثه هذه الحياة، هي تعرف أنها ليست مثله، هرولت خلف كل ما يلمع، لكنها تحدق إلى الشارع متراكمة اليأس فتعود أدراجها خائبة. بداخلها شيء غامض لم تقبض عليه بعد لتعرف كنهه، شيء يريك أحاسيسها.

*** **

يمشي إليه حر الظهيرة، وهو هنا عند حافة رصيف البريد المنامة، طوابير السيارات تتدفق من المنطقة الديبلوماسية وتتوغل في وسط السوق، ظل شجرة السدر التي نبتت بشكل عشوائي قرب مبنى البريد يهرب عنه، عمال البلدية أخضعوا الشجرة المسكينة إلى تقليم جائر وفوضوي، شوه هذا الاخضرار البديع، فتح حقيبتيه يبحث عن جريدة الأوبزيرفر، ها هي مصفرة ومعتقة بجرها، قديمة ولكن يعاود قراءتها كلما داهمه ملل المنامة، تسير بوتيرتها المعتادة وتلهث بأناسها وحكاياتهم، هذه هي سيرتها. قدمه تتماثل للشفاء لكن لا تؤهله لمشي مسافات أطول بعد.

قلب صفحات الجريدة بسرعة، هذا الحر يتصاعد وعرقه المالح يغزو عينيه ويسيل من فوق جبهته وصولاً إلى نظارته، يرسم خيوطاً مائية مزعجة، ما حاجته إلى القراءة الآن؟ طوى أوراقه المصفرة، وأتته فكرة الذهاب إلى كورنيش الملك فيصل. حاسة الشم تتعطل ما دمت في هذه المدينة المكتظة بكل شيء، لا تستطيع التمتع برائحة البحر، قاذورات دخان محركات الديزل والبتروك تملأ الجو، الزحام يشتد وكل الشوارع تلهث، جلدها الأسفلتي يتوهج حرارةً جحيميّةً، نعاله تمتص حرارة الشمس، مساكن هؤلاء.. رجال في منتصف العمر أو شباب في عمر الورد، تنتصب قاماتهم أمام ساعات الانتظار في هذا اللهب القاسي، يبيعون قوارير الماء البارد بوجوه تنصب عرقاً، بان عليها أثر التعب والحزن الصامت.

آثر العودة وهو في منتصف المسافة، أصلاً هذا الكورنيش لم يعد مثلما كان متنفساً تطرب النفس له عندما تصافح زرقة موجه التي تهديك السكينة ولذيذ الأحلام، ليس بعيداً عنه، قامت (.....) وألقت بجوف الزرقة أكوام الرمل والحصى، فنبتت كُتل الأسمت كالقنطرة الرمادي الزاحف القبيح، محاط بعفونة المياه التي غادرها رقص الموج، ليس إلا صخب الرافعات الهيدروليكية وأرتال الشاحنات وحركة العمال

الأجانب وسحب الغبار الناتجة عن شهية الدفن وبريق الدولار آه يا
بحر، آه يا جزيرة الخير!

توغل في طرقات المنامة، كل شوقه يتجمع سحباً جبلي بالمطر، وجد
لتعب خطواته مكاناً يأوي إليه.. يتأمل قدميه، تتخثر الدوالي على
جانبيها، يدركه التعب، سطوة الزمن لا ترحم، فكل صغيرٍ يكبر وكل
نظيرٍ يذبل، يتأجج بين ضلوعه خيالها أسير الأيام، راكمت عليه غبار
القسوة، نعم هاني لم يخطئ في كلامه، هي ذي قسوة الروح تعلن عن
جفافها مع أعز حبيبه.

ما بال تلك الأم المسكينة تعض على جراحاتها تداوي صبرها بالمزيد
من الصبر، منزوية في بيت سكنت فيه عتمة الأيام الخاوية من الفرح،
تستسلم ذاكرته لطيفها وكلما أراد طرق الباب كي يداوي عطشه التواق
لحنائها، يحجم في كل مرة وينسحب. هي أيضاً صدقت تلك القصة
الملفقة، اللعنة على الكحول المندلق، كيف حول ذلك الأب التعيس
لنصف شيء مشوي لزال يتنفس! يسحق الآن شوق نفسه المشتعلة،
يطفئها وهي تناشد استغاثات النجاة من بحر العطش هذا.

تجيش مشاعره نحو صفاء نفسها المعطاءة، يشده الحنين اليوم ولا
يفلح مثل كل مرة في أن يدوس شوقه، ها هو يحث الخطى نحو ذلك
الزقاق الأنيس، يمشي ويمشي تؤنسه بعض الذكريات الحلوة، مثل طعم

الحلوى الحرقية التي أكلها للمرة الأولى، كانت تحببها له وهي قادمة من عرس ابنة الجيران، حلوى لذيذة الطعم ترقص في فمه وهي ساخنة يأكلها مع خبز الخمير اللذيذ.

يتذكر.. هاني عندما أرتفع صوته بالبكاء في صباح الجمعة ذلك، لم يكن يتشاكس أو يلعب مع أحد، يطلب شيئاً، يحتج، يعاند. كان مشلول الحركة تمسك به قبضتين رجوليتين لأب باسم الوجه (يصلي على محمد وآل محمد) وهناك رجل آخر أصلع الرأس، أسنانه الأمامية سقطت، تلمع بين يمينه شفرة الموس، يبسم ويدفع الحد القاطع في طراوة النتوء اللحمي الصغير، وبكاء هاني لا ينفعه أو يخلصه من طقس التطهير، حيث النزيف الأحمر، تشبعت منه خرقة (المختن) وهو يضمد الجرح بيد ماهرة لا ترتعش رغم كبر سنه. وقف عند عشة الدجاج يتألم ذلك الصباح حيث لا تغادره الذكرى، عرف المغزى وراء هذا الطقس الغريب، ولكن الذكرى هكذا تشحنه بالألم فحسب.

تتعرق هذه الذاكرة من شدة لهاثها وهي تثب من محطة إلى أخرى، ولا تلك الحادثة الطريفة التي.. كانت آتية من السوق، تحمل سمك (الصافي) بان عليها أثر تعب المشي في لهيب الظهر، لم تريح تعبها وسارعت إلى تنظيف السمك بمهارة يديها وكان يراقبها وبيتسم، تمنيه نفسه ووطنه الجائع بطعم الشواء اللذيذ، دقائق حتى حلقت أذخنة

السمكات، شهية تقوم أمه بتقليبها على صفيحة التناك وهي تستوي على مهل، كان يراقبها بصبر إلى أن فرغت من مهمتها، ماثنته محتقنة لكنها تطلب منه حراسة السمكات، فالرائحة كفيفة بحشد ققط الحي، مستعدة لتمارس لصوصيتها في هجمة واحدة. الأمر لا يبدو كذلك وهذه الأم تبالغ في كلامها.

ماثنته محتقنة ولا يستطيع تأجيل حاجته، هي تتحدث مع جارقتها من على عتبة الباب، السمك يستريح في الصينية وسط "حوش" البيت ساخناً برائحته الطازجة يحرق أصابعه، أخيراً اندفع نحو الحمام، الأمر لم يتعدّ دقيقتين أو أكثر، خرج وهو يشعر بأنه أفضل وأن الطعم الأبيض سيذوب في فمه هشاً ولكن ها قد فعلها..

قام هذا الرمادي المبقع ونفذ غزوه المباغت وهجم على السمكات، هو أيضاً جائع مثله، ولكنه غنم شيئاً يأكله وفر من السور، أما هو فوقع في مصيدة الورطة والخرج. يومها هدأت جارقتهم من غضب هذه الأم المكدودة ونصحت بعدم لمس السمك المتبقي على الصينية، ققط الشوارع وسخة وتحمل بلاوي من الجراثيم، هرولت الجارة إلى بيتها واعتبرت ما حصل بسببها.

نعم تتذكر.. جاءت بغذاء جاهز اشترته من مطعم قريب كي تحل المشكلة. تلك الأيام كيف كان طعمها يشبه رائحة الهيل في قهوتها

عندما تسكبها لوالده في العصاري وهو منشد إلى متابعة الأخبار وتطورات جبهات القتال في الحرب العراقية الإيرانية، يضرب بعصبيه جهاز الراديو، محاولاً التركيز على صوت المذيع يكاد يبتلعه التشويش على إذاعة طهران العربية.

يمشي إلى البيت، إلى حيث الأمان الذي غادره، إلى هناك يأكل من طراوة الحلم ويشرب من جداول الأمان التي تداعب صباه المخنوق، يمشي بالزقاق وها راتحته مألوفة لديه يعرفها كما الباب الحديدي، متآكل تقادم عليه الدهر، يمد يمينه إليه مصافحاً شوق قلبه يحتبس فيه الحب واللهفة. الباب موصل أمامه، ولكنها بالتأكيد هناك تقوم بكس فناء البيت أو ربما تسكب الماء والصابون فوق أوكار النمل داخل الحجرات، قرع الباب وعلى وجهه هففة اللقاء تضيء يومه هذا وهو ينتظر مضطرباً مرتبكاً الجواب، ينتظر غيث سماء سخية تبعد عنه قحط الأعوام الماضية.

مثلك أنت يا شريد الطرقات والأزقة والتعب يجب أن.. لا أحد بعد يفتح هذا الباب، طرقة مجدداً وكل خلية في جسمه تنتظر، شيء مختلف يسري في عروقه الآن، رقصة فرح تتأهب كي تتشظى مثل رائحة المشموم في خضرة أوراقه تتناثر فوق رأسه كما لو أن جماعة من الناس تزفه الآن، ولكن انتظار الجواب من هذا الفراغ المتبجح هنا، عذاب

يجلده بسياط الخيبة، تتأكد في هطولها القبيح.. الباب يُفتح أخيراً. كان هنديًا نصف جسمه عارٍ يبربر ساخطًا. فهم منه القصة.. هو مجرد مستأجر تفاهم مع أصحاب المنزل الذين غادروا من.. لا يتذكر حتى إلى أين ذهبوا، كان منزعجًا. روحه الآن تنزل من هول الصدمة، كيف أعتقد واهمًا أنها لا تزال تقيم هنا؟! ما كل هذا ال.. أزاح من طريقه هذا الهندي فدخل إلى البيت. روائح الثوم المقلي تختلط بدخان مواقد الجاز التي تتناثر في بعض الزوايا مثل الغسيل وهذه الوجوه المستغربة التي تحقد فيه وهي هنا تستوطن ذاكرته، كأنها الآن تصادر منه - عنوة - كل اللحظات الحلوة والمرّة التي عاشها هنا، يمتلئ بهم البيت وكل جدرانه تمارس حزنها الصامت، تتألم وتحن على الوجوه التي غادرت، تركت هنا أشباح أرواحها تحوم ولا تنعتق من أسر غربتها.

هذا المنزل يصرخ مطالبًا ومستنكرًا جفاء أصحابه، هو فقط الآن من يسمع ذلك النداء الخفي، يهجم على روحه ساخطًا، الجدران ترفض هؤلاء الغرباء، يحقد في أسف ولا يسترجع إلا سراب الأيام المضمحلة من ذاكرته المشحونة بالجراح، حمل نرفها وتحامل على أوجاعه، أمامه وجوههم المستغربة وخلفه ماضٍ حزمٍ حقائبه عابرًا النسيان، فخرج من الباب كسير الخطوات، كان يحقد في الفراغ تسكنه الدهشة ومسالك الغربة والوجع.

أفكاره تروح وتجيء، يقف في مساحة ذاكرته الآن هو وليس سواه أحد، هاني من فعلها! بالطبع هرول خلف الدينار وكبرت كرشه من الجشع، من أين له بتلك السيارة الفخمة؟! يا خسارة الأخوة فيك يا هاني.. أخذ يتلفت في مساحة شارع الشيخ حمد لربما وجد السيارة عينها. أعياء التحديق تحت أشعة الشمس، بضع دقائق ويتحول إلى لقمة ذائبة، الأفضل أن يهدأ الآن، سيحاول ترتيب فوضاه الداخلية أو يكنس فناء روحه من قلق هذا النهار، لقد تعب من كل هذا.

يتجه تفكيره هكذا - بوعي أو لا وعي منه - إليها.. منصوره قادرة على احتضان وجعه وهزائمه، الظهيرة تذيب المعدن وتجعل الشوارع مقفرة، هي هنا الشجرة التي تظله وسط الهجير المتوحش. إنها تحمل جينات متفردة من الطيبة، يحتاج الآن وقفة معنوية منها أو حتى أي شيء آخر يخفف عليه عبء اختناقاته، المنامة تلوي ذراعه وتكوي قلبه والأسى يطحن ما بداخله. يمضي إلى هناك ومنصورة - لا شك - ستفتح باب كرمها، هي - ببساطة - لا تفكر في أعراف المجتمع من حرام أو حلال، تقتنص سهولة اللحظة من فم القدر، تضم إلى صدرها الرجل كي تتعرف إلى رجولته وتمتص ماءه الذي يجدد حيويتها وشبابها، فهذا شغفها، وحرارة الرقص المحموم فوق فراش تسدل عليه ستائر من خوف يحتم عليها تفقد الزقاق الذي تسكنه وإحكام إغلاق الباب

الحديدي مرتين، فهي - على حد قولها - .. تدرك أن غضب جيرانها مسألة وقت قبل أن ينفجر جراً توسيخها طهارة الحي. سكانه من أهل الله، يحجون ويعتمرون ويتصدقون، ووجودها مثل شيطان يضرم حرائق الرذيلة بلا وجل، غير مرغوب به، تترجمه رسائل التهديد، تصل إليها، مرة يدسها أحدهم أسفل عتبة الباب أو يسلمها طفلاً ما.

يفكر مجدداً بها، أتكون في انتظاره؟ حتى وإن كانت كذلك، لكن إيجاد حجة مناسبة لزيارة كهذه سيكون أفضل، هي الآن موضع ثقة. يحمل علبة كارتونية وجدها عند مكب قمامة، حملها إليها، ضحك في سره ثم دخل الزقاق واستمر في التقدم، فتح حقيبتة وانزوى قرب أحد الأبواب، مشط شعره اليابس، نفض الغبار والحزن والبراغيث عن ملابسه الرثة ورفع العلبة على كتفه وطرق بابها.

صاح عند حدود لهفته وخوفه.. (الأغراض وصلت، يا الله يا الله). وجد الباب يُفتح على مهل، كما نفسه تفتح قارورة السحر المحبوس، انتفاضة لهبٍ يشتعل الآن، شيء يغوص في أعماق خلاياه، تركض نحو هذا الآتي. يدخل؛ فتبدي أمامه، يداها منقوشة بالحناء، وعلى وجنتيها بعض الدموع، رمى العلبة وعانق لهفتها وحريق آخر يلعب بأعصابه..

- عارف؟، الحمد لله أنك بخير، هل آذاك أحد؟ أهكذا تحتفي ولا أدري عنك؟، تبلعك الأرض، أين تذهب يا كربه؟

- قلت لك من قبل، المنامة هي بيتي الكبير، آكل في أي مكان، أنام في أية زاوية، أتسكع، أبكي، أحلم! هذا العالم ملكي!
- هل تحلم بي يا عارف؟
- فقط أقولها عبثًا، مشرد ملعون أبو أصلي لا يحلم يا منصور.
- طريقة كلامك اليأس هكذا .. أخاف منها وكأنك ستنتحر مثل أي آسيوي هنا في المنامة لما تُظلم الدنيا في وجهه.
- عندما ينتحر أحدهم - على الأقل - عنده شيء كان يخاف عليه؛ وظيفة أو شيء آخر، أنا ما عندي شيء في يدي غير التراب، حتى البيت الذي تربيت فيه..
- محمل بعدابك يا عارف، تكلم إن كان هذا يريح أعصابك.
- هاني الكلب، طلع مثل البحر، ييلع كل شيء، آخ لو .. لا فائدة، أنا فزاعة خرقاء أضعف من أن أواجهه.
- من هاني هذا؟!

يقلب الأمور فوق ثم تحت، يحسن كيفية تجميل الفحمة ليحولها في عين المشاهد إلى جوهرة - بمكره وخداعه - يتلون أمام الكل، يعب من دسامة اللحظة ويمتص سوائلها حتى يقمرمش عظم ضحيته حيًا! لا يخاف، وهو ماهر في الصيد؛ متى ما استهدف شيئًا مغريًا أمامه، يتتبع آثاره حتى يصل إليه، فيفتك به في ظلام الغفلة. يعرف كيف ينقب تلك

الزوايا كي يمتاح، لا مبادئ في قاموسه الحياتي، فقط الهرولة خلف الدينار، لكنه لا يبخل على ذائقته، يتنعم في أفخم الفنادق، يصطاف في بلاد الدنيا، يتذوق لحوم النساء، يركب صهوة الخطر و.. حينما يحجم الآخرون خوفاً من سرعة التيار، يرمي بنفسه غير هيب، لا يشبع ولا يتوقف، يسبح في بحر هذه الحياة مثل الحوت، تصيبه بعض الجراح من أسماك القرش الآدمية التي تنافسه، لكنه قادر على تخطي أوجاعه وتأجيل انتقاماته حتى اللحظة المناسبة، بينما يواصل الغوص واستخراج المزيد من لؤلؤ الفرص التي تتساقط من موائد الكبار.

نهضت من جلستها وأحضرت طبقاً من الفواكه مع خليط من المكسرات..

- هذا أخوك، لماذا تتكلم عنه هكذا؟ هل تكرهه إلى هذه الدرجة؟
- أخ يبيع كل شيء أو يساوم على أي شيء، لا أدري أين طرد أمي لتخرج من بيتها؟ البيت أجره إلى آسيويون، النذل!
- كيف أتعرف عليه لو وجدته؟
- هاني يعيش في عالم آخر، هل تظنين أنك ستجدينه في برادة الزقاق أو يصطف في طابور الخباز؟!
- يا عارف لا تكهرب أعصابك، أنا لا شأن لي به. هياكل، ما رأيك أن نطلب غداء من المطعم؟

قالت جملتها الأخيرة ونظرة فرح تتألق في عينيها، بدا اللون الكستنائي لفستانها مع تلك الخطوط عند شهوة الصدر الفائز المتأهب للغزو، كأنها فتاة (ديلمونية) خرجت بكامل أجهتها وفتنتها من كتب التاريخ، في كل مرة تتلهف لاستقباله، منصوره فتاة مختلفة، تعرف كيف تضع لمساتها، تعرف كيف تزرع أشياء جميلة في تفكيره اليابس، باتت تستطيع تغييره من الداخل حتى بدون أن يشعر!؟

يتأملها الآن، أنوثتها تختلف عن تلك المتدثرة في عباءتها عند بساط فقرها، تراب الرصيف يختلط ببؤسها، تبيع البهجة والأوقات المسلية للناس، وفي داخلها يعوي الصمت، عمرها ينشف عوده، ولا تزال مستسلمة تضحك أمام قدرها. منصوره شخصية أخرى.. تجيد تلوين الأشياء وتحرك فيها دماء الحياة، الزمن عندها جزء كبير من حركته يجب أن يكون مشغولاً بالفرفشة، تحب الاستماع للأغاني الشبابية، تتابع برامج الفضائيات، تأسرها الأفلام الأمريكية، وكما أخبرته في مناسبة سابقة بأنها تحن إلى طفولتها وتشاهد أفلام الكارتون على قناة (mbc3) وأحياناً تشتريها على الأقراص المدججة.

ربما هذا الأمر يذكرها ببراءة الخاطر يوم كان على رصيف الطهارة والشرف، منصوره لا تستطيع إلا ممارسة هذا الفعل، حولت نفسها ملكب نجاسة، كل رجل يمر من سريرها يترك خلفه شبح جيفة يتوارى في

جسدها. الجنس في فكرها هو تلك النار المشتهى لهبها، تنفذ إلى عمق الروح وتشوي على مهل إحساس اللذة النهم الذي لا يرتوي أو يشبع. زوجها الأول - في تفتح صباها - كان شبه عاجز، وهي لا بد لها أن تجد التعويض الذي تستحقه لترضي أنوثتها قبل هرولة الذبول. رداء الأرملة المسكينة والمستسلمة أو تلك التي تتشاءم النسوة منها، شيء يدعو للقرف لا تريده، يضغط إحساسها، يجعل خلاياها تستصرخ حالات العطش المجنون الذي لا يبلغ أبدًا ضفة الارتواء!

يعرفها تثثر أشياء كثيرة، قالت ذات مرة.. أن حظها يشبه حظ خالتها (بدرية)، تأخرت في ركوب قطار الحياة الحقيقية، ثم عندما زفوا لها الخبر، وجدت العريس كهلاً يصفح والدها بيد مرتعشة وكان واضحاً أن فروة رأسه مصبوغة، أنفق الكثير من أمواله لكي يعيد ترميم عمره المتآكل، طقم أسنانه الناصعة البياض شاهد مفضوح وصريح. الكهل توفيت زوجته، فجاء لكي يجد أخرى، يومها وافقت تلك الخالة حتى لا تنزوي في صمت الوحدة وتتحول لعانس عاطلة عن الحياة!

- عارف، يا عارف، سرحت بعيداً، أين وصلت؟

- أشياء متشابكة في عقلي و.. آاه.. أي!

- عارف ماذا بك؟ عارف حبيبي كلمني.



(10)

مصدومة تقلب في بصرها الخراب المستعجل الذي زارها، يا له من صباح كئيب، هكذا تحلقوا حولها مثل العصابة، وبدأ رئيسهم بصوته القبيح وهيئته المتعجرفة، يتكلم عن القانون وأن ال.. موظفين مجانيين، تحت إمرته بعثروا البضاعة البسيطة، هناك ما داسته الأقدام وما صادرته أيديهم إلى سيارة (البيك آب).. حاصرها الموقف وهي وحيدة، أحكمت عباؤها حول جسدها، واستسلمت بعد مقاومة يائسة للموقف، وقد أعطت المفتش وجهًا متحديًا وهي تتسلم إشعار المخالفة غير نادمة ولا معترضة!

خرج من كابينة الحراسة ثم تقدم بخطوات مترددة، لحظتها بدا الأسف على وجهه، جاء يحاول مواساتها ولملم شتات بعض الأغراض التي نجت من غارة مفتش البلدية، قام بتجميعها حولها..

- لا عليك، بسيطة بسيطة، هذا حكم القوي.

-

- أفدر أساعدك في شيء، أنا حاضر في الخدمة لا تستحين مني.

- شكرًا، يرحم الله والديك، أصلًا أنا كنت متوقعة هذا اليوم وهذا

رزقي وأخذته!

- أكيد هناك من قدم ضدك بلاغ كيدي، المسألة ليست عادية أختي، لا بارك الله فيهم يستقون على الضعفاء.
- ما عرفت زكية بعد، كم خسرت لا يهم، ستراني بعد عدة أيام هنا، حقي لا يضيع.
- تأخذين حقك من البلدية؟! يا أختي لا أنا ولا أنتِ نقدر عليها!
- أعرف من وراء كل الذي حصل؟! *

*** **

كأن سواد هذا العالم يحتشد أمامها، تدس المفتاح في تجويف القفل، ليت عندها مفتاح لكل شيء، ثقل هذا اليوم كفيل بتجميع جحافل الأرق، تقرأ الوقت.. الثامنة مساءً ولا شيء في دوامة الروتين والأشياء المكررة التي تألفها، اليوم، فقط هناك الإشكال الحاصل مع مفتش البلدية، هذا ما يوفر حدثاً مختلفاً تستطيع أن توزعه في دوائر صغيرة ثم تفكر في حل مناسب. لكن ماذا عن هذه الرسالة المدسوسة أسفل الباب؟

ها هي ذي مصيبة أخرى تضاف إلى شقائها اليومي، ترجح أنها من مالك العمارة، الشعار تتذكره جيداً، يماثل ذلك المطبوع على ورق تحصيل إيصالات الإيجار. ما يعزيها أن الكثير من المصائب خبرت حموضة طعمها. عندما قررت الفرار من بيت عمته، خبأت بعض

الحاجات الصغيرة في صرة قماشية، أشياء تصلح لبدء رحلة إلى مجهول الأيام القادمة، علبة جبن شيدر ومقدار من الشاي والسكر، كوب وملعقة وطبق مع سكين، كما استولت على عبوة الشامبو وأشياء أخرى وأغلقت خلفها الباب بهدوء، بينما عمته العجوز تغط في سيمفونية شخيرها القبيح.

نامت في أماكن متعددة، تارة عند قريبة من بعيد، وتارة عند.. ماذا تتذكر الآن؟ هي ليست بحاجة إلى أوجاع أخرى تقاوم نزعها الداخلي، ولكن رغم ما حصل اليوم إلا أنها أفضل حالاً من عارف، لكنها ذقت التشرد مثله. لا تدري لم يقفز الآن إلى ذاكرتها، يطل من خرابه متجماً بتلك الابتسامة البلهاء، العمر يمضي به نحو ما لا يعرف، يستظل بأشياء لا تقيه هيب الأيام، طاحونة العمر الشقي توغل في تحويله إلى شبحٍ مذبوح، زوادة طريقه الطويل حزن وشقاء.

هي هكذا الآن.. شبح متروك للوحدة والضرر، بالكاد وفرت بعض الدنانير لتستر نفسها عن الاحتياج إلى الناس، لكن ما عساها تفعل في شأن هذا المؤجر؟ الناس تركض خلف الفلوس، أكيد وجد مستأجرًا آخر، جيبه دسم ومستعد، هذا محتمل، فالرسالة تحتاج لمن يفك طلاسم حروفها ولكنها.. تتنبأ الآن بشيء ما يتجه نحوها قادمًا من العتمة.

تكاد رأسها تنفجر من سيل الأفكار، متعبة ولا تستطيع أن تستمر في هذا الدوران، تناولت قرصي (Panadol)، استلقت على سريرها. لا راحة تأتي ولا تتوقف الأفكار السابحة في رأسها. المفتش من سكان المنامة، نعم ربما هو كذلك، كانت نظرتة مشحونة بالغطرسة، نظرة تحمل في طياتها حقداً بغيضاً يتعدى حدود الزي الرسمي، هي متأكدة من هذا، برود لهجته التي تتحجج بالقانون، قسوة وجفاف. لم هؤلاء البشر يتصرفون هكذا وكأنهم آلهة على الأرض؟! يعتقد الواحد من هذه الطينة.. أن كلامه بمثابة قانون سماوي لا يأتيه الباطل!

لمن تلجأ الآن؟ وما قد يبس اخضرار الأرواح في عالم قاسٍ، تعيش غربتها وتلوك وحدتها في جحيم أيامه. من قال: إن الدنيا بخير واهم أو يتفائل وسط الظلام، وأمامه طريق محفور ينتظر تصيد ضحاياه! هي ليست بضحية، هكذا تظل محاصرة وسط المصيدة تنتظر المصيبة، حارس الحديقة محق في كلامه، هي دعوى كيدية من أحدهم، له مصلحة أكيدة ورغبة شريفة تدفعه للنيل منها.

أصبح واضحاً وعارياً، هو في خبثه يتلون مثل الشيطان، لا يستحي من شيبته ولا وقار في تصرفاته، كلما ركبت معه امرأة فحصها بعينه الجائعتين وتصنع تسييح نفاقه الكاذب! (نفوووووو) عليك يا حاج مرزوق، هذا أنت لا شك! خسيس الطبع، تلجأ لهذا الأسلوب الرخيص

ولا تمتلك صراحة المواجهة فتطعن في الظهر وتهرب؟! تتذكر الآن حديثه المكرر المزعج، كان يلوح بفكرة الزواج وأن البقاء على الرصيف من أجل بيع أشياء بسيطة لا يستحق كل هذا الشقاء، فالمرأة ليس لها إلا بيتها فتكون معززة ومكرمة. يريد أن يجبرها على ترك (البسطة) ولكن هذه محاولة فاشلة، أظن أنها ستزكع أمامه؟؟ هذا الشايب صاحب الوجه التعس، يشتهي ربيع الدنيا غير مبالٍ بآخرته، تعرف كيف تداويه!

جميل؛ هذا التداعي الكلامي المتصارع بداخلها أيقظ غفلتها، هنا شيء يتحرك في صمت عالمها الروتيني الممل، دور الطيبة وسط مجتمع تستدئب فيه الناس، هذا لا ينفع الآن، الحاج مرزوق فعل فعلته معتقداً أنه ذكي ولن يكشفه أحد. سيرى من هي زكية، لا تشبه هدوء الريشة المحلقة في الهواء، أينما تحل لا تؤذي أحداً!

إنها العاشرة ليلاً، سكنت الحركة في الحي، (البيك آب) في مرمى بصرها من محيط النافذة تراها كما ترى بيت الحاج مرزوق، مظلم، أصحابه الآن نيام، هذا جيد. نزلت في الحال إلى الشارع وتدنثرت بعباءتها، وجدت شايبين دخلا الحي فأوقفتهما وهي تبكي..

- خير إن شاء الله يا أختي؟
- هل ترضى على شرف أخواتك لو..
- أكيد لا، هل تعرض لك أحد؟ هل تحتاجين إلى مساعدة؟

- صاحب (البيك آب النيسان) هناك، الصبح اليوم، كنت أركب معه ولمسني في..
- ولد (.....) ولازم يتأدب، لكن الرجل غير موجود.
- أنت قلتها لازم يتأدب، أنا أخاف على شرفي لو قدمت بلاغ إلى الشرطة والناس يا أخي ألسنتها لا ترحم، فما رأيك أن..
- هز الشاب الآخر رأسه وهو يحك شعره اللامع في ضوء الشارع ويرمي سيجارته ينفخ بقايا دخانها عاليًا:
- ننتقم منه بطريقة أخرى، هذا مفهوم، الأمر بسيط واعتبري هذه الخدمة منا، ألسنت منامية؟
- من أصل وفصل.
- خلاص، ارجعي بيتك مستورة ونحن نتصرف!
- صعدت إلى شقتها، أخذت تراقبهم من نافذتها، طابت لها المشاهدة، والله، إنها لقطات طريفة، شيء يشبه مشهد في مسلسل أو فيلم. كم أعجبها فعل هذين الشابين الغيورين، جذبت كرسيها وجلست تشاهدهما وهي تأكل حبات الفول السوداني وتضحك متأكدة أن العجوز الكريه عندما يركب سيارته غدًا، ستكون مثل دابة تحرن مكانها ولا تتحرك!؟

يا حاج مرزوق طاب شخيرك وتلونت أحلامك، عليك بالعافية.
أمثالك من بني البشر، طفيليات تفتت من الآخرين حتى تعيش، لكن
أنت من بدأ الشر، تستحق النتيجة و(الدجاجة ما تحفي إلا على
عيونها)⁽¹⁾.

انصرف الشبابان من الحي بسرعة، وهي أخذت ترسم صوراً
لليوم القادم، تتلهف رؤية العجوز يأكل مفاجأته الصباحية ذات العيار
الثقيل. الآن عليها تدبر موضوع البلدية، تتذكر أن منصوره نصحتها
ذات يوم بالحصول على ترخيص كشك بدل الوضع المؤقت والمهزوز،
منصورة محقة وكانت تستشعر لدغ الأيام وإلا ما كان لمفتش مغرور
ومتعجرف أن يباغتها في الضحى بهجومه هكذا، كل هذا سيتغير.
عليهم أن يعرفوا جيداً أن زكية ليست لقمة سائغة وإنما كرة من الشوك،
جمرة لا تداس!



(1) مثل عامي بحريني يُقصد به أن المرء لا يجني إلا على نفسه لسوء عمله.

نزل من سيارة الأجرة ونقد سائقها حق التوصيلة، حاملاً حقيبة صغيرة، متعكزاً بعض تواريخ العمر وتعبه ووجعه، يشعر ببعض الدوار الخفيف؛ عله تأثير ناتج من ركوب السيارة، أو ربما الصحة ما عادت كعهدها، ما أغرب الحياة! أليس هذا هو نفس الشارع الذي احتوى خطواته المتقافزة، يلم حوله أصحابه من الجيران، أطفال طرية أحلامهم مثل (المارشيللو) يحتويهم جو اللعب والمشاكسات المتبادلة، يريدون أن يكبروا قبل الأوان. هو نفس الشارع، ولكن العمر يهرول إلى نهايات متجهمة، قدماه الآن لا تتجاوبان بسرعة وكأتهما تصلبتا، هما مثل كتلتين لحميتين باردتين، تحريكهما عبء إضافي كالأدوية المتكدسة في الحقيبة، تكفل له حلول وقتية تسكن آلامه. هنا خلف هذا الصدر، شاخ القلب اللاهث ركضاً في دروب الوحدة، فبمن يلوذ الآن؟

كانت أياماً ثقيلة، بالرغم من لطف ممرضات قسم قسطرة القلب ودماثة أخلاق بعضهن، لكن إحساس المرء وهو ملقي على سرير المرض قرب نافذة مشرعة على ركض الحياة، أمر مزعج يزرع في النفس الكثير من الإحباط، ينمو مثل دماغل في التفكير اليومي بقرب النهاية الحتمية حيث ليس أمامه إلا نفر قليل من رفاق المسجد، هم عزاءه الوحيد

على مر الصبر وقلة الحيلة.. ذلك الغائب الذي اذّخره لنوائب الدهر، سرقتة الغربية، حتى رسائله البسيطة ومحادثاته الهاتفية الطارئة ما بين عدة أشهر التي يكرر فيها طلبه بالهجرة وأنه سيعتني به، أصبحت شحيحة ثم انقطعت! أرفق في خطابه الأخير المؤرخ في شهر ديسمبر 1992م صورة شمسية له، ينتعل حذاء رعاة البقر وقبعة غريبة الشكل، كان متكئاً على سيارته (الكاديلاك) الجديدة التي يقول إنه اشتراها مفتخراً بنجاحه العملي في بلدٍ يؤمن تكافؤ الفرص ويحترم حقوق الإنسان. كندا لا تشبه بقية دول العالم، حيث لا شيء فيها مستحيل؟! كما أرفق بخطابه صورة أخرى له، يحتضن فيها زوجة شقراء وبرفقتة طفل صغير في عربته و بنت يافعة في سن المراهقة، أحفاده ولكن..

ما هكذا يكون الأبناء، تنصحر مشاعرهم فيدهمهم النكران والعقوق، ما الذي يمنعه من العودة إلى الوطن؟ قد نبت لحمه من رحم ترابه المغسول بماء النخيل، لم لا يرجع؟ عجوز متهالك مثله لا يريد من هذه الفانية غير رؤية ابنه الوحيد قبل أوان الرحيل، ما يطمع في تلك الدولارات المرسلّة كل بضعة أشهر ولا يريد ترفاً من هنا أو هناك حتى يغترب في أقصى الأرض. يتلفت في المكان، تم تخريب جزء من الشارع، أعمال الحفريات وضجيج العمال الآسيويين بالقرب من المسجد، هو ذا شامخ الجدران، أكلت حرارة الشمس دهانه الترابي، بدا متغيراً يميل إلى

التقشر، وها قد بدأ ذلك الأزيز الخفيف الصادر عن السماعات الخارجية المثبتة في رأس المتذنة، (المايكروفون) خلفه شاب قوي الصوت، يتنحى أمام الظهيرة ليرفع صوت الأذان. يشعر الآن أن الزمن تجاوزه وهذا ما تفعله الحياة. فكر بدخول الجامع لبرهة حتى يتعرف إلى المؤذن الجديد الذي حل مكانه، ولكنه عدل عن الفكرة لما اشتد عليه الوجع، فتدارك بالدكة الأسمنتية المتصقة بجدار الجامع وجلس لكي يستريح، بعض وجوه المارة كانت تسلم عليه، حتى الآسيويين من سكان الحي كانوا يتفقدون فيه وجهًا يعرفونه ولطالما سمعوا صوت أذانه وهم يدخلون الجامع أو يفيض بهم المكان فيفتشون الشارع ظهر الجمعة، يسلمون عليه ويسألون عن أحواله، طبعًا فالحاج محمد غلوم بركة، إن وجود وجهه في الحي وصوته العذب يعطيان الحيوية والحب في المكان. يراقب الشارع ثانية مترقبًا مروره من المكان، يفتش مكب قمامة أو يجتهد في تنظيف سيارة، ربما ماشيًا يأكل، يقرأ صفحات مجلة، يستظل تحت شمسية أحد الدكاكين لكن.. أين ذهب؟

آه.. هذا هو البنغالي (عبد الحكيم) يقود دراجته المحملة بالطلبات الخارجة من مطعمه، يوزعها على زبائنه، فكر في سؤاله عن عارف، لكن أبعد الفكرة عن ذهنه، مستبعدًا أن يعرف هذا الأخير شيئًا عن عارف.

انصرف بدراجه يتوارى في عمق الحي، صوت الأذان يصل إلى عتبات لا إله إلا الله، الأقدام تتوافد إلى الجامع، قبل أن يرفع جسمه محاولاً النهوض، التفت إلى ملصق من الورق المقوى، يد مشدودة على قبضة سيف وكلمات غاضبة (حاربوا الفئة الضالة)! لا شيء آخر يتضمن الملصق، يكشف الجهة التي تبناه وهذا ما يجعله الآن يقلق. في طفولته ما كان يفرق بين أصحابه، هذا سني أو شيعي أو هولي، فقط كان يلعب ولا يحس بالخطر، فالكل إخوانه، إلا حينما تداهم العساكر الهنود التابعين للإنجليز، أحياء المنامة لمطاردة المتظاهرين.

من يوزع مثل هذه القنابل الموقوتة؟ كيف تغيرت الأحوال يا دنيا؟ كأنه يكتشف المنامة من جديد، جدران منازلها ودكاكينها تتحارب فوقها شعارات شتى، أخذ في قراءة بعضها.. (دولة بوليسية تدعي الديمقراطية - لا للفساد والمتنفذين - عاش عليك القلوب - نعم للقانون والنظام). هز رأسه آسفاً، وقام يتعكز حتى وصل باب الشقة التي يقطعها، دس المفتاح في جوف القفل، دار بصعوبة لكنه انفتح، الشقة مشبعة بالغبار والإهمال وعفونة تنبعث من.. آه تذكر كيس النايلون البنفسجي، قبل الحادث ملاً الكيس فواكه متنوعة مع علبة شاي وحلاوة طحينية، كان ينوي تسليمها إليه، هكذا صدقة لوجه الله تعالى، شاب مسكين مثل عارف يدور في الأزقة والطرق هائماً على وجهه،

شيء يؤدي إحساسه حتمًا. فكر أكثر من مرة أن يتحدث إليه كي يكف عن حياة التشرذم البائسة هذه لكن.. لسببٍ ما امتنع عن الموضوع، عارف يلقي التعاطف الكافي في المنامة، على الأقل هو معروف للجميع أنه لا يتعاطى المخدرات أو الخمر من حصيلة تسوله كما يفعل غيره.

تلفت في زوايا الشقة، فتح نوافذها للضوء والهواء، شكلها ينم عن قبر، كيف نقرأ الأماكن من جديد ونكتشف دهشة الأسئلة التي تدهمنا؟ اطمئناننا؟ تلخص من بعض الجرائد القديمة لكن لم يرهق نفسه، من بعد الصلاة سيستعين بخادمة أحد رفاقه المصلين كي تتولى أمر الشقة وتنظفها وتطرد العنكبوت القبيح الذي استوطن أعلى السقف الخرساني، نسج شبابه، تلتصق عليها بقايا ضحاياه من الذباب والبعوض. رن جرس الهاتف، تذكر الآن أن عنده خط هاتفي كان قد نسيه، من عساه يكون هذا المتصل؟ تركه يزعم مكانه من الصلاة غير راغب في الرد، استرخى على كنبته العتيقة مستشعرًا بعض وخز الضمير من مجرد مرور خمسة عشر دقيقة على أذان الظهر، كأنه ولد مراهق يستخف بصلاته مسوفًا تأديتها. ذلك الرجل الراسخ في ذاكرته يعود ثانية إليه، يلوح بعصا غليظة.. محمد ألم تسمع الأذان؟ صلاتك عمود

دينك.. عمود دينك يا ولدي، أنت كافر؟! وتنهال موجات غضبه! كم كان درسًا قاسيًا، لكن صنع منه رجلًا.

رن الهاتف من جديد، بضع خطوات حتى التقط السماعة..

- آلو نعم، نعم الحاج محمد غلوم يتكلم، خير إن شاء الله.
- نكلمك من المستشفى يا حاج، أنا الدكتور نزار، نعم أشرفت على علاجك، أجرينا لك فحوصًا، ونحتاج إلى إعدادتها حتى نتأكد فقط من وضعك الصحي فلو ترجع و..
- والله يا بني ما أتحمّل أكثر، صدقني العودة إلى المستشفى صعبة، جسمي هزيل لا يستحمل ثقب الإبر وهذه الأدوية، أديتم أدواركم ولم تقصروا، يعني ماذا سيحصل؟ الروح بيد خالقها يا دكتور.

- يا حاج محمد، أنت أمانة عندنا ومن واجبنا العناية بك.
- والله ما عملتم إلا كل خير، عندما أشعر أنني بدأت أتعب سأنتصل بسيارة التاكسي أو بالإسعاف، أريد أن أرتاح في بيتي والله.. رائحة التعقيم في المستشفى تذبجني، أنا بخير وعافية لا تقلق يا دكتور، من عنده أهله، فمم يقلق؟

- حاج محمد اسمح لي.. هذه كذبة غير صحيحة، تقرير الطوارئ يشير إلى شخص اسمه عارف المظلوم هو الذي أبلغ عنك وأنت

في النفس الأخير وحيدًا في بيتك، والحمد لله، كُتبت لك عمر جديد، احتشاء في القلب سبب كافٍ ليقتل أي إنسان. ما عندك أقارب أو أولاد؟

- لا تقلب عليّ أوجاعي يرحم الله والديك. غدًا آتيكم واعملوا الفحوص التي ترونها، والله مشتاق أجلس في بيتي.
- لا تجهد نفسك بأي عمل. متى ما أحسست بأي وخز في الصدر، اتصل في الحال، مع السلامة.

أقفل السماعة، هربت به صور اللحظات الأخيرة وهو يكابد هجوم الأيدي السوداء التي حاولت خنقه وهي تدور حوله تتناوب تعذيبه بموتٍ بطيء، كانت الحجرة تحاصره وحيدًا، حتى أتعس من محكوم في زنرنته. هو إذن صاحب اللحية الفوضوية الذي انبثق في مساحة البيت، هل كضوءٍ في عتمة الموت الزاحف أو كمطرٍ على حافة التيبس، جاء وانتشل الأنفاس الأخيرة. عارف المظلوم، جئت كأبي ملاكٍ حارس بعثه الله في خواء هذا العالم، لا أحد يكثرث بأحد أو يسأل عن أحد هذه الأيام!

أنت هو إذن ذلك الشبح في حلم البارحة! ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.. عارف، أين أنت الآن؟ نعم.. وقت الظهيرة يستعطي الناس أحيانًا من بعد الانتهاء من صلاة الظهر، قام وفتح النافذة، المصلون

انتشروا خارج جامع المهزغ، عند الباب، امرأة متكورة في عباءتها تتسول. هذا المسكين لا يملك شيئاً، هكذا يعيش الحياة بلا هوية أو عنوان، شيء مفقود في غوغاء هذا العالم الوحشي، قشة تلهو بها الريح في جميع الاتجاهات، لا فرق في سقوطها بوادي أو بحر، هي على كل حال تهوي إلى مجهولها. سيكلمه منذ الآن محاولاً إقناعه بترك حياة التشرد والسكنى عنده، الشقة رغم صغر مساحتها إلا أنها تكفي اثنين، والخير موجود. عارف إنسان مختلف، هو على الأقل أحسن حالاً من ذلك الغائب ما وراء البحار، نسي أن عنده أب؟! وكيف له هذا القلب يعلمه كل هذه القسوة؟! بكى من فرط غربته، هذه الجدران الباردة شاهدة على حزنه، أحس بخدرٍ يسري في عروقه وها هي كل هواجسه تهدأ، فنام.



(12)

أصوات فقط تطرق عالمه، أصوات بعيدة أو قريبة من فوق أو تحت لا يدري على وجه الدقة مصدرها، هي هكذا تأتي فقط من عالم سريالي غارق في الجهول، يستمع إليها وهي تحاصره هنا، ينصت إليها في صخبها بسمعه، وكأنه مذهول لا يعرف ما حوله! جسده مجمد، ربما مقيد، شيء من هذا القبيل، لا لا، الحالة التي يستسلم لها الآن تستعصي على فهمه، كهذه الصور التي غبشها التعب وبدأت تظهر الآن.

فضاء حجرة مصبوغة باللون البصلي، لوحة فنية من البلاستيك الرخيص لغاية ما، ساعة مصلوبة على الحائط، خزنة قديمة، وقربحا طاولة حديدية، يرقد فوقها التلفاز، وهذه المرأة تسند ذقتها إلى يدها اليمنى تشاهد، لا يرى إلا ظهرها، ترتدي فستاناً قصيراً.. من عساها تكون؟ وما علاقته بما لكي ينام هنا في سريرها؟

أمامها صحن من الخبز الصيني. لا حاجة لأن يترك نفسه تائهة في هذه الدوامة المشوشة من الأفكار. جرب صوته شبه المخنوق، التفتت إليه..

- عارف، عارف، سلامات يا حبيبي، هكذا فجأة تنقلب
أحوالك. يعني تمرض وأنا من يتورط بك؟
- عطشان.

- بس عطشان حبيبي، من ثلاثة أيام وأنت شبه غائب عن الدنيا.
كُل من صحي مكسرات.

خرجت من الحجرة وهي تتشى في مشيتها بشكل مغري، السعادة
بادية على وجهها، امرأة يعرفها من قبل أو أن فكره الآن مشوش قليلاً
مما حصل له، ألم بسيط حاصره ثم بدأ يتفاقم، أهو يعرف هذه المرأة؟
دارت عيناه في المكان، لاحظ وجود حقييته مركونة عند الشماعة، تذكر
الآن أن لديه حقيبة مشاهجة وهي.. إنها حقييته لا شك، كان قد خبأ
فيها بعض التفاح الفاسد من محل للخضراوات، أكل تفاحتين لا غير،
ليته لم يفعل فيدفع ضريبة جوعه الأعمى، تفاح أمريكي معدل وراثياً
ربما، يحمل بجوفه مؤامرة إمبريالية ضد الأمن الغذائي العربي المفقود،
ضحك من أفكاره وهو اجسه الثقافية السياسية!

- تفضل، اشرب على مهلك، لا تستعجل، الآن عشائك شوربة
دجاج لم تأكل مثلها في حياتك هاهاهاهاهاها، بعدها تأخذ
(بسكوبان) كما أوصى الدكتور راج كومار جاري من كيرالا.
مالك تحدق في هكذا؟ أنا منصور.

- لكن منصوره شعرها.. شعرها كان أسود اللون.
- حبيبي صبغته لأجلك، يعجبك اللون الكستنائي؟ على فكرة واشترت أيضاً (موبايل) هدية خاصة من أجلك يا عارف، أحس أني مجنونة عليك وأخاف.. أموت من الخوف لو يصيبك مكروه، لو كنت مرضت وأنت في الشارع لأخذ عزرائيل روحك وما شعر بك أحد. نزلة معوية وتزول.
- تذكرك، منصوره، أنتِ هي.. أنا فقط أحس بدوار وخدر في جسمي، لم أمرض هكذا قبلاً، الوجد كان يقطع في بطني مثل الموس.
- وأنا اعتنيت هنا برجل متهالك في يومٍ ما، واحد سكراب منتهي الصلاحية. لا تستهين بخبرتي، أشطر من أي ممرضة في مستشفيات الحكومة.

رجع إلى دوامة حزنه القديم، هو لم يتعود دفاء البيت، أخذته الشوارع والأرصفة، تارة كانت تأكل من كرامة وجهه البائس، أو تزيد من أحمال تعب العمر الهارب الضائع، وتارة أخرى تورطه في متاعب تلاحقه، هو هكذا، يستطيع التعرف على وجهه في أي مرآة، غريب تعصر عظامه هذه الحياة الملونة بالعذاب والشقاء. منصوره محقة، كان من الممكن أن يموت وحيداً في أي شارع أو قرب حاوية قمامة مثل

القطط المدهوسة على سخونة الأسفلت، تلتصق بقاياها بإطارات السيارات المستعجلة.

يتذكر ذات ظهيرة ساخنة، كيف كان المشهد.. لم يفلح السائق في تفادي القطة، دهسها من منتصف جذعها ولم يتوقف. راقبها كيف سحبت نفسها بصعوبة وهي تنزف نصف أنفاس حياتها المتبقية، قبل أن تلتقط آخر رفق لها، داهمها كلب سائب، وأكلها مثل أي وجبة جاهزة تنتظر أول من يظفر بها!

من هو في هذا العالم الكئيب؟ آن له الأوان أن يعترف بضعفه وشفقته على نفسه، بني آدم هش مثل فقاعة صابون مهما علا في الأرض. لكن أي حياة ترهق محاصرة داخل الجدران طوعاً من صاحبها، أمر يبعث على السأم، هكذا عندما يتنسم المرء هواء الفضاء ملتحمًا لا شيء، يشعر بالمزيد من الحرية كأبي عجري، بيته حيث يشتبه المكوث، ثم يسافر مثل غيمة بلا محطات، هكذا حلوة الحياة!

- عارف، تسرح بعيداً، أعتقد أنك اليوم أفضل، كنت تهذي وحرارتك مرتفعة، ولكن تعرف؟.. مرضك فرصة بالنسبة لي لكي أجعلك تسكن هنا، حياة الشوارع صعبة. تبخس نفسك حقها في الدنيا وتهان من أجل ماذا؟

حدق في وجهها الجميل الطيب، لاحظ شفتها السفلى متورمة، الجهة اليمنى من عنقها به خدش لم يمض عليه وقت طويل، فضحكت في وجهه وقالت:

- أعرف فيم تفكر؟! لم أتمكن من التملص منه، زبون من المحرق ويعز عليّ أن أخيبه، هكذا هي حياتي، لكن تدري؟ والله أحياناً ألعن هذه العيشة، لا أعرف نفسي حتى، كأن طيفاً من داخلي هو من يفعل جنونه ويشعل كل تلك الحرائق اللذيذة، أحب رائحة شوائها ولا أتوب!

- لستُ زوجكِ أو قريبكِ حتى أحاسبك يا منصوره، أنا ارتضيت لنفسي حياة التشرد مكرهاً، ثم هربت من أي مسؤولية حياتية تقيدني كما الناس الأسوياء، أهيم في الشوارع، دفعت ثمن خياراتي ال.. الحمقاء، لا ما كانت خياراتي التي ارتضيتها، حينما تصطادني لحظات غضب أبي، تحولني لكتلة منتفخة من الوجد والخيبة، ثم هناك مرحلة المستشفى عندما.. كنت أهرب من البيت، الشارع هو الذي أطعمني ووقاني شر وجنون أبي. أنتِ أيضاً لكِ خياراتك، هذه حياتك.

- عارف، أرجوك لا تقلب عليّ أوجاعي. لا أحد يخلو من الهموم، أهلي لو فكرت يوماً أرجع لهم لوضعوني في جلف وأحرقوني

بالجاز، شبابي نصفه ضاع مع هذا الشايب المعلقة صورته خلفك، يسألني الزبائن عنه فأكذب عليهم وأقول بأنه جدي، أليس ظلمًا أن ينتهك حق فتاة صغيرة ليرموا بها وسط خرابة واحد مسن؟ كل ما تبقى منه مجرد ظل رجل آيل للسقوط. رحل عني وبقيت في البيت، هل أقدر على إعلان نفسي في السوق وأصرخ طالبة الزواج؟! حتى عندما فاتحني ابن عمي الأصغر مني بسنة في الموضوع، قامت عليه القيامة واتهموني بعمل سحر أسود له لكي أتخلص من ترملي. تركوني وحيدة، هل تعرف ما معنى أن تكون المرأة وحيدة وهي تشتعل بالرغبة وبركان خامد في أحشائها ما عاد يطيق صبراً؟! قررت تفجيريه وليحترق بناره كل من وقف في طريقي. أنا ضحية وهم السبب.

كان سائق سيارة الماء الباكستاني طويل القامة، مثل كل مرة كان يملاً جرة الماء وهو عند عتبة الباب، أعطيه حق الماء ويذهب. لكنه تبسم في وجهي وربما عرف بجدسه أنني وحيدة، بادلته الابتسامة وأحسست حينها أنني لا أزال أنتمي لعالم الأحياء وأن هنا رجل يستلطفني أو يشتهيني، لا فرق!

- منصوره، خففي عن نفسك قليلاً، لا أقصد أن تعذبي نفسك هكذا، هذا أنا أنكد على الناس، سامحيني.

- البكاء يفيدني ويغسل روحي المخنوقة يا عارف. سمحت له في المرة الأولى بلمس كفي. المرة الثانية لمس كتفي، كنت كمن يحترق بجنون وأريد المزيد، رجل بطوله وعرضه فجر صمت جسدي ينايغاً من الخمر، ما عرفت شعوراً مشابهاً كهذا من قبل مع ذلك الشايب، ثم وجدني أستقبل الثاني والثالث، آآآآآآآآآآآ، لا أستطيع عدّهم، ولكني لم أمنح روحي لهم. أنت فقط أعطيتك نبض قلبي يا عارف، مختلف أنت عنهم لكن لا تعرف نفسك.

- تعيس مثلي لا يصلح للحب، ما عندي بيت أو سيارة فخمة أو رصيد بنكي دسم حتى تحبيني يا منصوره. متسكع أبله تأويه الشوارع والمقابر، يأكل من القمامة ومآثم المتوفين، ولا يشبع إلا في شهر رمضان وموسم عاشوراء، حياته بلا معنى.

- كل هذا لا يهمني، لو تدري يا عارف.. إنني لا أقدر على تركك، سأطلق كل هؤلاء الأندال الذين عرفتهم في حياتي، سأكون امرأة أخرى، تسلم قلبها وروحها وإخلاصها لرجل واحد فقط.

- هاهاهاهاهاها، صدقيني، أنت تحرثين في بحر ليس أكثر، أنا رجل وحيد تعيس، سأموت يوماً ما في خرابة أو تدهسني سيارة، قد

أنسّم من وجبة طعام مرة أخرى، وأقدم استقالتي من هذه الحياة بصمت. أحبي شخصاً آخر أحسن وأنظف مني، تبين معه بيتاً وتؤسسين عائلة.

- أين ستذهب يا عارف؟، لا تغادر سريرك، أنت مريض.
- أحس بالاختناق هنا، لا أقصدك طبعاً، ولكن.. شكراً على صنيعك الطيب، لولاك كنت الآن مجرد جثة محمولة، وجوقة من الأصوات تشيعني لحفرتي وملاً يقرأ عليّ كم بيت شعر حسيني، لكن لا أتصور أن هناك الكثير ممن سيهتم بحضور جنازة واحد منبوذ مثلي. أرجوك اتركيني أذهب، لا تخافي فأنا قادر على شقائي، سأعيش عمري المكتوب لي!
- كما تريد، هل أنت مصمم على رأيك؟ إذن، لن أمنعك. هاتفك الجديد معك جاهز للاستعمال، اتصل بي وقتما تريد، رقمي قمت بتخزينه في الذاكرة، لا تتردد يا حبيبي. هذه شوربة خضروات، احملها معك وتعشى بها.

مرن ساقيه قليلاً وكأنه يتأكد من صلاحيتهما للعمل، حمل حقيبتيه وعلقها على كتفه، لبس قبعته الكالحة اللون كمن يستعد لجولة خلوية في غاباته العجائبية التي لا تشبه أي شيء آخر. وصل إلى الباب الخارجي ثم رفع قبعته كأى (جنتلمان) يحيي امرأة جميلة، ابتسمت منصوراً.

احتواه الرقاق وهو يصفر لحن أغنية قديمة، شيء يتسلى به كي يطرد
وحشة الأشياء السوداء التي تتراقص في وجهه.

*** **

الأضواء البرتقالية تغسل الشارع بتدفقها الأنيس، يمشي مصفراً لحنه
المفضل في ليل المنامة، هكذا تطيب نفسه وهنا تصعد عصافير فرحه إلى
عولم أخرى، الشارع حركته خفيفة عند الحديقة، أشتاق إلى الجلوس في
اخضرارها، تعريشة الجهنمية مكان آخر يحن إليه. المدخل حيث كابينه
الناطور فارغة، الشاب حامد لا يداوم اليوم على ما يبدو.

شاب لطيف، يتمنى لو يراه الآن حتى يتبادل معه ثرثرة خفيفة، الروح
تحتاج من وقت لآخر تسلية عابرة تعالج من احتقان شرابينها. حتى في
الليل، يبدو منظر بعض الأشجار الميتة كريهاً على نفسه، الحديقة تعاني
الإهمال، البلدية تفتح مشاريع حدائق كثيرة، لا تتابع صيانتها كما يجب،
كم هو مزعج رؤية شجرة قموت، حياة خضراء صامتة تمضي بهدوء.
جلس على البساط الأخضر، فتح الحقيبة، صحن الشورية في وعاء
الألمونيوم محتفظاً برائحته الشهية وإن برد قليلاً، غلفته منصوره بشكل
جيد مع ثلاثة أرغفة من الخبز. فكر لو يمشي بضع خطوات نحو النافورة
الأسمنتية المتصدعة، لا ضير أن يتحلى ببعض العادات الصحية للبشر
العاديين ويغسل يديه قبل الأكل بدل هذا الاستعجال والبله. قرب

النافورة، فوجئ به يجلس ومعه نفرين، جلسة عشاء هو من رتبها ربما، وأخذ يضحك مع صاحبيه، كان الحاج مرزوق بوجه متعرق ومنفعل يقول:

- المصيبة أنكم لم تتورطوا مثلي، البيك آب ظل مكانه وأنا لا أدري من يكون هذا (ابن ال... الذي عمل في هذا المقلب القدر، أربع إطارات مفرغة من الهواء، مصيبة.

أكل أحدهم قطعة لحم من السفرة، وشرب عليها بعض البيرة وسأل:

- أنت صاحبي وأعرف نجاساتك، شرير وتفعلها، أكيد آذيت أحداً، من غير المعقول أن يكون هذا المقلب هكذا بلا سبب. هل تريد أن تقنعني أن واحداً من خلق الله يترصد لك الأذية بلا مناسبة؟!

أردف الرجل الآخر وهو يضحك، كرشه المنتفخ كان يهتز:

- ما تخيلتك يا مرزوق تتورط هذه الورطة، سيارتك أصلاً قديمة ومنتهية، ولو كنت في إدارة المرور ما أنجحها في الفحص لكن.. أنت أكيد آذيت أحداً.

- واحدة غبية تفرش بسطتها عند باب هذه الحديقة، أحبت فقط أن أعلمها درساً، رأسها يابس وهي عنيدة. قدمت ضدها بلاغ

في البلدية. كنت مقهوراً منها. يمكن شباب طائش فعل هذه
الفعلة، لا أدري. هذه الفتاة، بالحلال، بالحرام، حتماً سأخذها.
- أنت فقط تتحدى على لا شيء، البنت فاهمة، وغلبتك، وقصة
السيارة تقول إنك لا تستطيع المواجهة، أتركها في سبيلها
أحسن لك. واضح أن لحمها مر ولا تؤكل.

أحس بالخوف من تأمرهم وكم تقززت نفسه من عصابة الحاج
مرزوق، عشاء جريمة تنحضر قريباً. بان وجهك الشيطاني القبيح يا حاج
مرزوق. انسحب بهدوء، حمل حقيبتك وترك صحن عشائه، خرج مسرعاً
من الحديقة. أحياء المنامة متشابكة وكثيرة، في أي بقعة تقطن زكية؟ أين
يمكن أن تأخذ الشوارع المتقاطعة؟ أيهم على وجهه هكذا حتى يضيع
الوقت بلا طائل؟ لا فائدة.. لكن زكية في خطر، ماذا عساه يفعل الآن؟
تمتزج الحيرة مع خطواته، يمقت هذا العالم الوحشي المائل أمامه، لا مكان
فيه للضعفاء، الذئاب تتوالد في أرجائه بكل أشكالها وألوانها. ها هو ليل
المنامة يبدل جلده الآن، من هدوء جميل تغسله الأضواء البرتقالية، إلى
خبث هؤلاء الأشرار.. يستمر في مشيه إلى اللا مكان، يا منامة لم
تتحولين إلى قسوتك هكذا فيهجر سماءك الصفاء!؟

قدماه تتعب من تأثير الشد الذي يضرب في أسفل الكعبين وأعلى
الساق، يتراجع تحت إلحاح الوجع إلى الحديقة من جديد، يختار زاوية

أخرى كي لا يلتفت إليه الحاج مرزوق وعصابتة - إن كانوا لا يزالون في سهرتهم الملعونة - الحمد لله، لقد غادروا. المصباح المعلق أعلى عمود الإنارة مكسور، هنا يختار البقاء في الظلام، ينتظر الصباح وينتظرها، ربما تأتي. لا خيار آخر أمامه عند تخوم الحيرة، فليتوقف الآن، هو اجس كثيرة تلعب في عقله، هي الأخرى ترفض التوقف، يحاول تشتيتها متشبهًا بقشة وسط أمواج خوفه. فيظهر مرة أخرى من ذلك الغياب وهو يعتمر قبعته، يلف براحة يده سيجارة ثم يشعلها ويخاطبه:

- صديقي عارف، صدقني لن تكسب شيئًا من هذا القلق، أحيانًا يقضي المرء نصف عمره يقلق من أجل حبيب قد لا يستحق، ولك أن تتخيل بعدها أي شيء.
- هذا أنت (عمي زوربا) كم أحتاج مشورتك الآن!
- ها ها ها ها ها ها ها، أتدري؟ نحن البشر نظل نحترق مثل هذه.. لكن هناك من يحترق عمره بعث، وآخر يخلق بعيدًا بلا مبالاة.
- هذا استفزاز مبطن لست في حاجة إليه، تكلم بصراحة، سأقبلها منك مهما كانت شائكة.
- لا تغرق نفسك في التشاؤم، عش حياتك مثلي، قلت من قبل أنك مثلي تشبهني و..

- لحظة، لحظة يا (عمي زوربا) تأتي بسرعة ومستعجل دائماً!
- انتهى وقتي معك، لا أستطيع المكوث أكثر، لعالم الأشباح قوانين يا رجل، حتى زوربا المتمرد لا يستطيع خرقها
هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها، مع السلامة يا صديقي!



(13)

تعد وتعد وتعد، رزماً من الدنانير تكدسها فوق بعضها البعض،
تتنسم رائحة إغرائها اللذيذة ثم فتحت علبة من المخمل الخمري، وقعت
تحت تأثير الشعاع الملون الصادر عن قرطي الألماس الساحرين، قامت
تجربهما أمام صفحة المرأة، تختال في فرح وغرور، روح ملكية تتلبسها
هذه اللحظات، تستعد لصعود عربتها الفاخرة كي تنطلق إلى أمير تلك
الحكاية التي تحفظها منذ أيام الدراسة. تلك كانت مجرد خيالات البنات
الصغيرات وعقولهن المليئة بهراء المدرسة. هنا صفحة ناطقة من حياة
مرفهة تتلون كل يوم، هنا هي أميرة حقيقية يتوجها كل الرجال المتلهفين،
يصلون إلى فردوسها الخرافي، وكل زبون وله وزنه!

رن هاتفها الجوال وقطع عليها تموجات الحلم المسافر في فضاء
الروح، الشاشة الوامضة ترقص بنغم أحد أغاني إليسا.. إنه هاني، فتهلل
وجها ورددت:

- هاي حبيبي، صباحك عسل. لا أصدق، أنت خطير ومن لا
يعرفك يجهلك، كلفت نفسك كثيراً. هل تعرف أنني أول مرة
عرفت الألماس عندما رأيت ملكة بريطانيا إليزابيث ترتديه في

- أذنيها على تليفزيون بي بي سي؟. لكن الفرق واضح بيني وبينها
طبعاً، أنا شباب وهي عجوز على باب قبرها.
- لست أفضل منها، دمها أزرق ملكي فلا تقارني نفسك بما!
 - أوصيت صاحب محل المجوهرات أن يوصل لك الطقم.
 - كلك ذوق هاني، من نصف ساعة فقط تسلمت هديتك
الغالية.
 - المهم أنتِ معي في كل خطوة وكل شيء بحسابه يا منصوره. هل
عارف اقتنع بالموضوع؟ هل استلم الهاتف؟
 - اعتمد عليّ، حتى أنه اتصل اليوم وقرأ قصيدة شعر حديث أو
هراء حديث. انظلت عليه الحيلة وصدقني خلاص.
 - طوال عمره يكتب هذه الهراءات، المهم أن تمثلي عليه كما
أخبرتكم، لا تركيه يشك ولا لحظة فهو..
 - لا تخاف عليّ، هو الآن مقتنع. هل صحيح يا هاني أنك غيرت
مكان سكن أمك وقمت بتأجير البيي...
 - يا قدرة، لا تتدخل في أمور لا تعينك و.. دعينا في العمل ولا
تحرق أعصابي.
 - آسفة، آسفة، كل ما تريده مني سأفعله، فقط لا تتعصب، أنقل
لك تحركاته كما طلبت. تعال عندي الليلة يا هاني.

- منصوره؟ هل صدقتي نفسك بأنك المومس الخرافية الوحيدة في المنامة؟ ههههههههه.. الديرة مليئة من جنسيات العالم وأجمل منك بآلاف المرات.
- مهما يكون يا حبيبي، اللحم المحلي سعره منه وفيه.
- أموري مرتبكة قليلاً، مزرعتي تعرضت لتخريب متعمد ولا أدري.
- السياسة ستحرق البلد بمن فيه، شفت المنشورات التي تسب مذهبنا وتتهمنا بالخيانة؟
- منصوره، أنت من حضن هذا إلى هذا، بالعقل يعني.. ما علاقتك بالمذهب؟
- مهما يكون، أنا بنت البلد ومن يسب مذهبي أحرقه بالجاز. أنا منحرفة وسوداء الأفعال لكن لا أسمح لأحد بأن يخطئ في مذهبنا وجماعتنا.
- بعد قليل ستتكلمين عن البرلمان والفساد والتجنيس وحقوق الإنسان، اسمعي، لا تدخليني معك في هذه الدوامة ولا شأن لي بها. منذ كنت صغيراً إلى أن كبرت وأنا في مآثم المنامة، في كل موسم عاشوراء أسمع نفس القصة يزيد قتل الإمام الحسين. خيلنا نشوف مصالحنا بلا سياسة بلا مذهب!

- يمكن الدور عليك يا هاني، مجهولون قاموا بتكسير محلات كثيرة لجماعتنا هنا في المنامة. هل ما تخاف على حلالك؟
- المهم، اسمعيني.. راقبي هذا الأبله عارف. فقط أحل بعض الأمور المؤجلة، ثم أفرغ له .. نصيحة مني، وظفي لك (بادي جارد) يحميك. سمعت أول أمس عن هجوم نفذته مجموعة تسمى نفسها الشباب الرسالي، كل من كان في ذلك البيت من بنات أو زبائن أكل عشاءه من الضرب، باي يا حلوة.
- مستعجل دائماً، أنت تمزح أكيد. لا يستطيعون ولا أحد يتجرأ يقترب من منصوره، يهددون فقط.
- لا مانع من الحيلة يا منصوره، افهميني جيداً وبلا عناد، أنا أريد مصلحتك.. مع السلامة.

توجهت بعينين حذرتين نحو الباب، تركت هاتفها الجوال فوق السرير، تفكر في إضافة قفل آخر إلى الباب الحديدي. متى ما أصبح معززاً بقفل جديد، سيفشل حينئذٍ أي اقتحام مدبر للبيت. هاني يتلاعب بأعصابها فقط، فكرت في هذا الاحتمال. ضحكت في وجه فلقها النافه، عادت تتفقد رزم الدنانير، شيء يبعث الخدر أو النشوة في أوصالها، شيء يجعلها الآن أكثر قوة، تماماً مثل هاني، فكلامه أوامر لا تناقش، وهكذا يجب أن تكون القوة فقط.

ولكن ما هو شكل هذه القوة الجمدة بلا فائدة؟ عد الدنانير في كل مرة يشبه فرحة طفل مندهش بكمية المال التي تملأ أنامله الصغيرة من حصيلة العيد! أكيد هاني يستطيع مساعدتها في استثمار المبلغ، هاني ذكي وشيطان في أمور كهذه. من الغريب كيف أن الأقدار جمعت الأخوين تحت سقف واحد فيما مضى؟، هاني الداهية والجشع مثل الأخطبوط، شقيق عارف المسكين المتسول في الأسواق وعلى أبواب المساجد، طيب وغبي، متسكع مثقف، زاهد متصوف، مجنون وعاقل. كيف يكونا من بطنٍ واحدة؟! لكن.. عارف ليس أبلهًا كما يصوره شقيقه هاني. عارف لغز وليس أي لغز، لا يشبه أي رجل آخر مر من سريرها، كلهم متشابهون في الشر والقبیح، يشتهون الوصول إلى براكين شبقهم الجنسي ومتى ما شبعوا، فاضت قمامة ألسنتهم بالشتم أحياناً وكأن الواحد منهم، يستيقظ من حرارة اللففة، ينفذ عنه رماد جمره وشهوته، فجأة يتذكر أو يستنكر لقيمات الحرام من لحم الغانية التي شاركها الرقص!! عارف إنسان مختلف عما عرفته في وجوه الرجال، شتمتهم في سرها واستحقرتهم، يأتون إليها متبرمين من الحياة، لا يرضيهم شيء، يبحثون عن أنثى خيالية تلبث في دواخلهم المسكونة بالمرض وترضي غرورهم وقذارتهم إلا أنت.. من أنت يا عارف؟

لِمَ تقحم نفسها في دوامة تافهة من الأسئلة التي ليس لها معنى؟
حريّ بها الاهتمام بالكسب، هاني ما دام يدفع بسخاء ويحصل على
الخدمات التي يريدّها، فلا داعي لكل هذا التفكير الساذج. الحياة
مكسب، وعلى الأذكىء البحث عن أصغر الفرص المنتظرة في طريق
الخط. الرقص على حبلين في وقت واحد مهارة مطلوبة في هذا الزمن،
لا بد من السيطرة عليه ثم لي رقبتة!

*** **

خبز بالجين يستخرجه خطاف الخباز المعدني الطويل. طازج وساخن
بين يديه المتلهفتين، يطحن الجوع معدته، الحقيبة فارغة إلا من بعض
المجلات والكتب القديمة. رجلٌ ما كان يصوب إليه نظراته المتقززة، نكس
رأسه ومضى لأحد الأزقة وأكل بشهية، بيد أن بساطة الوجبة لا تكفي
لإسكات هذا الجوع المتمرد، في جيب البنطلون ثلاثمائة فلس فقط، هو
هكذا سريع الجوع.

أسبوع منذ غابت زكية عن الظهور، مكانها خالٍ.. وجودها يخفف
عليه قليلاً، قرب بسطتها دفء وثرثرة ولقمة، تمنى في سره أن تكون
بخير. الجو مناسب وخفيف الحرارة، سيمشي الآن إلى المقبرة، يوم
الخميس تتوافد الناس لقراءة الفاتحة على أرواح موتاهها، هناك يعرف
كيف يمارس خبراته في الاحتيال على العيش.

مشردو الدول الأوروبية يعزفون الموسيقى في الطرقات وقرب محطات المترو، فينالون عطف المارة وشفقتهم، هو.. لا كمان ولا مزمار عنده، الكثيرين هنا يشمئزون من الموسيقى ويحرمونها، وخلق كثيرون يستعملونها كنعيمات لهواتفهم الجواله. لا شأن له بتناقضات الناس أو ما يعتقدون. مصحف صغير في حقيبته وجلسه خاشعة عند باب المقبرة، تكفل له تعاطف الناس، بالذات المفجوعة حديثاً على موتها، هذه فقدت زوجها وتلك ابنتها.. من مشهد الحزن المتواتر والقلوب الموجوعة يستطيع أن يستزق، يقرأ على أرواح الراحلين، تتجمع في جيبه حفنة دنانير تحفظ كرامته. هناك وجوه انقطعت ولم يعد يراها، الناس هم هكذا دائماً، في بداية الأمر يتحمسون في البكاء والتفجع على فقدهم عزيزاً، وكأنهم يوشكون على اللحاق به إلى القبر، يلتصقون بقبره ويكثرون من الزيارة ثم عندما تتحول القصة إلى مجرد طقس اجتماعي مكرر، تبدأ تفقد ذلك التوقد الذي كان، وبعدها يصير الميت وحيداً، ما من أحد يتذكره بزيارة أو يعطر قبره بأية قرآنية عن بُعد!

الكل يلهث في جحيم هذا العالم.. كيف لهم الانشغال بعالم الأموات؟! ينظر إلى المقبرة متأملاً سورها الأسمتي المرتفع، أرتال من السيارات تفيض بالمكان، إذا ما تبدت مميزة الفخامة، فإن المتوفى من علية القوم، شخصية مهمة في المجتمع، وزير سابق، تاجر معروف،

موظف عالي المقام في أحد الدواوين الرسمية. يعرف كيف يكون شكل المقبرة حينها.. يأتون بثيابهم الأنيقة أو بذلاتهم الرسمية، روائحهم العطرية تخلق سوقاً من الأبهة والتفاخر الصامت، الكثير منهم يفشلون في تقمص أدوار الحزن وإن كان من أجل المجاملة العابرة! ليسوا أكثر من منافقين، لهم أغراضهم الخفية التي يهرولون خلفها بالالتصاق بفلان من الناس.

أما عندما يكون المتوفى مجرد فقير معدم، فلا يتواجد في المقبرة إلا أهله وأقاربه ومحبيه، مجاميع قليلة العدد يكون حزنها أكثر صدقاً وشفافية، تنثر آهات الخسارة وشظايا الذكريات، مع بركات الآيات القدسية فتتعاون الأيدي في تجهيز حفرة، تنصب شاهدة قبره ثم تتفقد بنظرات وداعٍ أخير. يشعر بهم هنا على حافة أحزانهم، يلتصقون بالموت ويتشربون رائحة التراب المبلل بالماء والدموع، يعرف كيف يكون انتظارهم هنا وهم يودعون ميتاً يلي آخر، حقاً.. أختلف حزن الأغنياء عن الفقراء!؟

انغمس في طقسه الخاشع مفتتحاً قراءته بسورة البقرة، لم يتمم الصفحة الأولى، حتى ظهر ظلها أمامه، زكية تلملم جسدها النحيل بعباءةٍ أكل أطرافها الغبار، تحمل بعض (المشموم) وزجاجة ماء الورد الإيراني..

- عارف، كيف حالك؟ مالك اختفيت فجأة؟
- أبدأ، كنت مريضاً. الحمد لله أنا الآن أفضل. أنت أيضاً محتفية لا أراك عند الحديقة، خير إن شاء الله.
- مشاكل مع البلدية، لكن ساحل الموضوع، لو الرزق على أيدي الناس لقطعوه على هواهم. هل تحتاج مساعدة يا عارف؟
- أنت من يحتاج المساعدة، كوني حذرة يا زكية. الحاج مرزوق - مع شخصين - يدبرون لك مصيبة. أنا سمعتهم يتآمرون ضدك. هذا الرجل قدر وشيطان.
- كنت تحدثني عن أحلامك في مرات سابقة، هذا حلم آخر يا عارف؟ هاهاهاهاهاها لا تكف عن خفة دمك.
- زكية.. الموضوع ليس مزحة أو حلم هذيت به، كوني حذرة فقط.
- تشوشني الآن ولا أدري ماذا.. أفكر في مشاكل كثيرة، الحاج مرزوق أتفه من أن أخافه. أفكر الآن في صاحب العمارة، باعها والمالك الجديد قلبه بلا رحمة، رفع الإيجار، سأصبح قريباً مشردة مثلك. لو فكرت في السكن بمكان آخر ربما.. جئت الجبانة كي أغسل بعضاً من حزني. أتحدث إلى روح أبي وأمي وأهديهما الفاتحة تنور عليهما قبريهما. أشعر بالراحة هنا. ليت

- الناس تتعظ من الموت، الكل يتقاتلون على الدنيا، يتقاتلون على لا شيء، سراب ينخدعون ببريقه سرعان ما يزول.
- زكية أنتِ طيبة، ارجعي عند الحديقة، أناس كثيرون يفتقدونك، أساعدك في ترتيب البسطة، والله أنا مستعد.
 - شكراً يا عارف. خذ، لا تعتبر المبلغ صدقة مني، اقرأ بعض السور القصيرة على روح أبي وأمي.
 - آخذ من كل الناس، ولكن أنتِ..
 - لا تضطري أحلف. أعرف حالتك، هيا خذ لا تجعلني واقفة هكذا، الناس ترانا.

ابتسمت بوجه متعب تعلوه بعض الكآبة، مضت في طريقها وسط شواهد القبور، تختلط عباءتها مع عباءات النسوة، تتحول إلى خيال أسود. صفرة الغروب تضيء لونها على خضرة الأشجار المزروعة حديثاً، تنسحب الناس بطينة من المكان.

قرأ بعض السور القصار، أغلق المصحف وخبأه في حقيبته، قرفص يتأمل الناس، يمرّون عليه حيث لا أحد يكثرث به هنا.

هذه اللحظات، يعاوده شعور الفزاعة.. كما هو حالها دائماً، مصلوبة في وجه الريح، لكنها لا تخيف أحداً في الواقع، فراغ ينهش داخلها، أتعرف ماذا تفعل في قفر وحدتها وهي مهملة هكذا أمام قدرها؟

مهمل هنا.. يزداد في غربته وحزنه، يتذكر المرة الأولى عندما دخل لهذا المكان، قبر جدته في.. نسي مكانه الآن. كان يأتي برفقتها وهي تصطحبه في عصاري الخميس بالذات. كانت جدتك امرأة طيبة ويحبها الناس، كانت وكانت.. حتى سألت ذات مساء متلثماً ببراءة طفولته (لماذا يموت الناس يا أمي؟!) يتذكر كيف أدهشها السؤال وأخذت تتلفت حولها محرجة من سؤاله المباغت. فقالت: (لا تكفر بالله.. لا دائم إلا وجهه. أسكت ولا تحسف بنا الدنيا!!).

يتذكر.. أهي طبيعة فطرية في هذا المجتمع أن يجمع التفكير بصوت مسموع في دواخل أفرادهم؟ شيء يلح أو ربما يضغط على أنفاسه. أن تقرأ فأنت تفتح مغاليق ما تجهل، وتلك الأم الصابرة حرمها والدها من التعليم، لم تقرأ حرفاً ولم تكتب جملة، هكذا قولها مجتمعتها، كلما رأت كابوساً في منامها، تكسر بيضة وتتلو تعاويذ غريبة لطرد روح الشر القادم حول بيتها! لكنها لم تنجح في طرد الروح الانهزامية والمزاج المتقلب لرجلٍ دارت أيامها حوله، تعصف به ساعات الغضب من لا شيء؟! قالوا لها: ابن عمك وهو أولى بك! زوجها لرجل مريض، فتراكم صبرها المخنوق على ورطتها من أجل إرضاء أعراف وتقاليد المجتمع وثقافة تلك الأيام.

كم كان يحطم كل الأشياء الجميلة داخله أو خارجه، لا فرق.. ثم يسقط مرتعشاً في نوبات الصرع التي تنهش عمره مليئاً بالمرارة والشقاء. ما كان بيتاً يشبه بقية البيوت، أفراحه استثناء من جعبة الأيام، وأحزانه قاعدة تتراكم فوقها ذخيرة تكفي لوجبات الكآبة السوداء المتجددة، لا تمهل النفس هنيهة لتتنفس بعض الطمأنينة الهاربة.

التفت إلى رقصه الموسيقي، إنه هذا الشيء الصغير، الذي يشغل الناس، أصلاً لم يكن ليفكر في اقتنائه لولا أن منصوره قدمته كهدية من طيب لطفها.. حذق في لوحة المفاتيح وكما علمته تحديداً لكيلا يفقد من ذاكرته الزر الخاص بالرد. تذكر أنها أشارت على اللون الأخضر.

- أهلاً يا منصوره، كيف حالك؟
- ممتاز، ممتاز، أصبحت تعرف استعمال الجوال أكثر مني. أنت محظوظ يا عارف، أكيد الآن تستمتع بالجلوس في الحديقة وسط خضرة الأشجار وتسمع زقزقة العصافير.
- هاهاهاهاهاها، أنا في المقبرة، في ضيافة الأموات! أسترزق بقراءة القرآن، قلة من الناس تحفل بي، لكن ثلاثة دنانير أو أقل تدخل إلى جيبى نعمة من ربي.
- أذكر في قلبك جدة منصوره المنامية واهدها سورة الفاتحة وبعض السور التي تختارها، وتعال عندي وخذ عشرة دنانير،

حلال عليك. والله ما دخلت المقبرة من ثلاث سنوات.
تذكرت.. لا تنسى زوجي المرحوم حاج حسين بن علي الصرافي.
سمعت مرة من الشيخ أن ثواب الفاتحة على الميت، هدية تخفف
عنه أهوال البرزخ.

- كل أقاربك الموتى أعطني بهم، ولكن الفاتورة بدون خصم
هاهاهاهاهاها.

- شكرًا يا عارف، ولا تهتم، اعتن بنفسك. مع السلامة حبيبي.

- لحظة لا تقفلي الخط، عندي بعض المجالات لو..

- قراءتي قليلة يا عارف، لكن لا مانع، يمكن أتعلم شيء مفيد،
الليلة أين ستنام؟

- في الحديقة طبعًا، الناطور حامد واحد طيب، يسمح لي بالنوم
هناك وحتى يدعوني على عشائه في بعض المرات، على عكس
الأجانب، يطردونني. الأجنبي لا يتعاطف إلا مع بني جنسه. مع
السلامة.

كانت الشمس قد غابت، المقبرة الآن متروكة لصمت تراجمها وحراسة
ملائكتها، حدق في فضاء المكان وهو يخبئ الهاتف في الحقيبة. يداهم
السؤال.. أحمًا منصوره تتحدث بهذه اللهجة الدينية؟! تتكلم عن هدية
الميت وأهوال البرزخ؟ كم تبدو متناقضة وغريبة الأطوار، تصطلي بجمر

خطاياها ضاحكة، ثم تحسب حساب البرزخ!! هي بالمقابل تكثر من الأسئلة، ما الذي تبغي الوصول إليه؟

منصورة لم تقل إنها تحب زوجها المتوفى أو تنفي ذلك، لا تتوانى عن خيانتها فكيف الآن توصي بشأنه طالبة له الرحمة وثواب الفاتحة؟! أشباح الرجال تتراكم في حضنها وتشعل نيران آثامها مراراً وتكراراً، فسقت هذه المرأة، تنافق وتحتال ليس إلا، وهي تكذب بالتأكيد.

تدعي حباً وهمياً ليس أكثر، لكن كيف يقدم إنسان هدية ما إن لم يكن.. خاف من أفكاره التي تهاجمه. أيجذر من هذه المرأة أم ينساق بعفويته طائعاً كي تقدمه قرباناً لشخص ما! هذه صيغ مبالغة تتدفق من تفكيره المرتبك فقط. لكن هذا وارد الحدوث، كل امرئ طيب في ورطة هذه الحياة، بمثابة مشروع كبش فداء أو جسر، يقتات وجعه وحيداً حتى يعيش الأقوياء بعد عبورهم فوق هيكله. روما القديمة لطالما اصطفت الجوارى والعبيد والأغبياء والمجانين، كقرايين للآلهة حتى يكفروا عن خطاياهم.

حتمًا هناك هدف تسعى خلفه منصوره أو ربما أحدهم يلجأ إليها.. أياكون الحاج مرزوق متواطئاً معها؟ ربما، ففي الأمر شيء آخر يستعصي على تفكيره الآن ولا يستطيع حل الأحجية. محاولة نصب شراك الاستغفال، هو يميز هكذا الرائحة الكريهة من أول مرة، هي ذات

الرائحة التي تفوح من كلام هاني. كم هي وقحة هذه الحياة، اللحظة التي تعتقد فيها أنها رحيمة بك وتحن عليك، ليست أكثر من دخان وهمي يحيط بك. أصلاً منصوره تريد مصلحتها قبل أي اعتبار آخر، أي شكلٍ للوفاء المزيف يعيش في داخلك يا منصوره؟ تختلقين قصصاً من الكذب، هذا ما تبرعين فيه.

من هذا الذي اشتراك؟ آاااااااااا، سكاكين تطعن نفسه الخائبة، كلهم شياطين تتكرر في ثياب الملائكة، الكل يهرول من أجل مصلحه فقط. هو هنا فقط مصلوبٌ أمام سهامهم كالفزاعة المنتظرة مصيرها. منصوره شيطانة كبقية القطيع، وربما قصة المرض.. نعم، هذا وارد جداً أن تكون هي السبب، هي من دبر سيناريو القصة ونفذها، ولكن من أجل ماذا؟ هكذا هي الناس، تعامله على أنه نكرة أو أبله لا يفهم، أحياناً يفسر الأمور ببطء، لكنه ليس أخرقاً كما يظنون. منصوره تنصب شرراً ما.. لكنه الآن يعرف قصر المسافة التي تفصله عن الملعب المدسوس ضده، المسافة قصيرة في ظنك يا منصوره، ريثما تحمى جدران الفخ، هاهاهاهاهاهاها، لكن رائحة الشياطين يعرفها تماماً كما فحاحهم. اللعنة.. حذق في صمت المقبرة وتذكر كلمات زكية، وجدت راحة نفسها في هذا المكان! لم تقل ذلك عبثاً أو زهداً في الحياة، هي ليست

من حزب هؤلاء الذئاب الشيطانية، هي طيف من الطيبة بين جبالٍ من الشر والقبح والتصنع الكاذب والمجاملة.

هنا المكان يحمل حقيقة واحدة.. كل آثامنا وأحقادنا المتبادلة ومعاركنا ونزواتنا وشهواتنا تصل إلى بساطة التراب ورائحته، تحدق في وجوهنا بتحدٍ واستهزاء فنرجع إلى حفرة متواضعةٍ يغادرها آخر بصيصٍ من نور الدنيا. حقًا هذه الحياة غريبة. هرش لحيته الكثية، غملة أحس بها تدب على كفه الأيمن، قرب كفه من سور المقبرة الخرساني، تركها تنزل لتلتحق برفيقاتها، غادر المكان وأذان المغرب يتردد في سماء المنامة، هي ذي تستعد لتوديع يوم آخر.



يسأل هاني نفسه.. ما التعريف الدقيق لمعنى الأبوة؟ يريد أن ينزوي هنا في المطعم الإيطالي في فندق الريجنسي ويحظى بوقته الخاص بعيداً عن كل ضجيج خارجي يشوش صفاء ذهنه ويعكر عليه التفكير. لو تتوقف فقط عازفة البيانو الأجنبية الشقراء عن العزف، يفكر الآن في وجهه المحروق النعيس، هناك في دار العجزة يقبع في انتظار مصيره.

انتهى أمره كلياً، الحياة تقصيه عن رقعة اللعب، رقمًا منتهي الصلاحية لا أحد يراهن عليه أو يرغب حتى في الشفقة على حاله.. أثناء زيارته له عدة مرات، لاحظ كيف يقوم الممرض بتغيير تلك القطعة النايلونية المحشوة بالبوليستر القطني، يا لفضاعة رائحتها. المشهد بائس حقاً أن تعجز عن خدمة نفسك.. الممرض يعري السوء المجددة المليئة بالبراز، ويمسح ذل الأيام عن رجل ودع تلك السطوة والنفوان! هذه هي آخرتها يا هذا الرجل الخرب يا.. يا أبي؟!

ما معنى الأبوة؟ أن تنزوج امرأة تحبل منك فتنجب وتكون أباً؟ هكذا ببساطة؟ حتى لو حولت حياة ذريتك لجحيم؟! أهذا هو شكل الأبوة في أبسط تفسير قد تفكر فيه يا هذا العجوز الهرم المثير للشفقة والعاجز عن تنظيف قاذوراته؟ يسيل مخاطه الأنفي أمام زائريه مثل طفل ولا يقوى

على تنظيف نفسه. أبوة خرقاء كيف اختارتها الأقدار والأيام، لم ينجح هذا العجوز في حياته، فاشل في كل شيء. أیظن أن نیران شهوته التي تلاشت منذ زمن حققت له ما يستحق من حلم إنجاب الأبناء؟ زرعهم بالعقد وشتتهم بالمشاكل والقسوة.

تعيسُ صاحب هذا الوجه المشوي.. هو يعرف الآن كيف يستمتع بممارسة تلك الرحمة المزيفة التي يغدقها عليه أثناء زيارته. الشلل النصفي أكل ما تبقى من عافيته، عندما يريد أن يتكلم لا تصدر عنه سوى همهمات مشفرة مصحوبة بلعابه المقزز فوق شفثيه. يتشفى فيه، لكن لا يستطيع أن يكرهه كلياً! على الأقل لا يزال والده البيولوجي من الناحية القانونية والرسمية.

يداه تنتفضان، رخوتان ليستا كسالف عهدهما.. والله كنت جبلاً وهدك ربك يا.. أنت أكثر من مسكين! أخذ يراقب طيفه في استيقاظ الذاكرة المشحونة بالجراح، مرات كثيرة يتمنى لو أن هذا العجوز يلفظ آخر أنفاسه وتنتهي القصة هنا، خلاص كفاية! حال موته ستستدعيه المحكمة من أجل إجراءات الفريضة الشرعية لتقاسم الإرث كما يحصل مع بقية خلق الله. أي إرثٍ هذا؟؟ مطحون لا يملك إلا بيته وليس له راتب تقاعدي، لكثرة الأشغال التي طرد منها، قضت عليه الحياة، ولو يموت أحسن من معاناة عذاباته المتواصلة.

كبار السن في أوروبا عندهم الجرأة الكافية ليختاروا أسلوبًا للموت الرحيم في المستشفيات أو النزول الخاصة، إبرة واحدة في الوريد تنهي معاناة أعوام من المرض والشقاء، لم لا يأخذ واحدة ويربح نفسه. كلما فكر فيه يجده مجرد بقايا إنسان، هناك من يحاول ترميم خرابه المستفحل وإعطائه وقت قصير للحياة فقط بشكل عبثي!

أليس الإنفاق على هؤلاء العواجيز هدر للمال؟ محاولة بعث الحياة في أوصالهم المنتفخة وعظامهم الهشة وقلوبهم الضعيفة شيء لا يبعث على الأمل في شفائهم أو أنهم سيتعافون لكي يصبحوا طاقة منتجة تحرك اقتصاد البلد. يستحقون خيار الموت الرحيم لو.. ضحك في سره قبل أن يقطع عليه نادل المطعم خلوته. طلب منه أن يمهله لحظات. انصرف النادل، عاد يفكر ثانية في مأزق والده، بلغه أن الناس تعيب عليه رمي الوالد في دار العجزة وإهماله. عادة هو لا يكثرث بالقييل والقال من كلام الأقارب، يرى أنهم مجرد ثرثارين يراعون عاداتٍ باليةٍ، يتدخلون فيما لا يعنيهم.

معاول تفكيره تنقب موضوع الإرث الآن، عقارات المنامة ترتفع بجنون ناري، خصوصًا هذه المحاذية للوسط التجاري، عملية حسابية واحدة للمنزل القديم المؤجر على هؤلاء الهنود، تكشف أنه.. خسارة، خسارة تأجير العقار لقاء دنائير معدودات لا يستحق. لا بد من

الاستحواذ على البيت. ما الفرق؟ لطالما كان يضرب أمه ليستولي على بعض مدخراتها من بيع بيض الدجاج والمخللات!
يتذكر.. كانت عندما تتكاثر مشاكلها تشكوه لأحد أحواله. كان مثل برمبل الجاز، مرات كثيرة كان يأتي بتلك الخيزرانة الغليظة التي تأكل من جلده بقسوة! جاءه ذات يوم وهو عند رفاقه في الحي.. يتذكر فقط كيف شده من قميصه حتى تمزقت الياقة، صفعه بقوة ثم سقط أرضاً. الوحش البدين هدد وتوعد بتكرار نفس الدرس لو سرق فلساً من أمه أو من أي أحد. يومها عرف كيف أن هؤلاء البشر يحقدون عليه أو يحاربونه، ولكي لا يهتز أمامهم فلا بد من التعامل معهم بنفس الأسلوب!

لحظتها مسح دم فكه من أثر تلك الصفحة وقرر الانتقام بروح المراهق التي تناول رأسه عليها الريح! كم كانت ذكرى شيطنته متوقدة الغضب وهو ينتظر قدومه، يركب سيارته الأمريكية (شيفروليه) يوقفها عند الباب ويدخل لبيته. لا أحد معه تلك اللحظة غير جرة البنزين وعلبة كبريت ومنتصف الليل ورغبة شريرة وزعت السائل السريع الاشتعال، أيقظ جوعه عود كبريت واحد، أكل وجبته بنهم وحشي! اختفى من المكان مخلقاً وراءه اللهب البرتقالي يحتفل على ذعر الجيران، يستنفرهم الحريق!

الأخبار وصلته اليوم التالي، أن السيارة في حكم المنتهية الصلاحية بعد أن تعشت بها النار، والحال العزيز أعشي عليه وكادت تطفر روحه بمبوط ضغطه المفاجئ. ضحك وضحك وضحك ثم احتفل بزجاجة (أمستيل) مع بعض الأصحاب وهو يسرد تفاصيل قصته البطولية! مرة أخرى ينقطع حبل أفكاره، جواله يرن. تجاهله في غير اكتراث لكن إلحاح المتصل أجبره على الرد:

- آلووو، أهلاً سهام، متى غيرتي رقمك؟
- أترك عنك هذه التفاصيل التافهة، شركات الاتصالات اليوم تبوس يدك حتى تشترك فيها، أحتاجك تساعدني يا هاني.
- اطلبي أي شيء غير الفلوس.
- الله يخليك يا هاني، ألفين دينار فقط، ما أعتقد أنك تعجز عن توفيرها، ساعدتني في مشروع البوتيك فتمم جميلك أو..
- المشروع ينتهي وأخسر، هل ترضاها لي؟
- مشروع مشروع، تدخلين عالم مجهول وتغامرين، عندما كانت أمانة تبيع البيض والمخللات، كانت أشطر منك ألف مرة.
- وكنت أنا من يتستر عليك عندما تسرقها، وأحيان كثيرة كنت أغافل أبي وأفتح لك الباب حتى لا تنام في الشارع مثل عارف، نسيت يا أخي أو أذكرك؟

- خلي عنك هذه الثرثرة الفارغة، متى تقدرين على رد السلفية؟
- طبعاً أستطيع أرد لك فلوسك، لكن أصبر عليّ يا أخي، تذكرت.. خالاك محمد وعباس يعتبان عليك، خالك عبد الله يرقد في السلمانية ولم تزره؟!
- إيه.. هذا الفيل الهرم هاهاهاهاهاها، أربعة ممرضين أتحداك لا يستطيعوا تحريكه من مكانه، أعرف أنه في المستشفى، ولكن يا أختي لا أطيق هذا الحال، يده الطائشة يا ما حفرت الوجع على خدي وعقدت حياتي، الناس تموت من الضغط وهذا الوحش لا يزال حيّاً؟!
- عيب عليك يا هاني، هذا خالك، على الأقل قم بزيارة مجاملة من أجل الشكليات الاجتماعية فقط.
- الكثير منها فارغ بالنسبة لي ولكن.. للمجاملة فقط وإلا فإن هذا الكريه لا يستحق. ماذا عندك أيضاً؟
- عارف أوجع قلبي، الأسبوع الماضي رأيته.. والله كأنه "سنور - قط"، عند حاوية القمامة ..
- لا تفتحي هذه السيرة، المهبول يتخيل أنه بمجرد عودته إلى البيت ستأتي إليه الشرطة وتعتقله وتعيده إلى المستشفى النفسي.
- لو يموت أحسن من هذه العيشة، لكنه يظل أخونا.

- عارف غسلنا أيدينا منه، لماذا تتعاطفين معه الآن؟ أكيد سيتنازل لك عن نصيبه من الإرث عندما يموت الوالد؟
- أحياناً أكره فيك يا هاني نيتك السيئة، هذا كلام بشع، أنا لست أنانية لهذه الدرجة مثلك.
- يا أختي كل هؤلاء الذين يحسنون النية، يصبحون تحت الأقدام، لا يستحقون عندي بصقة! ضعفاء وينتهي أمرهم، هذه الدنيا إن لم تتغدي بخصمك، كن طيباً وأتركه يتعشى بك، ويا لها من غباوة.
- خليني من نصائحك الذهبية، أحتاج المبلغ في أسرع وقت، سأسافر إلى دبي حتى أشتري البضاعة.
- حسناً حسناً لقد أكلتي رأسي، عندما تريدين شيئاً تصبحين ملحاحة ومزعجة، تعالي غداً إلى البيت.
- بيت زوجتك سامية أو الثانية فخرية التي لا تعاشر الناس، لا أدري كيف تتحملها؟ أو لأنك خلاص شممت عفتها وغرقت في عسلها!
- ما عليك منها ولا تتدخلين في حياتي، تعالي عند زوجتي الأولى، أنا لا تنقصني المشاكل.

- خلاص لا تحرق أعصابك، أوه تذكرت لحظة لحظة لا تقفل الخط، أمنا أمس ارتفع عليها الضغط، حبيت أخبرك.
- أنا مشغول يا أختي و.. حسناً هل أخذتها إلى المركز؟
- مراكزنا الصحية تعطيك (PANADOL) ومع السلامة، هاني لا تبخل على أمك، المستشفيات الخاصة تستثمر في أمراضنا وتملاً البلد بإعلاناتها.
- سأرى الموضوع، صدعت لي رأسي يا سهام، مع السلامة، اتركيني في حالي.

عاد ثانية ينسج حول فكرة هذا الأب التعيس.. لماذا لا يموت هكذا ببساطة؟! ما الجدوى من بقاء عجوزٍ مثله؟ بعدها تتحول الأمور إلى شيءٍ لذيذٍ وكامل الدسم له معنى، يستطيع أن يشتري نصيب سهام من الميراث وحتى أمه، وإن لزم الأمر، خداع عارف أو حتى قتله! وسيلعب بعدها كيفما يريد، المنزل سيهدم، ما نفع هذا المكان المتصدع في ذاكرته؟ لطالما كره كل ركنٍ فيه، لا ذكريات حلوة له في المكان غير المزيد من القسوة والمرارة والحزن، إنها فرصة ذهبية، فقط لو يسلم العجوز آخر أنفاسه ويستريح في لحده أو لا يستريح.. من يهتم؟ لا فرق!



كالدودة يتكور على نفسه،
يختبئ وراء الأشجار. نوبة الحراسة على مسئولية حارس أجنبي، لو
اكتشفه.. لا يريد أن يغادر الحديقة، أحياء المنامة مثل الجحيم، يعرِد
فيها الحر ورطوبتها تسلق الأجساد بلا رحمة، لذلك؛ فالخروج ليس واردًا
هذه الليلة، يستطيع تحمل قرص الجوع لكنما الطرد من هذا الاخضرار
سيكون مزعجًا. لا ضير من تركه ينام في الحديقة، ماذا سيفعل لو تُرك
بسلام ها هنا كي ينام فقط؟

من مكانه - حيث يختبئ - عرف بأن الحارس قد دخل إلى حجرته،
أخيرًا يستطيع أن يستوي في جلسته أو يدلك ظهره كي يخفف بعض
أوجاعه. استسلم للنوم، لكن ما بال هذه الاستراحة تنقلب بعد ساعة
لتتحول هكذا كربة الطعم لزجة كالعرق الملتصق بجسده؟

كأنه بين جدران تلك الحجرة الطينية المغروزة في ذاكرته كوتدٍ من
حديد، يتضرع أن يخرج أحدهم من سجنه، لكن ليس هنا غير هاني
يقف على بعد خطوات، كان يهزأ ويضحك منه ثم تشفى.. (الآن سترى
يا شيطان يا مجنون، أخيرًا وقعت! لحظات ويأتيك أبي ولن ينقذك أحد
من غضبه، المسكين دمرت حياته، وجهه محروق يا مجرم، هل ترى؟

هذه.. جرة جاز، وهذه خيشة ندفنك فيها، ثم نحرقك ونفتك من هبلك)!

سأله بصوت مرتعش: لا أصدق.. حقًا تفعلها في أخوك عارف؟ ضحك عاليًا واعترف بأنه لا يستنكر المهمة، صحيح أنه يكره أباه، ولكنه لن يرفض له أمرًا عندما يتعلق بالتخلص من قمامة.. أنت قمامة يا عارف، وهذه الأسرة لا ترحب بك، جلبت عليها العار والقييل والقال، التخلص منك أيسر الحلول.

فقال: تريدوني أن أعترف بماذا؟ خذوني إلى الشرطة وسأعترف بأي شيء يريد به أبي لكن لا..

ضحك ثانية وشره يتصاعد.. يا عارف، قضى الأمر، ما عندك فرصة، أنا لا أتعهد أذيتك يا أخي، ولكني عبد المأمور، أي دفع لي أتعاب المهمة (بيزنس إز بيزنس) ولا تعتقد أن أمي أو سهام سينقدانك، لكنهما ستعرفان بالخبر كما كل المنامة، أن عارف المظلوم الأبله والمشرد، انتابته لوثة في عقله، يعني أعصابه تعطلت في رأسه أكثر مما هي متعطلة أصلًا، فأحرق نفسه! هاهاهاهاهاهاهاها، فكرة عبقرية، أليست كذلك؟

الخطبة التي في بالي أكبر يا غبي، اخرس اخرس يا أبله، الآن قل لي كيف ستنقذك الكتب النافهة التي تقرأها؟! هاهاهاهاها، سيأتي بعد

قليل، أخلص منك ثم.. آههههه، عندي ما يكفي من السائل الجهنمي،
لأنتم منه أيضاً، أنتم الاثنان عقدة عويصة في حياتي.

ثم قام يفرغ جرتة في حماس مجنون ويرشق باب الحجرة الطينية بالجاز،
ويضحك بهيستريا مخيفة تتردد في فضاء من الوحشة والخوف..

الخوف عجل بخروج الحلم من رأسه، كان يطبق على عنقه وأنفاسه،
تكاد روحه تفر من جسده الذي حمي ونضج من الحر، يختنق هنا ولا بد
أن يفر كي يتنفس بعيداً عن كابوسه، أصبح خارج الحديقة ذاهل العينين
لا يدري أين تأخذه قدماه، تحذره أبواق السيارات في حنق، يتخبط على
غير هدى، لا يدري عند أي شارع هو وعلى أي رصيفٍ يتعثر.

لحظات مرت قبل أن يستعيد اتزانها، ها هو معافي ولم يعلق به شيء
من شر هاني، تهدأ أنفاسه أخيراً. يمشي من زقاق إلى آخر وعلى غير
قصدٍ منه أو بدون أن يشعر وجد نفسه عند عتبة بابها، تأخرت حتى
تفتح له، وجد في لهجتها بعض الفضاضة اليابسة:

- هذا أنت؟! ماذا تريد؟ أنا مشغولة الآن تعال في وقت آخر.
- سأموت من الحر، جائع ورأسني تنفجر من الوجع و..
- أنت غبي أو لم.. سامحني يا عارف، لم أقصد، لكن صدقني لا
أستطيع..
- عليك اللعنة، عاهرة مثلك تخجل من الاعتراف أن لديها زبون!

انسحب بهدوء يتساقط في شظاياه وجعًا ونزيفًا من داخله، هكذا تبدو معادن الناس في لحظات الحسم، يبهر بريقهم المزيف الأبصار ثم تكتشف عفونة ما يجثون من نوايا. ليل المنامة يحاصر الروح تعبًا ويمتص الفرح الشحيح من نفسه المنفية، خطواته غير متعجلة، ولم العجلة؟ أيلهث هو خلف شيء من ماديات الحياة؟ كما تفعل منصوره، مثل عنكبوت الأرملة السوداء، تستلذ بالذكر القوي الذي يعجبها ثم تنشب فيه سمها الفتاك وتستأنف طمعها الناري الضاري بغيره المنتظر حتفه!

*** **

كأن الطريق تاهت معاملته منه فجأة، طريق ملئ بالشوك، لا يقين له وهو يمشي مخترقًا تعرجاته، ما لهذا القلب مشحون بالحزن لا يبرأ، لكنه الآن.. لن يستسلم لحزنه، هؤلاء الذين يسيئون إليه مجرد أقزام متطفلة تعمل على تخريب فرحه الداخلي الذي لا يُهزم، هذا هو المهم، ليكن في خلايا النفس وفي أعمق نقطة من البدن، روحًا وثابة، فرحها لا يُهزم أو ينال منه طارئ.

هي عصية الهزيمة، تنهض من رمادها. هاني، منصوره، وكل التافهين، مجرد دمي في كف الحياة، تسيرهم مصالحهم الوسخة الآنية، ولكنه شامخ النفس ها هنا يتفرج على طبائع حيواتهم الاستهلاكية، معبودهم الدينار والدولار، لا يتحررون من رقهم، يقبعون في طابور المادة الفانية. ها هو

يستمر في التفرج عليهم، يمرون في مخيلته، وجوه يزداد تورطها في الطمع والخيانة والفحش والكذب.

ها هو ذا، بيت خرب يقدم له دعوة مجانية بلا من أو أذى، يدخل بغية قضاء الليلة، هنا كل شيء محطم والقمامة تملأ المكان وقطة تلعب على الأرض لتغري رفيقها، ذكرته بمنصورة التي تفاخر بعهرها، ذات مرة أخبرته أنها في لحظات النشوة، تطلب من زبائنها بأن تركب ظهورهم، فهي على حد قولها.. تجد أن الأمر ممتع، هؤلاء جاءوا محروقين بشهوتهم، وعندما يحترق الشيء يصبح سهل التطويع، فيحلوا لها ركوبهم وكأنهم حمير! تستمتع هي بذلك، وتجده أحسن انتقام لكرامتها التي تورطت في الحرام!

القط ضخم البنية أما القطة فبدت هزيلة تنوء تحت ثقله، وهو يموء بانزعاج محققاً فيه كأنما هو غير مرحب بالزائر الآدمي في هذه اللحظات الفاصلة. حمل حصة وصوبها نحوهما. تبدو له الآن منصورة وهي ترتدي روح القطة الشهوانية الوسخة التي تستدرج الرجال.. بل هم نكرات لا أكثر!

طرح حقيبتيه وأخذ يبحث عن أنسب بقعة حتى يريح شقاء روحه. هنا حوض أسمنتي وحنفية، يا للمفاجأة مياه متوفرة في بيت خرب! مرات

كثيرة لا يجد هذه النعمة في البيوت الخربة التي يتردد عليها. في الحال، خلع أسماله البالية واستحمَّ ليهرب من حريق الحر والرطوبة.

شعور من الراحة والانتعاش يغمرانه، لكن الجوع لا شيء يسكته غير الطعام، تعلن معدته أصوات احتجاج لا يهتمل سماعها، لبس ثيابه وخرج ثانية كي يواجه ليل المنامة، ها هو جيبه الأيمن فارغ والحقيبة كذلك، لكن الجيب الأيسر يحوى.. ديناراً، دينار من كرم منصوره العاهرة. يزهو هذا الدينار مستفزاً جوعه الآن ويعلن تحديه السافر، كأنما يرقص في وجهه كي يغيبض كبريائه المجروح، أطلق صرخته الغاضبة ومزقه أشلاء.

ثم قرر أن يعود أدراجه لمكانه، سيتحمل جوع هذه الليلة لكنه هيهات يذل نفسه لتلك الفاسقة ويأكل من مالها المدنس، اختلط بقادورات أشباه الرجال، شياطين لذتها الأندال. وجد نفسه محاصراً ها هنا في سجن نفسه، تظهر أمامه الآن، تتدفق ضحكاتها المائعة تحصد انتصاراً ما أو.. هاتفه يرن، الشاشة الإلكترونية لا تعلن هوية المتصل، أصلاً هو لم يكن مرحباً بهذه التكنولوجيا..

- آلو، نعم.

- أنا أخوك هاني، أين أنت الآن؟

- أينما أكون، حتى لو كنت في (جوانتانامو)، ما دخلك؟ أتركني في حالي وكف عني شرك، رفيقتك منصوره فضحتك، هكذا تفعل بي يا هاني؟!

- منحرفة ومنحطة لعبت بأفكارك يا أخي، أنت مثقف وتفهم، هذه عاهرة وتريد إشعال الفتنة بيني وبينك، تصدقها وتكذب أخوك؟!

دارت في رأسه أكثر من فكرة تشوش تركيزه.. لا يتصل في هذا التوقيت إلا لأنه يريد إنفاذ خطته الخبيثة، هاني ماكر ويعرف كيف يراوغ ومن أي زاوية يرمي حربة صيده، لو يحلف بأقدس الأشياء، كاذب ويرتدي ألف قناع.

- عارف، الله يخليك، أنا أتكلم معك، رد عليّ.. قلت لك أي أريد مصلحتك، غريب أمرك! سأوفر لك وظيفة مريحة، ما رأيك بالإشراف على عامل آسيوي عندي، يبيع في دكان خضرة؟ ولك مائتين دينار كل شهر وتسكن في شقة مؤثثة وبالجمان.

- عندك مصلحة في الموضوع، تظني أبلهًا، أأنت كذلك؟
- أوهامك هذه ستضيعك، تشعر بالاضطهاد وكل الناس تحاربك تكرهك تستقدر منك، استيقظ يا عارف، أنا بالفعل عندي مصلحة، مصلحتي أن تكف عن هذيانك وتصير آدمي مثل كل

الناس. من شارع لشارع ومن مكب قمامة إلى رصيف، تتسول وتتسكع، أنا سافرت أوروبا ولم أر مشردين يحملون ذات أوصافك الجينية، عارف، اعقل واسمع كلامي.

- أترك هذا المجنون في حاله، أنا لا أحتاجك، حياتي هكذا جنة من الحرية وتعجبي يا أخي، ارتاح واجمع أموالك وانشغل باستثماراتك ولا تشغل رأسك معي بلا فائدة. يوماً ما، إذا وجدتني جثة هامدة في ثلاجة مستشفى السلمانية، تكرم عليّ بنقلي للمقبرة واعترف بي أمام الناس أني شقيقك من لحمك ودمك، وانصب لي مآثم عزاء كي ترتاح نفسي المعذبة.

- انتهيت من نواحيك التعبان الـ.. عارف، إذا اتصلت بك منصوره وأخطأت في حقك، أخبرني وأنا آخذ لك حقك منها لكن.. عندي مكاملة مهمة سأتصل في وقت آخر، مع السلامة.

تحيطه جدران البيت الخرب، ها هو أمامه السماء مفتوحة، كأنما هو أحد هذه الشهب المنفلتة في الفضاء، تسلك طريقها نحو الغلاف الجوي لكوكب الأرض تقترب وتقترب ثم تتلاشى احتراقاً في منتصف رحلتها.. لم هو هنا لا يزال في وقفته العبيثة مثل الفزاعة؟ روح الفزاعة تتلبسه ولا يتخلص منها، هي ظلّه حينما يمشي ويأكل ويتكلم ويتألم أو يبكي في

لحظات العجز والقهر، وتحاصره الأقسام متجرئة على إنسانيته، تذيقه خسارات جديدة لتتحول إلى رماحٍ في الخاصرة.

قرفص في جلسته متكوراً على بؤسه، يحاول الهرب من هواجسه. هياً لجسده المتعب مكاناً لينام، بسط على التراب خرقة أخرجها من حقيبته، جمع تحت رأسه شتات أفكاره وتوسد أوجاعه، طرد كل الأقسام والشياطين المتضاحكة أمام عينيه، أسدل ستار فرجتهم المجانية وبصق في وجوههم، لكن الأرق اقتحم الخشبة وأعاد فتح الأضواء وارتجل حضوره الصامت بكل تبجح، فكيف له الآن الاستسلام لنوم لا يأتي، مع أنه الشيء الوحيد المتاح، كهديّة موت مؤقت للفرار من قبح الحياة وآلامها؟

لا يستطيع شيئاً حيال الأرق، مرت الساعات وهو هنا مفتوح العينين يحدق في سماءٍ اغتسلت نجومها بندى الفجر، مصحوباً بأذان الصبح، يوقظ النائمين، معلناً انقضاء ليل المنامة، لا يتصالح معه ولا يحبه أحياناً.

لكنما أذان الحاج غلوم من مسجد المهزوع والذي يحبه كثيراً يغيب الآن، صوت هذا المؤذن الشيخ يشيع طمأنينة غريبة في روحه القلقة، ينتزعه من عذاباته، شيءٌ ما يغادر خارجاً من جسده، هناك شخص آخر يقف عنده يشاهده! لا يعرف كيف يتصرف غير التوجه للمسجد.

عند المكان يستطيع فعل شيءٍ ما، شيء ولو كان صغيراً، لكنه حتماً يعالج الجوع، لقمة مبيتة كحسنة من أحد المصلين، أو بعض النقود، المنامة تستيقظ مبكراً، صحن "باقلاء - فول" سيفي بالغرض، قام من مكانه، ولملم حاجياته البسيطة يمشي دروبه المتعبة من جديد.



سيارات الشحن القادمة من الميناء تصل تباعاً إلى وسط سوق
 المنامة محملة بمختلف أنواع البضائع، مخازن ودكاكين وحمالين وحركة
 الناس، خليط من الأجناس، يمشي في هذا النهار المتوسط الحرارة، رفع
 قبعته وعصر قماشها الكالح من عرق الطريق، تفرج صامتاً على ما
 حوله، لا يسعه الآن ممارسة هذا الفضول الصباحي، يفضل الذهاب إلى
 الحديقة. رائحة الباقلاء لذيدة، ولكن منظر الخباز البنغالي - الذي كان
 يمسك ملعقة كبيرة يحرك بها الطبخة وباليد الأخرى ينظف أنفه بطريقة
 مقززة - جعله يستتكف عن الأكل، فانسحب من أمام الخباز.

زكية.. شيء ما يرقص في داخله، شيء تفسيره الآن صعب وهو
 على وشك أن يتحول إلى شظايا ألعاب نارية، لا يدري من أين تجيء في
 إحساسه المتردد، يخلو من منغصات كريمة تعودها، زكية لها حكاية تطلع
 من صفحات كتابٍ تستأنس به الروح، هي شبيهة غصن ليمون،
 عصارتها الطازجة تنعش بشرة راحة اليد، قد تكون رجعت تنصب في
 وجه القدر صرخة تحدي بأنها لن تستسلم.

وها هي ذي هنا.. في مكانها المعتاد عند الحديقة تفتش الرصيف
 وتعاند قدرها مع الأشياء البسيطة التي تبيعها، رائحة الذرة المسلوقة

تعلن نفسها للمارة، قبل أن يعبر الشارع تريت قليلاً حتى ينصرف آخر زبون لديها، ثم جاءها يمشي وقد بدأ يهرش لحيته الكثة، الرائحة تخترق مسامات جوعه، هذا البطن عدو لا يهدأ ويرمي صاحبه في التهلكة! يأمل منها أن تبادر و.. لم يكن راغباً أن ترى شفقة الطلب والاستجداء المتسربين من وجهه المتعب وعينين فيهما توسل الجائع المتورط، منصور الملعونة علمته درساً قاسياً، من الحماقة تكرار الدرس مرتين، هكذا تخرج بالكاد من حفرة ثم تسقط في أختها!

مقايسة الهاتف بوجبة معتبرة أفضل خيار لإسكات الجوع، فكرة في التوقيت المناسب وليس هذا بجنون، حينما يتخلص من هذه القطعة البلاستيكية الإلكترونية النافهة، فلا هاني ولا فتاته الفاسقة، لا أحد يطارده. يتوقف عندها وكانت تعد بعض قطع النقود المعدنية، ملامحها تكتسي بقنوط وصمت مخنوق، رفعت رأسها..

- أهلاً وسهلاً تفضل، عندنا ذرة حارة وبالزبدة و.. هذا أنت يا عارف؟ كيف حالك؟ أخبارك؟
- زكية، لا تعرفين كيف يصبح هذا المكان بدونك، تركتي خلفك فراغاً لم يملأه أحد، طالبات المدارس هنا تتساءلن عنك، نعم أنا أعرف.

- اجلس يا عارف، خلّ عنك هذا الكلام، في هذه الدنيا من يهتم
أو يسأل عن أحد؟! ما هذا؟

- هاتف جوال، أعتقد أنه يصلح للمقايضة، خذيه واعطيني..

- عارف، خذ وجبتك مني بلا مقابل، لا تخرج نفسك هكذا.

تفوق في فقااعة صمته، يشهد ذلك التصميم في نظرة عينيها، كأنما
تحاول منعه من حفرة ضعفٍ وقع في حصارها، لكن مرارة ما حصل مع
منصورة، تغرس المزيد من أنصال الألم في خاصرته، تريد أن تتصدق
عليه؟! تبًا لها من صدقة، أصلًا هو يكره نفسه حينما يتحول لموضع
شفقة الآخرين، كأن شيئًا يتحرر من جلده، يضحك على ذله ويسخر
منه.

- كلكم هكذا.. تعاملوني على أنني عاجز محطم يستحق الشفقة،
أنا.. زكية خذي الهاتف واعطيني أي شيء يؤكل، رأسي تدور
بفعل الجوع.

- مشكلتك أنك لا تعرف من يضرك ومن ينفحك، تريد الصراحة؟
نعم أنت عاجز يا عارف. تركت الناس تتفرج عليك وأنت
تضعف أمامهم، أنا ما نسيت مجموعة المراهقين الذين اعتدوا
عليك هنا في الحديقة.

- حسنًا.. سأبحث عن مكان آخر أجد فيه وجبة طعام تسد جوعي وبلا نصائح، رحم الله والديك، مع السلامة.
- عارف، هروبك هكذا لا يحل مشاكلك.
- ما أدراك عن مشاكلي، خلاص لا أشعر بالجوع، شبعت من كلامك يا زكية.

عدل من وضعية حقيبته الرثة على كتفه الأيمن ورفع وجهه نحو صخب المنامة، لم يلتفت خلفه ثم مشى مبتعدًا، لكن داخله أصبح داميًا أكثر أو ربما مبعثرًا أكثر مما مضى. إلى أين يهيم في هذه الشوارع؟ لم يكن يعرف أين يمكن أن يغسل كل هذه الأحزان المتراكمة التي ما عاد يحتمل ثقلها على صدره المليء بثقوب التعاسة.

دقائق حتى وصل إلى الشارع الملاصق لجامع المهزع، اللعنة على هذا، الفردة اليمنى ها انقطعت مجددًا، صعبٌ ترقيعها للمرة الثالثة، صعبٌ المشي على أسفلت الشارع، تلهبه الشمس بتدفق متواصل من الحرارة الضارية. اختار الجلوس عند جدار الجامع، يحاول إنعاش الفردة، لكن بلا جدوى.. حمله في محيط الشارع متململاً ووجهه يتصبب عرقًا، جدران معدته تكاد تأكل نفسها من الجوع!

فجأة تعالت الأصوات في الشارع، ها هي القبضات ترتفع بتلويحات غاضبة وسيل من الحناجر البشرية تتهف للحرية، تتدفق الناس من كل

الشوارع والأزقة، كل أحلامهم تجتمع هنا وكذا غضبهم وقهرهم المتراكم في التظاهرة، ما همهم شيء، خرجوا متحدين خوفاً. راقب الحشد المتزايد أمامه وهو يفور بالغضب والحماس، الانسحاب من المكان أفضل، رائحة البيض الفاسد للغازات المسيلة للدموع والسامة جربها مرات عديدة ووقع في مصيدها الخائفة، سيبحث لنفسه عن مكان آخر، لا ناقة ولا جمل له فيما يحدث هنا.

في مدخل الزقاق، وجد أمامه قامة متوسطة الطول، تعطيه قفاها، تحمل بعض الحاجيات، فكرة مساعدة الرجل ستكون أفضل من التسول، هذه خبرة جيدة في التعامل مع بساطة الناس في المنامة، قد يعرض هذا الأخير مبلغاً من المال على سبيل اللطافة أو المجاملة أو..

- حجي حجي، أساعدك إن احتجت، أغراضك أكيد ثقيلة عليك في هذا الجو الحار.

- عارف.. عارف، والله إنك مثل العفريد..، تعال ادخل البيت قبل أن تهاجم شرطة الشغب المظاهرة.

- هذا أنت! شكراً حاج محمد غلوم، والله ما عرفتك، خسرت وزناً ليس بالقليل. عساك بخير؟

أضواء مساحة الشقة الصغيرة التي تفوح منها روائح غريبة، بدت كأنها روائح المرض أو النهاية الحتمية التي تثقل آخر أيام رجلٍ وحيدٍ لا أحد

يسأل عنه أو يفترقه على أقل تقدير، الحاج غلوم فطن لما يدور في ذهن عارف..

- يا ولدي الرائحة كريهة بعض الشيء، لا أحد هنا معي فينظف المكان وصحتي على قدر الحال، اترك الأغراض عندك هنا، اجلس يا عارف واعتبر نفسك في بيتك، أنا أبحث عنك ولا أعرف لك أرضاً. كيف هي أحوالك في هذه الدنيا؟
- أعيش وأمشي وأترنح في هذا الشارع أو على هذا الرصيف، أجوع وأتعب و.. لكني في النهاية أعيش يا حاج.
- عارف، أنت عملت فيّ معروفًا، أخبروني أنك أنت من بادر إلى إنقاذي، رحم الله والديك.

- كنت يا حاج بين الحياة والموت، هل أتفرج عليك؟!
قام من مكانه فرتب بعض الأغراض، أفرغ كيس السكر في مستوعب بلاستيكي، وضع أبريقًا قديمًا فوق الفرن، جلب بعض البسكويت المدهون بكريمة الفانيليا في صحن خزفي صغير مع بعض حبات التين المجفف، وانهمك في تحضير الإفطار. وها هي الصينية عامرة بالخير، ملعونٌ هذا الجوع، الحاج غلوم شيخ طيب القلب، بشوش الوجه كأنه من عالم آخر!

هنا يقطن في شقة متواضعة التأثيث، زاهدة في بساطتها مثل صاحبها، جدران مطلية بلون حليبي قديم ومتقشر في بعض الزوايا مع تصدعات أحدثها الزمن، تلفاز مزود بصندوق خشبي مستعار، بعض الملابس المهملة على بلاط الصالة، وهذا عصفور كناري يفصح عن وجوده بغناء منفرد وسط قفص حديدي عند الباب الخارجي. يرجع الحاج حاملاً أبريق الشاي وقد فتح المذياع على راديو مونت كارلو وهو يبتسم.

- هيا يا عارف، اذكر اسم الله، وشاركني الإفطار، اسمع تغريد العصفور كم هو مميز اليوم لأنك معي، والله إني تمر عليّ أيام طويلة من الصمت لا يعلم بحالي إلا وجهه تعالى، وجدت سلوى روعي في هذا الملون اللطيف.
- أغناك الله يا حاج غلوم، صحتك الآن أحسن؟
- الطاولة قربك، أدوية من كل مكان، كل مرة يبدلوها، الثوب المرقعة هيهات تعود إلى زهوها، بياض هذه اللحية علمني الكثير من تعب الدنيا يا ولدي. هاك انظر إلى يدي، هزيلة، أليس كذلك؟
- عافاك الله، ولا تيأس من رحمته، كل الناس تمرض ..

- وتموت أيضاً هههههههه، يا عارف دعنا نهنأ بالفطور الله يهديك،
لكن تدري؟ أبي يرحمه الله مات بمرض القلب وأنا في صغري لم
أكمل العاشرة من عمري، لا تتفاجأ إن سمعت أن الحاج غلوم
مات بنفس المرض ههههههههه اضحك يا عارف ولا تفكر في هم
الدنيا. يا ربي، لقد نسيت الخبز في المطبخ.

قام ثانية وها هو يتعب نفسه ويحاول أن يكون حيويًا في حركته، كان
من الواضح أنه مريض، يروض وحشًا ما يجهز على بدنه الضعيف. الآن
ها هي غيومًا كثيرة من الحزن تتبدد من سمائه، تأمل مصائب الناس خير
دواء لمصائب الواحد منا، يهز رأسه عارف، فيقع بصره على صورة
فوتوغرافية، يحيط بها برواز مذهب باهت، يتألق فيها شاب لا يزيد
عمره عن الثلاثين، هناك تشابه واضح جدًّا، لكن لماذا يعيش الحاج
غلوم وحيدًا؟! كثيرون هم هؤلاء الذين يعيشون الوحدة، أوجاعهم
صامتة، يفشون ابتسامة حب في وجه الحياة المتوحشة في الخارج، قلوبهم
تتحمل عبء الحزن وتمتص كما الإسفنج تراكم الأوجاع بصبرٍ نيبيل.

لكن هو يعرف.. كل هذا يخلف مرارة عميقة تنخر في الداخل بلا
هوادة، الحزن حينئذٍ يتحول إلى شيء أليف يعتاد المرء رفقته، فلا يلتفت
إلى رؤيته في صفحة المرأة ويعتقد رغم ذلك أنه بخير! (أدولف هتلر) في
بواكير شبابه انصهر بقضية شعبه وآمن بأفكار كثيرة متطرفة، غير أنه

عندما وصل للسلطة نسي أنه مجرد هيكل فارغ، تفتح من داخله الأحزان، والساعة التي أيقن فيها أن لا مهرب من مشنقة حزنه المريض، ولما أيقن اللحظة التي اصطاد فيها حزنه، قرر أن يشدد قبضته على أنفاس هذا الشيء الهلامي الساكن في روحه ويطلق رصاصة الخلاص نحو هروب لا يعرف سوى المجهول.

النتيجة أنه لا أحد يعرف سر السعادة أو حتى من أين يجيء الحزن؟! ولو قبض ذلك لإنسان ما على مر الأزمان، لاحتفظ بالسر معه حتى يقبر! كل هؤلاء الذين يفلسفون وينظرون، خبروا جزءاً يسيراً من الحياة، وغاب عنهم الكثير، ليس بالضرورة أن يكونوا قد شقوا بطن السر الحياتي العصي، ومن ثم فهموا كيمياء الحزن وكيف تمطر مياهاها في نفوس المتعبين والمساكين.

الحاج غلوم.. يحاول مراوغة حزنه، أي تحايل على الحزن تعرفه نفوسنا، الأمر أشبه بمراة بالغة الصفاء تقبع هناك في روحي وروحك، تخبر المرء عن رؤية واضحة بلا تشويش، تبرز في زواياها أصغر التفاصيل، عندئذ؛ لا شيء سوى الخجل ترتدي أقمصته في لحظة التجلي النفسي الذي يتلبسنا، فيدركنا عري آخر نتذوق هزيمته، ونتقبله بدبلوماسية منافقة لا أكثر.

حضر الحاج غلوم وابتسامة طيبة تملو وجهه..

- مد يدك واذكر اسم الله، والله؛ إن وجودك معي يؤنس وحدتي،
يا عارف، الوحدة صعبة على شايب مثلي. هل تصدق لو قلت
لك أنني أحياناً أرى أناسا يجمون حولي؟، أقابل جدران أربعة
طوال النهار، فيرتبك عقلي.

- أعانك الله. الواحد هكذا أحسن، الاقتراب من الناس لا شيء
وراءه إلا المشاكل.

- لا يا ولدي.. الوحدة لا تجوز إلا لله تعالى، نحن بشر، أمس لما
شعرت بالشقة تضيق عليّ خرجت، ارتاحت نفسي في خضرة
الحديقة، جربت أكل الذرة المسلوقة من عند فتاة فقيرة
وبشوشة.

- المهم، أنك غيرت جو الشقة يا حاج غلوم.

- وتعرفت على هذه الفتاة الطيبة، تكلمت معها ونسيت أسألها
عن اسمها، تصدق؟

دخل في أعماقه وها نفسه تضطرب.. إحساس مبالغت يقتحم
هدوءه الآن، شيء يدب تحت جلده ويحدثه أن الحاج غلوم ربما يفكر في
اتخاذ زكية كزوجة. كل حديث الرجل عن الوحدة والسأم، واضح أنه
يضع خطة ما. أو ربما.. الحاج غلوم ليس من هذا النوع الذي يطمع في

زوجة أخرى، هو قانع بحاله وينتظر انقضاء الأجل، يتصالح مع وحدته وإن شكاهها.

ثم ما هو عيب الوحدة بالنسبة لعجوز مثل الحاج غلوم، من هم في مثل سنه الآن يتوكأون على العصي المعدنية أو فوق كراسي متحركة تحت رحمة الخدم، هو هكذا أفضل حالاً من غيره وليترك زكية لحالها. زكية هذه قصيدة نصف مكتملة، رائحة حبرها يتوارى فيها السر العصي على البوح! لهجتها قاسية قليلاً، ولكن هذه الحدة المبهرة بفلفل كلماتها بين وقتٍ وآخر تعجبه، عندها كبرياء الفتاة العربية التي لا تقدم نفسها لقمة سائغة لكل من هب ودب، تعنز بنفسها رغم انهزامها الظاهري في طاحونة الحياة، يعرف الآن أن عليه الاعتراف فقط بأن له قلب مثل أي إنسان لا بد يوماً ما أن يتمرد فيعلن تلك الرقصة المشتبهة لرائحة الأنثى.

تتنفض كل أوردته وكرياتة الحمراء وعصارات جسمه وعضلاته تصرخ طلباً لتلك المتهادية في غوايتها، تأتي مثل حورية الحكايات في منام الفتى، قلبه راعش الجوف ما هو بججر. ربما هاني محق حينما قال له: (متى ستصير بني آدم مثل الناس!؟).

رغم مكره ونفسه الشريرة، إلا أنه صادق في كلمته، تنزل مثل لقمة متعسرة البلع، هو يدرك رثاثة الحال التي وصل إليها، مرات كثيرة يلعن

حياته التعيسة، لولا أن الانتحار سقوط في هاوية المهزومين الذين اختاروا التوقف عن عبور منتصف أزقتهم المعتمة، لكان اختار فكرة الحبل وترك خياله أي مكان يصلح لوداع هذه الدنيا ولتأخذه زبانية الجحيم أنى تشاء، سيرحب بموته وهو مبتسم! لكنه.. رجح في خياله أن هناك مساحة أخرى من النفق لا بد من اجتيازها مهما كانت الظلمة.

كل هؤلاء الحمقى الذين يختارون الانسحاب من الحياة، يتوهمون الخلاص وبلوغ ضفة أخرى يتخيلون الوصول إليها. الجنود اليابانيون أثناء الحرب العالمية الثانية في جبهات القتال، كانوا ينسفون أنفسهم بالقنابل لكي لا يقعون في أسر أعدائهم، أي ولاء أعمى ينتهي بهذا الحبل المربيع؟، أمن أجل كل الطغاة الذين يؤهون أنفسهم على حساب خلق الله؟!

هو لن ينسف عمره، كلما طاردته تلك الأفكار السوداء الشوكية الكريهة. الحاج غلوم ربما يسلي نفسه بالحديث عن غيره بهذه النبوة. عله تمنى لو أنه أنجب فتاة تعينه وتحن عليه في شيخوخته، حينما امتدح طيبة زكية. أجل فما يحصل هنا شيء ناقص يحاصر روح أي إنسان تغرق في عطش الحاجة، مسكين يا حاج غلوم، طحن العمر يلقيك على طريق وعر تمشيه وحيداً، تعالج فيه أوجاعك بمر الصبر فلا تعود تعرف نفسك حينما تتفقد ما سقط من ذاكرتك، تعلق صورة هذا الابن ذي الابتسامة

المحنة في الإطار العتيق، لا يعطي أي معنى صادق، الأشياء تتغير طالما
دورة الحياة تواصل حراكها.

- يا عارف، ديانا فيها كل أشكال الظلم، كسب الرزق بأية
طريقة ما دامت شريفة ليس عيباً، ولكن هذه المسكينة تعاني
الكثير، أنا أتوقع هذا! هل تعرفها؟
- من تقصد؟

- بائعة الذرة المسلوقة، قد تكون مررت بها أو..
- أنا أصلاً لا أمر من تلك الناحية، يا حاج غلوم، أترك عنك
هذه القصة. الإفطار لذيذ حقاً، أأأ أعتقد أنني سأخذ مكعب
جين آخر.

- عارف، لا تخجل مني، العلبة بما فيها لك، تدبر نفسك بها
عندما تجوع. هل ستذهب بهذه السرعة؟ والله أنستني يا ولدي،
متى ما احتجت شيء، تعرف بيتي.
- شكراً شكراً، مع السلامة.

تفقد الشارع يمينا ثم يساراً.. الحركة طبيعية، واضح أن المتظاهرين
تفرقوا بسلام، مضى نحو الأزقة الضيقة التي يعرفها، لكن لا يدري
الآن.. ماذا دهاه كي يغرق هكذا في خيال زكية، تعود لتطرق ذاكرته؟
أصبح يخاف من نفسه، الآن لا يستطيع الهرب، ما أعجب خفقان

القلب حينما تتدفق إليه مشاعر الحنين فتهمز كل هواجس الهذيان الذي يخطف اطمئنانه! يسامحها في داخله ويهديها مقاعد وثيرة في قلبه. الفكرة تشاغبه الآن، صوت يهتف من بعيد، أن يفعلها ولا يتأخر. زكية لا بد أن تتغير وسوف تنطلق إلى سماءات أخرى، روح التحدي التي تعيش في داخلها جديدة بهذا الاختبار.

إن تخلت ولو قليلاً عن بعض عنادها، ستكون المهمة سهلة عليه. هذا سيكون رائعاً، ينجز مهمة إنسانية قد وطد نفسه على القيام بها، فقط عليه أن يعرف اتجاه الزاوية الصحيحة التي تجعل زكية تسمع كلامه. المرأة لا شك أن عندها نقطة محددة تستجيب بواسطتها. ابتسم وهو يعرف كيف يبدأ أول خطوة، ألم يقولوا: أن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة! حسناً.. ها ميدان التحدي ينتظر كل من يملك جرأة المبادرة وعزيمة الإرادة، سيختبر نفسه الآن، وبالتعب سيتحول التراب إلى ذهب!

*** **

على عكس ما توقع، ردت عليه وهي تحاول أن تحبس نصف ابتسامتها، كأنها تتهكم من نفسها أو تراوغ..

- تسألني عن القراءة؟! أي فتاة في مثل عمري تعرف تقرأ، هذه لا تحتاج إلى جواب أصلاً!

- زكية بصراحة يعني.. أشك أنك لا تعرفين.

- عارف، لو سمحت لا تغلط.

نظر في عينيها محاولاً اصطیاد بادرة حرج أو ارتباك ظاهري يكشف كذب ما تدعي، لكنها هذه المرة تراخت في تقمص دورها، فسقطت عند عتبة هروبها وآثرت ترك الجرح ينزف، كي يرمي قيحه القديم المحبوس..

- لما أعطيتني المجلات، تتذكر أني قلت لك، سأقرأها في البيت.

كنت أ.. أكذب حتى لا يكشف أحد..

- زكية أنت مثلي ضعيفة من الداخل لكن الفرق أنك لا تظهرين

ضعفك حتى لا ينال منك أحد.

-

تأمل صمتها المفاجئ، كيف تسكت الآن؟! كأنها إنسان مختلف،

لكن هذا بالضبط ما يريدُه الآن، أليس من الجيد بالنسبة له أن تعترف

هي بضعفها أمامه؟؟

ما بال الناس تخشى الاعتراف بالجانب الأضعف في دواخلها؟ تكوين

البشر في النهاية يعتره الوهن مهما يبلغ من شأن وقوة، أي شيء ينال

منه الزمن، ما من أحد يمر من بوابة الزمن بلا ضريبة؟!

- فقط قولي لي أنك مستعدة وسأعلمك القراءة والكتابة، العلم نور يبدد ظلمات ما نجعل، أنت يا زكية تستحقين الأفضل، لن نتحاجي فتيات الإعدادي كي تقرأن لك الرسائل وإنذارات الإيجار.

- أنت كيف تعرف؟! والله أنت متفائل أكثر من اللازم، هذا الكلام لا ينفع معي، انس الموضوع.

- زكية، هذه جريدة (الحياة) عدد أمس، تنقل هنا خبر عجوز جاوز السبعين قرر مواصلة دراسته وسجل في الجامعة، ها؟ ما رأيك؟

- مسكين.. واحد خرفان أكيد.

- بالعكس زكية، أنا أحترم مثل هذا الإنسان، عنده إرادة صلبة لا تتزعزع وأعرف أنك أقوى منه!

- أنا لا أسمح لأحد أن يضغط عليّ هكذا، دعني.. دعني أفكر، فأنت تربكني يا أبو أربع عيون!

ضحكا معاً.. بدا أنه الآن يستهل أول العتبات، يتذكر ذات مرة وهو يتحدث مع هاني، دائماً ما كان حديثه مستفزاً لا يطاق. صرخ في وجهه باستخفاف وسأله: هل تعجبك حياتك هكذا متسكع من مكان لمكان؟، ماذا حققت في حياتك العظيمة؟! يتمنى الآن هذه الفرصة،

جمرها يكوي كفه لكن عندما توافق زكية فقط، فسوف يتحدى نفسه،
لا بد أن يفعل، حفر العجز التي استسلم لها، أكلت من عمره وأحلامه،
كل هذا لا بد أن يحترق، ها أمامه مارد على وشك أن يرسل برقه
ورعده!



هذا الحي تتجمع فيه القمامة بشكل غريب، أخذ يتجول من حاويةٍ إلى أخرى، يفتش عن أي شيء يمكن الاستفادة منه. القمامة تفوح روائحها وتحتفل عليها أسراب الذباب وأفواج القطط حتى المساء، فمنذ أن قامت (... ..) بخصخصة خدمات النظافة بالبلدية، حيث دخلت الشركات الاستثمارية، انقلبت الصورة وتحولت إلى.. هكذا تتكوم كل مخلفات المنامة، يهز رأسه ويضحك. يعرف أن مشاهد القمامة هي أحقر شيء تفرزه أجمل عواصم العالم، وهذا هو الجانب الآخر من كل العظمة والأبهة التي تتباهى بها المدن!

ماذا هنا؟ لوحة مفاتيح كومبيوتر، وملابس أطفال مليئة بالإسهال، وبقايا رز بخاري بالدجاج المقلي، ورسائل مخطوطة بلغة غريبة تشبه.. لا يدري أي لغة هذه، يستمر في نبش الحاوية. هنا مقبض نحاسي من ذلك النوع الذي يستخدم في دق حبات الهيل، يصلح للبيع، خبأه في حقيبته. الرائحة لم تعد تُحتمل، نفص عنه بعض الأوساخ التي علقت بقميصه الكالح وغادر المكان.

مشي في هذه الشوارع المزدحمة، مشي وهو يتأمل لهات البشر، مشي وهو يكتشف كيف تسير هذه الحياة، ها أمامه اثنان من الغرباء كلٌّ يغرز

أصابه في عنق الآخر! هو ذا صراع الحياة عندما تسفر عن وجهها الآخر، حيث لا أحد يجامل في العربة أو يتنازل، غابة الحياة التي تلعب فيها الحملان والذئاب، بينهم موثيق غير مكتوبة أن تكون جلاد وضحية في نفس الوقت!

صاحب القميص الأبيض هو من أذعن واستسلم، أليست مفارقة غريبة؟! يحمل هذا الرجل قلب طيب على الأرجح، ربما هو اختار اللون الأبيض لشعور داخلي مبهم بأنه لون الطهارة والتسامح الذي يناسب هؤلاء ممن تكتسي وجوههم بالحزن والبشاشة، كائنات لطيفة لا تؤذي أحداً، تشبهه تماماً. لكن.. وخز الشعور بالعجز أمام الناس، شيء صعب الهضم، هو شيء يجعل المرء تافهاً أمام ذاته أو حتى مسحوق يجعل من أنفه قط عند حاوية قمامة، أحسن حالاً من فزاعة تمشي ولا تخيف أحد أصلاً سوى ظلها!

تباً لهذا الشعور الذي يهاجمه الآن، لم هذه الفزاعة المنتصبة في داخله تباغته هكذا، منتهزةً الفرصة كي تنال منه، لا يجد مفراً منها؟ هي في صحوه وفي منامه مثل كوابيس شقية لا تكف أذيتها. زكية عندما تحدثه تبدو في عينيها تلك النظرة الحادة أحياناً، كأنها تستخف به، نعم يحس بهذا يكويه من العمق، هي طيبة، ولكن للنظرة تفسير آخر. هاني يمارس نظرتة المتبرمة أو المشمئزة، ينسى نفسه أنه ولد الحاج جابر المظلوم،

ذلك العامل البسيط لا أكثر! منصوره هي الأخرى، تتعلك وفي عينيها
خبث يدعي المسكنة والضعف، حينما تنظر إليه كأنها تشفق على حاله
أو تقوم بتزقيع أسمال الفزاعة التي لا تستر شيء من روحه المعذبة العارية
الغارقة في الجحيم.

أشاح بنظره عن الغريبين، صاحب القميص الأبيض ينسحب، هكذا
هم الضعفاء يتعدون مملمين خسائهم أو يتكون خلفهم الأشلاء التي
تساقطت من نزيف أرواحهم الممتحنة في هجير الحياة، ضحك بمرارة،
هو ذا يمشي والريح تعبت بخصلات شعره المنكوش، منتصب القامة
يستطيع هذه اللحظات أن يرحب بموته لو جاء.. ليكن كمثل شجرة
يابسة تستقبل موتها وهي واقفة في وجه قدرها لا يضرها نحر الدود
لجذعها فهي انتهت!

يمشي وها صباح المنامة يشبه كل الصباحات الماضية، تلفت في محيط
الشارع، مآتم بن سلوم يقيم مجلس فاتحة على روح امرأة شابة تتوسط
سبورة خشبية مربعة الشكل، تركوا صورتها مفرغة من أنفاس الحياة بلا
ملامح، ينظر ثم يهز رأسه. صوت المقرئ يصدح بآيات الذكر الحكيم،
في مثل هذه المناسبات يتوافر الطعام المجاني الخفيف، أي شيء يصلح
ليكون ذخيرة في أوقات العسر.

*** **

خطوات فقط تفصله عن الحديقة، لحظات ثم بلغ المكان. زكية في مكانها المعتاد، ولكنها عالققة في مأزق، مفتش البلدية يستمتع بتعذيب المسكينة، كان يصرخ:

- أنتِ تتجاهلين القانون؟ سجلت عليك مخالفة من قبل، البيع في هذا المكان ممنوع ألا تفهمين العربية؟

زكية ترد بلا خوف وهي ترتب بعض الحاجيات، كأنها غير مهتمة بوجود المفتش واقفاً وعلى وجهه نظرة قرف..

- البلدية رفضت تعطيني ترخيصاً، يعني حتى أنفذ قانونكم أموت جوع أو أتسول في المنامة؟

- هيه، أنظري إليّ وأنا أكلمك، أمامك مفتش البلدية و..

- من يعني؟ حتى لو كان أمامي الوزير، لن أسمح لأحد بقطع رزقي، لو سمحت أتركني في حالي، خليني أترزق الله، المنامة مليئة ببسطات الأجانب، تتشطرون على حرمة مثلي فقط، هل هذه رجولة؟!

فجأة جن جنون المفتش ونزل كالإعصار يخرب البسطة! جاء يركض ويعبر تلك الخطوات المتبقية، كان محبطاً ومعبئاً بسخطه وكل عجزه الذي ينوي التخلص منه، لا شيء سيردعه الآن، ها أمامه ذلك المارد المنفجر من داخله يضحك ويشير إليه مستصغراً إياه، لكن ليس هذه

المرة، كل أطياف الخيبة أمامه تحترق الآن، يفتح حقيبتته يتناول المقبض النحاسي الثقيل وها هو هاني في ذاكرته يضحك منه ذات يوم، يصفه بأنه جبان. اللعنة على كل هذه الأطياف المستهزئة الشامتة في وجهه!

هي ذي فرصة تنفيس كل احتقاناته الموجعة التعيسة المؤلمة، ويا شياطين الجحيم تعالي الآن لتشهدي بطش الغضب المتمرد على كل شيء في هذه المدينة ويا هذا المتبجح بزبه الرسمي..

كل جنونه يعربد بنشوة انتصار جاء متأخرًا لكنه يحتفل بالمشهد، دم ينزف من رأسٍ مغدورة، زكية تصرخ مرتاعة.

ها حارس الحديقة يتدخل في التوقيت الحرج، زكية مصدومة بالمشهد، وها هو يستيقظ من ثورة الشيطان في داخله، لحظة شاهد جسدًا ما أمامه مطروحًا أرضًا وهدق في يديه الملوئين بالدم، دفع بالحارس بكل ما أوتي من قوة وانفلت في الشارع يركض.

حتى مع حلول المساء لم تكن عواصفه قد هدأت، ينزوي في بيت خرب، بين الفينة والأخرى يطل على الشارع متفقدًا المكان، عل أحدهم يراقبه أو يبلغ الشرطة عن مكان وجوده. لا يعرف كيف يتعامل مع ارتباك حواسه، مشلول التفكير والطرق أمامه مسدودة، لم يصدق نفسه بعد، ماذا فعل ذلك المارد الأهوج الذي تحرر من القمقم؟ صرخ من أعماقه وأعلنها لحظة جنون فهجم على خيال الفزاعة التي تسكنه

وشرع يمزق خوفها وغربتها وتعاستها، ولكنها لم تغادره.. ماذا فعلت به؟

كان ساخناً ينزف من الرأس الأصلع، تهاوى أمامه الرجل، ولكن من هو؟ لقد أسقط أحدهم أرضاً وغرق في دمه، أي شيطانٍ تلبسه تلك الساعة؟! لكنه.. شيطان رائع، على الأقل أطلق له العنان كي يغضب بكل زخم القوة الخفية المتوارية المعتقلة في جسمه، هذه المرة لم يضطر إلى مهددات غبائه كي يترك الناس تتماذى وتسلبه كرامته وإنسانيته. زكية كانت تتعته بالضعف أمام المراهقين.. هي ذي شاهدت كيف انتهت فاتورة حساب كبتة المحبوس! وكذا حارس الحديقة وبعض المارة ربما، لا يدري من بالضبط كان حاضراً وقت ثورة جنونه اللذيذة، لكن الجميع يعرفون الآن من هو عارف. هو ذا خرج من عالمه المستكين، قرر أن لا يكون مجرد فزاعة تنتصب في فراغ الحياة، قرر أن.. ليكن كما كل الناس تراه. مجرد مجنون وقاتل فعل فعلته في وضح النهار وفر هارباً.. هه لا يبالي.

للحديقة أكثر، قام فوضع بعض الطوب أسفل الباب، أي شيء يصلح لعرقلة من يفكر في تفتيش المكان، قد لا يصمد الباب المهترئ، ولكن لا يوجد مكان آخر يأويه هذه الليلة، يقرفص في صمت وخيال الرجل الذي لم يتبين وجهه وهو يفر من المكان كان يرفع كفه في وجه

المفاجأة، ملوثة بالدم و.. هذا ما تتركه الصور الآن من تشويش، تتناوب هجماتها بلا رحمة، ما أقساه من عذاب!

هل مر الوقت أم كل هذا القلق الذي حشد جيوش الخوف هياً له شيئاً غير ذلك؟ ربما هي غفوة فقط من أثر التعب المتراكم في جسمه، لا تزال قدماه مشدودتين لأي خوف أو طارئٍ قادم نحوه، توجعانه بعد أن استنفر عزمهما وركض بعيداً، اللعنة على هذا الهاتف لا يكف عن... قبل الرد على أي كائنٍ كان، فكر في شبح المتصل، قد يكون.. نعم هو أحدهم ممن يحاول الوصول إليه، مخبر أو شرطي لا يدري. اللعنة على هذا الرنين الموسيقي، ينزل على سمعه إرباكاً، رفع حجراً قربه وأسكت الجهاز بضربة واحدة اثنتين ثلاث، ثم التقط أنفاسه، ما عاد يرغب بهذه الهدية السخيفة من تلك العاهرة منصورة، هي أحد الشياطين الملعونة في قائمته. طلع النهار وبيداً، قد تكون السادسة أو ربما أكثر، اطمأن حركة الزقاق، أطفال يمشون إلى مدارسهم وبعض العمال، متسول عجوز وجهه مألوف ينظف حلقة ثم يشعل سيجارته، امرأة للتو اشترت بعض الخبز الشعبي.. آه، إنه الجوع، وها رائحة الأرزفة الشهية تستنفر إحساسه وتشاكس أنفه، كان لا بد أن يغادر مكانه. البقاء هنا يعني الانتحار جوعاً، هذا الحي قريب من محطة الحافلات العمومية

وسيارات النقل المشترك، أفواج كثيرة من الخلق تدخل المنامة صباحًا، لن يعدم الوسيلة في الحصول على لقمة هناك.

للاحتياط، لثم وجهه بغترة قديمة كانت في حقيبته ومشى. المحطة مزدحمة كالعادة وهذا هدير محركات الديزل والناس تصعد وتنزل تثرثر وتأكل وتتمازح. هناك عند كافيتريا المحطة، بالإمكان تسول شطيرة وكوب شاي بالحليب. دقائق قليلة وجاء الخير، ليس من المهم من يتعطف عليه وما هو شكله، المهم أن تسكت لبعض الوقت هذه المعدة المحتجة. جلس في ركنٍ قصي من المحطة، استعجل لقيماته حتى أنهى إفطاره المتواضع، وكمن يحدث نفسه..

(حتى نعيش لا بد من الخطر، تعالوا وخذوني، لكن لن تصلوا إليّ بسهولة أبدًا)!! (ما أنا هذه الفزاعة التي عهدتموها، تقف مستكينة ومهلهلة في وجه الريح، أنا هنا يا ملاعين أحمل منجلاً في وجه قدري العنيد، مستعد لكم لا أحد يجرب حتى.. إياكم والاقتراب)؟!

فكر فيها الآن مضطراً، المحطة ليست المكان الأمثل، بالأمس فقط حدث كل شيء، الرجل ربما مات. هكذا وجد خطواته تمضي بلا رغبةٍ منه، لكن.. مضطر الآن طرق بابها ومرارة كرهية تصعد في حلقه. جاء صوتها مستفسراً بقرف واضح وقبيح..

- نعم، من عند الباب؟

- أنا..
- من يعني؟ لا أستقبل أحدًا الآن، تعال العصر.
- هذا أنا يا منصور، افتحي الباب الله يخليك.
- ذاكرتك خرفانة يا عارف؟ طردتك آخر مرة، ماذا تريد؟ والله ما عرفت غير المشاكل من ورائك مع أخوك هاني الكلب، الحرامي الـ.
- افتحي الباب يا منصور، أنتِ تغضبين من كل هذه الدنيا، ولكن أنا غير!
- خلاص خلاص، ينقصني بعد تبكي كأنك حرمة.
- أغلقت الباب خلفه ثم أخذت تمضغ علكتها التي لا تفارق فمها محدقة فيه مشمئزة منه، شفاه مرسومة بعناية عليهما علامات التبرم والقرف وعينان غير مرحبتين، فيهما غرور وحقارة، أصبحت سافرة ومتوحشة أكثر من أي وقتٍ مضى. جلست إلى طاولة بلاستيكية أنيقة وعليها شرشف قطني مزخرف ببعض الورد. قشطة وعسل وبيض مقلي وشاي وزيتون، مغرية هذه الجلسة لمن طحن الجوع معدته، فقالت ببرود يعكس عدم ترحيبها:

- حياك، ما تحتاج دعوة مني، لا أستطيع وضع لقمة واحدة في جوفي وأنت واقف بغباء هكذا تحديق فيّ، تعال (انبطن).⁽¹⁾

- أكلت في المحطة من نصف ساعة، شعبان. الله يغنيك يا منصوره.

- هل أنت شعبان؟، ولكن يمكن من أي مكب قمامة؟! الناس لا تفرق بينك وبين (السنانير - القطط).

هكذا صارت لهجتها عدائية وكريهة تجعل الدماء تغلي في عروقه، لكنها الآن أفضل ملجأ مؤقت، الشرطة أكيد تبحث عنه الآن، مليون في المائة لن تترك مكاناً إلا وتجري تحرياتهما، وبعدها يرجع إلى تلك الجدران الجحيمية اللعينة ورجال ضخام البنية يشبتونه على سرير معدني بارد، طالما حقنوه بسوائل غريبة، لا يزال يعتقد أن مفعولها مستمر في تدمير خلايا رأسه المتبقية! لن يمكنهم من إرجاعه إلى هناك، لا، لا، لا. الانتقام من هذه المغرورة لا فائدة منه الآن، يشعر الآن بتراكم التعب في جسده.

- أريد أن أنام، متعب يا منصوره.

- تمام، لا يا حبيبي، أصلاً أنا قبلت بك من قبل لأن أخوك الزفت دفع مبلغاً محترماً، أنت بشكلك القبيح وهذه الفوضى،

(1) كلمة عامية تعني كُمل لا مرحباً بك.

مستحيل أغبي واحدة في العالم كله، لا يمكن تنام معك، ولا
تحلم حتى تضاجعك!

- فهمتيني غلط.. أنا تعبان فقط، أريد أن أنام وحدي، تلك
الحجرة هناك تناسبني، حتى لو لم تشغلي المكيف.
- اذهب اذهب، لا ينقصني وجع رأس من الصباح، أربعين دقيقة
بس وبعدها تعرف طريق الباب، عندي شغل ولست عاطلة
مثلك.

- منصوره، لم تعامليني كأني حشرة؟، على الأقل اعتبريني معرفة
وتقدمين لي خدمة بسيطة لا أريد منك أكثر.
- معرفة؟! معرفة لا تشرف ولا فائدة منها.

رمقته بنظرات أكثر استفزازاً واكتفت بالصمت وهي تأكل. الحجرة
بها مرتبة قطنية وبعض الأشياء المخزنة في علب كارتونية، المرتبة نظيفة،
فارتاح عليها محاولاً النوم، لكن أي راحة هذه هنا، ماذا لو وشت به
منصوره. يعرف كيف تفكر هذه الأفعى، من الخطأ اختيار هذا المكان،
هذه حركة غبية قد يدفع ثمنها غالياً.

ماذا لو... طرق خفيف على الباب الخارجي ربما، هذا أكيد. نهض
من مكانه وزرع عينه اليسرى في ثقب القفل، المفاجأة أنه الحاج مرزوق!

هذا العجوز المتسكع أحد زبائنها؟! ها هو يجلس إلى مائدتها وهي تتغنج أمامه.

- فكرت أمر عليك يا حلوة، كأنك تتوقعين حضوري اليوم، كل هذه الخيرات تنتظرني! (لمس ثديها وهي تأوهت بقبح).
- مثلك يا حاج مرزوق هههههه تدخل و.. تحرق الأخضر واليابس، والله أنت مؤنس، بس لا يكون بعدك تفكر في زكية.
- تركتها ولا شأن لي بها، نفسييتها مريضة مثل صاحبها المجنون عارف، آلوووو ما وصلك الخبر؟
- كل الأخبار عندك يا أبو الأخبار.
- عارف هذا المخبول، اعتدى على مفتش البلدية، المسكين يرقد في السلمانية، لحقوا الرجل قبل ما يذوب مثل الملح.
- عارف معقول..؟! هذا عارف يخاف يقذف حصى على سنور في الشارع، معقول يضـ..
- واحد مجنون متخرج من مستشفى الأعصاب، أو لا تدرين يا منصور، من قبل أشعل ناراً في والده المسكين، ها هو مرمي في دار العجزة.. هذا واحد خطير. أنتم (البحارنة) هكذا تعملون أشياء، البلد صارت مقلوبة أكثر بغضبكم والله يستر.

- يا حاج مرزوق، دعنا نطل أحياناً أحسن، أنا لا شأن لي بالبرلمان ولا حكومة منتخبة ولا تجنيس سياسي ولا شهداء، آخذ بنصيحة هاني الكلب أحسن لي. خذ وقتك عندي على أحسن ما يكون واشبع، ادفع حسابك واذهب! آهههه لا يكون أنك صرت (بلطجي) تشتغل مع..

- أنا يا منصوره تظنين في هذا الظن؟! واحد فقير مثلي أطحن عمري من الصبح، معقول (بلطجي) أنا لا أحب (.....) مثلكم ولكن.. يعني كل واحد (سني) ضروري يصير جاسوس على الشيعة!

- ما أثقلك يا حاج مرزوق، مهلك مهلك لا تأكلني، ماذا بك ولعتها نار؟ المهم خليك من هذا الكلام تعال.

الفاسقة.. توشوش له سرًا ما، مؤكد أخبرته! من الغباء اللجوء إليها، لا فرق بينه الآن وبين فأرٍ في ورطة المصيدة ينتظر حتفه، الإعدام غرقاً في الماء المغلي أو حرقاً (بالكبروسين - الجاز) كما كان يفعل والده عندما تقع بعض الفئران في قبضته، يتسلى بتعذيبها ويتلذذ بسماع أصواتها الحادة وهي تلفظ أنفاسها، خصوصاً عندما يتفقد بعض التلفيات التي تحدثها في البيت، فيجن جنونه، متهمًا الجيران الذين

يصدرون تلك المخلوقات القذرة بسبب قمامتهم! ما عساها تفعل الآن
هذه الملعوننة؟؟

لا يستطيع سماع كلمة واحدة مما تقوله، ولا يستطيع مغادرة الحجرة،
وها هما يبتعدان عن الطاولة ثم يختفيان.. ويجل صمتٌ طويل ومريب.



ضحك ودخان سيجارته يتفرق من منخريه، من وراء طاولة مكتبه

الفخم..

- لا لا يا حبيبي، المواضيع التجارية لا تدار بهذه الطريقة، اسمك جديد في السوق وتحتاج خبرة، طبعًا هذه الخبرة لا أحد مستعد يعطيك إياها بالجمان و.. اسمح لي سأتركك، عندي اتصال ضروري، مع السلامة. نعم نعم تكررين الاتصال وكأن مصيبة حصلت، سهام أنا عندي أشغال ولست متفرغًا لكم.

- ولا حتى متفرغ لأخيك، حتى الآن لا تدري؟ ألم تقرأ الجرائد اليوم؟

- قلت لك من قبل، عارف ليس مني، هل يقبل أحد أن يكون أخوه متشرد ومتسول، كل الأهل نسوه ولا أحد يسأل عنه، لا توجعي رأسك، اتركه في جهنم.

- اعرف أولاً ماذا حصل ثم قرر، عارف من دمنا ولحمنا، وأنت إن لم..

- قلت لك لا أريد أن أتدخل من أجل هذا المخبول، أنا قرأت الخبر، ماذا أفعل؟ هو ورط نفسه ومع من؟ مع موظف حكومي

ومن (السنة)! والبلد لا تتحمل اليوم، يمكن أحد يحول المسألة
لاعتداء طائفي!!

- هاني، هذا أخوك، الشرطة قبضت عليه، يعني.. عليك أن
تنصرف.

- ماذا عليّ أن أفعل، أقنع الناس أن أخي في كامل قواه العقلية؟
- وكّل محامي، استخرج من مستشفى الطب النفسي شهادة تثبت
أن أخوك..

- اللعنة اللعنة.. هو مجنون ومليون في المائة مجنون، لا يحتاج
شهادة رسمية ولا.. سأرى الموضوع. سهام، هذا يكفي، رأسي
يكاد ينفجر.

أقفل هاتفه الجوال ورمى به على سطح المكتب، يفكر الآن في
دواعي سهام من وراء هذا الاهتمام بعارف. هذا يؤكد شكوكه السابقة،
سهام تسعى لمصلحتها الخاصة بكل تأكيد، هي كأنشي لا حصة مؤثرة لها
في إرث البيت لو.. نعم نعم ترتب وضعها منذ الآن، ليكون لها نصيبًا
دسمًا، والشهادة التي تريد استخراجها من أجل عارف، في النهاية هي
المستفيدة منها، وذاك المهبول خارج الدائرة.

ليكن خارج الدائرة، هذا ليس مهمًا، لكن.. يقلب الأمور في تفكيره
محاوّلًا قراءة إصرار سهام على إنقاذ وضع عارف. (ماذا يا سهام؟.. هل

بالشرطة. حجرة الاعتقال تستعيد هدوءها، لكن هذه الفزاعة تظهر هكذا دائماً فجأة كما يحلو لها كي تنغص عليه وتستفزه..

- ها أنت أخيراً أصبحت رجلاً وعرفت كيف تغضب كبقية خلق الله، ما رأيك في شهوة الانتقام؟ لحظة صعود (الأدرينالين) للرأس، شيء مدهش ومختلف يجعلك بطلاً. يا مسكين، ليس عيباً أن تنتقم، حسناً فعلت، ذلك المفتش المغرور أخذ جزاءه. هل تعرف؟ لو أن كل هؤلاء الشياطين التي أذاقتك العذاب طوال الأعوام الماضية، وجدت ما يردعها، لما تطاول عليك أحد. لما كنت دائماً تلك الشاة التي يأتيها قدرها، مستسلمة لذئبها في الثانية، والدقيقة، والساعة، واليوم، والأسبوع، والشهر، والعام. تسلخ أكثر من مرة! مهلاً.. أمتبرم أنت مني؟ أريدك أن تبرم، ولكن عليك أن تسمعني، أنا رفيقك الوحيد هنا، سبني كما تشاء، لن أتركك. ها أنت جربت.. لهذه الدرجة كانت التجربة سيئة؟ أجبني ولا تسكت يا أخرق. تعلم أن ترد حتى ولو بوقاحة، لا تخاف من أحد، الكثير من الناس اليوم تردعهم الكلمة الشرسة الحامضة الملتهبة بنار غضبك فقط لو جربت. لا تخيفك أشكال هؤلاء، في كثير من الأحيان، ضخامة المرء لا تعكس شخصيته الحقيقية، تعتقد أنه وحش ولكنه يتعد

عن طريقك ويحسب لك حساباً فيما لو كشرت عن أنيابك،
تكتشفه بعدها من يكون! عليك أن تكون جريئاً، تعلم كيف
تكون شريئاً وجرب بعض المعاصي ولتحتفل مع شيطانك ولتترك
مثلك التي..

- أنت فقط جرب يا أبله، عليك اللعنة، ألا ترى كل هؤلاء الذين
معك؟ كل واحد منهم له قصة، هذا العجوز عن يمينك. تشفق
على حاله معتقداً بنواياك الساذجة أنه مسكين! أتعرف؟ هذا
العجوز واحد نصاب وحرامي، يقتنص الطيبين والمغفلين،
مستعد لأن يخلف بكل مقدس في سبيل الفلس! ذلك جهة
الشرق، أتعرف أنه يبيع المخدرات لطلبة المدارس؟ المرء يجرب
حظه ويقتنص لقمته من فم الموت والمجهول، هكذا هي الحياة.
ماذا تعرف أنت في حياتك غير التسكع في الشوارع؟، تأكل
مثل البهيمة السائبة وتنام في أي مكان، تقرأ وتقرأ، ماذا تعطيك
هذه التفاهات أو تغير فيك. جرب شيئاً آخر قبل أن..
ستموت يا غبي ولم تذوق طعم الدنيا الحقيقي.

وهل التلويح في الفراغ ينجح؟ يرقص أمام عينيه عبثاً خيال الفزاعة،
عبثاً يحاول تسكين هواجسه، ها هو تنفرد به الآن في مساحات الظلام
التي يخشى السير في دروبها. أخيراً غادر شبح الفزاعة الكريه بعدما

أخرى، الحيرة تضرب عقله وتضرب حواسه، ليس هنالك غير تخيلات
مرعبة تتقاذف في مساحة الحجر، ماذا يفعل كي يغادر مساحة البياض
المتصحر في داخله؟ منصور اللعينة كأنها - هذه الساعة - من يشمت
في وجهه وهي توجه إصبع سخرية وقحة، يا لهذه المساحات المتصحرة
التي تغزو روحه، كيف تأكله الآن؟! لا يفلح في تغطية شيء من برد
روحه وهذه الغربة تجهز عليه، أي عالم هذا الذي يقيد تحليقه الحر؟
يتشاءب من جديد، متعب من دوامة هواجسه، أخيراً يسرقه النوم..



وقفت منصورة في فناء بيتها الصغير، تنظر لشوب النوم الوردي الشفاف يلهو به نسيم الصباح، اللعنة.. كيف نست أن ترمي هذا الثوب؟! هي أقسمت أن تحذف هاني من ذاكرتها، لا تريد هداياها كلها، فرن المايكرو-ويف، والساعة، وعقد الألباس، ستبيع كل شيء يذكرها به، مثلما فعلت بأشياء (المرحوم). خسرت المبلغ الذي.. هذا اللص، عن طيب خاطر وافقت على تسليمه المبلغ رغبةً في استثماره. ما كانت تدري أنه يبيت لها مصيبة، طار المبلغ ولا فائدة الآن من اجترار غصة الندم!

على الأقل تستطيع بيع عقد الألباس لتعوض بعض خسائرها، ما عادت ترغب في هذا الحي أصلاً، حتى العمل هنا أصبح صعباً.. جميع أحياء المنامة يستوطنها الآسيويين، باتت لهم مناطق تركز يمارسون فيها أنشطتهم، العجيب أنهم يغلقون بعض الشوارع والطرق في عطلة نهاية الأسبوع، اللعنة على هذا الوضع التعيس، وما أسخف بعض الزبائن حينما يستنكفون عن دفع أجرة ال... يقارنونها بأي خادمة آسيوية هاربة تتجول في أحياء هؤلاء الأعراب كي تبيع لحمها بأرخص ثمن، آخرهم طلب منها تخفيض المبلغ نظراً لغلاء الأسعار!

سارعت تخلع عنها القميص، بعدما استبدلته رمت به فوق بلاط الحوش، سكبت عليه بقايا زجاجة "ويسكي" تركها آخر زبون ثم أشعلت شهية اللهب، تاركة إياه يحتفل، هاتفها يرن.

كشرت عن غضبها وتمنت لو تنشب أظافرها في وجهه وهي ترد:

- نعم يا وجه النحس يا حرامي، ماذا تريد؟
- توقعت مجرد سوء تفاهم بيننا يا منصوره، خسارة، خسارة، أنا العزيز الغالي؛ تفعلين معي هكذا؟!!
- هل صدقت نفسك؟، أنت لا تستحق أن يحترمك أحد، و.. تعرف قميص النوم الوردى الذي أهديتني إياه؟ هو أمامي الآن أشعلته ولو كنت أنت مكانه..
- أف يا حلوة، غاضبة ومستعدة تحرقين بلدة، لست سهلة يا منصوره، عندي لك فرصة ذهبية. المهم أعصابك أنت لا تحترق!

- لا شأن لك بي هل تفهم؟، تفو عليك وعلى أشكالك!

أغلقت الهاتف وهي تشتعل غيظًا، مرت لحظات وهي لا تعرف ما تفعل، هاني خدعها واستغفلها بكل سهولة، ولا تستطيع أن تنال منه، كيف تفعل وهي لم تمسك ضده شيئًا! اللعنة على الثقة العمياء التي وقعت في مستنقع غباوتها فكان ما كان. رجعت إلى حجرتها، المرأة

تكشف كل إحباط وجهها، صباحها هذا تكدر صفوه وبات كربه المنظر
والطعم، لا تشعر حتى بالرغبة في الخروج لقضاء بعض الحاجيات رغم
أنها التاسعة صباحًا فقط.

فكرت أنه مر عليها وقت طويل لم تتصل بصديقتها زكية، على
الأقل تتسلى قليلاً، هي لا تريد أكثر من تسليةٍ عابرة مع فتاة تعتبرها
غيبية وتصدق كل كلمة تقال حتى وإن كانت مجرد مزحة! اتصلت وها
هو جوالها لا يرد، تأففت ثم تخلت عن المحاولة وجلست يعاود زيارتها
طيب هاني وهو يضحك ساخرًا منها وكأنما هو هنا يحوم في المكان
ويطاردها!

ستنتقم منه، بحثت في هاتفها عن رقم تعتقد الآن أنه الشخص
المناسب، دقائق حتى جاءها صوته..

- نعم يا منصوره.
- حاجي مرزوق، لا تسأل ولا تتصل؛ فقط عندما تحتاجني تأتي
عندي محترق ولهفان وكأنك ما رأيت خير في حياتك يا ملعون.
- مشاغل الدنيا ماذا أفعل؟ مشتاقة لي؟ أكيد هذا ما جعلك
تتصلين، أعرف أنا هذه الحركات.
- زَمَّتْ شفيتها تنقرز منه، أصلاً هي لا تحبه وتجاهله لا أكثر، لكنه بلا
شك الشخص المناسب لكي ينفذ مآربها..

مفتش البلدية كان محبطاً، جاء كي يفرغ أوساخ نفسه المشبعة بالكرهية، هي أدركت ذلك من نظرتة المليئة بالاشمزاز والقرف، هو تقصد استهدافها مستغلاً صفتة الرسمية. ما أقبح الإنسان عندما يكره أخاه الإنسان، فلا يتركه في سبيله أو عقيدته حرّاً، يستجلب عليه كل ألوان العذاب، فقط لأنه لا ينسجم معه!

وهي صبية ناحلة تعرف كيف تكون خارطة الكراهية في عين أحدهم، مهما كانت مسحة المجاملة الخداعة، تتذكر الآن عمتها. على سفرة الغداء كيف كانت تحدق فيها وهي تلم الرز في راحة كفها الصغيرة، عندما تغص باللقمة، تلعنها وتدعو عليها بأن يقصف الله عمرها كي ترتاح من مسئوليتها، معتبرة أنها هي سبب عنوستها في البيت وحظها التعييس!

يا لتلك النظرة.. نظرة نافذة من الحقد تشتعل ناراً، تتذكر الآن بؤس تلك الأيام، حيث كانت تعتقد أنها أشقى الناس، تتحول حياتها إلى جحيم لو سقط منها صحن خزفي في المطبخ. عمّة ساخطة على كل شيء، تنتقي أسلوب العقاب حسب مزاجها المظلم الشرير، كنس حوش البيت من أوله لآخره، أو النوم بلا عشاء، لكن الأسوأ عندما تتشفى منها باحتجازها في الحمام، لا تفتح لها الباب إلا من بعد أن تتأكد من بريق المرحاض! ما أصعبها من أيام تصرمت محملةً بالألم

والدموع والوجع الذي لا يفارق مخيلة طفلةٍ تنام في داخلها، لا تنسى اليتيم. المفتش كان يحمل ذات النظرة، جاء إليها حتى ينتقم ويتشفى فيها. شكرًا يا عارف.. لقد داويت شره ولكن.. كيف عساک الآن تخلص نفسك من الورطة التي وقعت في حفرتها؟؟ وكأنه خفقان شيء ما تهجسه الآن وتحار في التفسير، ربما هي مشاعر متضاربة، هكذا تبتثق من لهفة العطش الذي يغطي الروح، طال ظمأها. عارف يا من تسكن الجوف المحترق من أقاصي الروح، جمرًا لا يخبو أواره، هي ذي الأيام لم تخيب ظنها، هو هكذا، نقيّ وقف في وجه الظلم وانتصر على ضعفه.

ما أكثر الناس الملوثة بحب (الأنا)، عارف مختلف ولا يشبه كل هؤلاء، ينتصب في قحط هذا العالم مثل شجرة خضراء، تكاد الآن تلامس ندى روحه وتقرأ سطوره الداخلية التي يحفظ سرها، ترغب الساعة في معرفته أكثر، هو أكثر شيء يهمها الآن والأيام القادمة. هواء بارد يجتاحها، وشيء عصي على التفسير يراقص إحساسها الأنتوي، شعور غريب لم تختبره قبلاً.

ما من داعي للخوف، عارف موضع ثققتها، قد أظهر شهامته واكتفى بالهرب حينما حاصره الفزع، كان مضطربًا، ولكن يبقى - رغم ما فعل - إنسان رائع تحلى بالنبل، أغرق نفسه من أجلها! الأرجح أنه.. تتمنى في سرها لو أنه تمامًا على ذات الخارطة من الإحساس وفي قلب

الموضع، يتفق مع تضاريس روحها وهي تشتهي الفوران، تنشق مثل بركان حبٍ ورغبةٍ لتغادر عقدها النفسية في الخوف من الرجال، تريد أن تكون شيئاً آخر. تلك العمة العانس صورة أرشيفية تداهما في يقظتها أو منامها وتذكرها أنها على نفس الدرب، وأن الله سيبتليها بذات المصير لتعيش كأبي عانس أخرى، لكن ما شكل هذه السعادة التي ترتبط بوجود ذكر؟! أوه هي لا تريد أن تفكر في هذا الآن فهو..

لا يغادر تفكيرها منذ تلك اللحظة، بدل الدوران في متاهة التفكير بلا طائل، الأحسن أن تسأل عنه في أقرب مركز شرطة. ليس مهماً أي صفة تدعيها أمام الضابط كمبرر للسؤال عنه، ولكن لا بد أن تفعل. الاطمئنان عليه كواجب أخلاقي يريح ضميرها قليلاً، ربما تنجح أو تفشل، لكن هذا سيكون عزاءها الوحيد، هي ورطة صعبة أوقعته فيها، فكرت في حمل بعض الفواكه، وضعت صحن هريسة، جمعت كل الأشياء التي خطرت في تفكيرها، استعدت لمشوارها، كان لا بد من حركةٍ ما - مهما كانت صغيرة - قد تبدد قلقها المتراكم. عارف مقطوع عن عالمه، من سيسأل عنه أو سيهتم بشأنه؟ تطلعت زكية لحيط الشارع تتربق أية سيارة أجرة، لم يطل بقاؤها حتى وجدت ضالتها.

مركز شرطة وسط المنامة ثم منطقة النعيم ثم العدلية، ها قد تبخر الوقت وعارف لقمة سهولة البلع في فم القدر، لم يفصح أحد عن مكان

وجوده أو يؤكد شيء؟! انتابها القلق أكثر وغاصت في ظلمة أفكارها،
ترتسم أمامها أشياء.. تخاف من مجرد التفكير فيها! ها هي ذي مرةً
أخرى تسقط في دوامة التساؤلات الكابوسية التي لا تعرف بعد إلى أي
مكان تأخذ شتاها، يتوسع في صمت نحو الفراغ. أكثر ما كان يخيفها في
وحدتها، الفراغ الذي يتلعب حتى أحلامها البسيطة، هو عالم قاسٍ تقف
أمامه كما يفعل عارف. ذات نهار، تحدث - وكأنه يهذي - مصوباً
نظراته نحو أسفلت الشارع، لكنه كان ينزف: [كم أكره حياتي هذه،
أحياناً لا أعرف نفسي! أحياناً أخرى يمر عليّ شعور مختلف، أنا (باشا
أو مهراجا) في قلبي فرح العالم كله، حرّاً أنا، لا يشبهني أحد، حتى لو
مت، قصتي ستتحول لأسطورة شرقية، ربما أصبح أكثر شهرة من
(جلجامش) أو ربما في مثل نجومية (كلينت إيستوود). حياتي سلسلة من
الهزائم لا أعرف في ضابها من أنا في هذه الغابة أمام كل الشياطين التي
تحاصرني. نعم شياطين تلبس أثواب الطهارة والتقوى والزيف والخداع، أنا
هنا محاصر في علبتي الداخلية، أخاف أن أتلوث مثلهم، فأتحول لمجرد
رقم مكرر. ما وجدت صديق يفهم جنوبي العقلاني، غير كتاب أتجول
فيه، هو كل عالمي الجميل والمثالي، ههههه على الأقل هذا الكائن
الورقي اللطيف لا يتأفف مني ولا يزجرني ولا يتأفف من رائحتي، أنا

"كاكاشي"⁽¹⁾! مرات كثيرة لا أبالي بأي ضفةٍ ينتهي بي الأمر، سأكون مرتاحًا لو تركني الناس أعيش حرًا دونما نصائحهم المزعجة، أنا هكذا، وأريد أن أعيش كما في قناعاتي، ولست مجبرًا على إرضاء الناس من حولي، لو فعلت سأفقد ذاتي مني وتصبح غريبةً عليّ.

ربما أنا الوحيد في المنامة المتصالح مع أحلامه المهزومة البسيطة المضحكة الحمقاء، أية مرآة هنا أو هناك تصطاد خيالي أكرهها ببساطة، لا أريد رؤية هذا الآخر الذي يحدق فيّ بتحدٍ أو وقاحة، كلما شاهدته تشاءمت منه، خيال يجلب ظهوره عليّ الحزن! لكن رغم ذلك؛ أنا لست حزينًا ولا يهمني أن يخبرني أحدهم بأي كذلك، سأصنع فرحي ولن أقف عند مشارف اليأس. هذه رأسي، مصدر كل شقائي وما ألقيه، اليوم الذي أموت فيه ستتحرق كل تلك الأشياء المعتقلة بالداخل وتنتهي إقامتها الجبرية. أحب الحياة وأكرهها، لكثرة ما قرأت؛ يستبد بي وجع العمر، محبوس أنا في عنق الزجاجة، لست مفقودًا ولا مولودًا، لا أملك لنفسي مخرجًا من نهاية الزقاق الذي وجدت نفسي فيه، لأني أنا.. تضيع مني (أناي)، هل قمت بجلدها أم هي من جلدي؟! أعطيتها ما تريد أم هي أخذت مني ما تريد فتركنتي هيكلًا فارغًا ومشحونًا بالعذاب الذي يرتضيه صاحبه وحتى يتواطأ بقبوله صاغرًا. ما همتني هذه الدنيا كثيرًا،

(1) كاكاشي: كان اليابانيون يسمون فزاعتهم.. كاكاشي، أي الكريه الرائحة.

كسرة خبز عندك يا زكية أو في أي مكان آخر، سأكلها قانع النفس لسد جوعي، كيف يزداد طمع الناس ما داموا يعرفون أن النهاية حتمية؟!]

لا أدري إن كانت روحي مريضة، لكني لا أجمل الأشياء المختصرة والقيحة يا زكية، أوتسألين بعد في أفكارك من هو عارف؟!].

وهي عبارة عن تمثال من الخشب يعلقون عليه سجاداً قديماً أو بقايا لحم أو سمك، ثم يحرقونه، فتصدر عن الحرق رائحة كريهة تنفّر الطير. تتذكر.. آخر جملة قالها قبل أن يتوقف، نهض من جلسته، نفض عن ملابسه غبار الطريق، حمل حقيبتة وسار بهدوء غير مكترث بشيء. ها هو أذان الفجر ينطلق لينتشلها من فيضان أفكارها المتلاحقة. الاستعداد ليوم عمل جديد، تعرف ما تفعل؟ وتعرف كيف تسحر الفتيات الصغيرات بوجبة الذرة المسلوقة بطعم الزبدة والمبهرّة بالفلفل والملح. ليت عندها ملحاً لجروحها.. لكنها تعرف طريقة ما، عارف في قلب إحساسها ولن تتخلى عنه. كيف يتخلى المرء عن شخص ما أكل معه عيشاً وملحاً؟ سيكون المشهد مربكاً لحواسها لو تمكنت من رؤيته مسجوناً، لكنها ستحاول، وهذا ما عزمت على فعله. هناك بعض الجلبة في الشارع، تفقدت من نافذتها ما يجري، أحد الهنود يقوم بتنظيف بعض السيارات في الحي، إنه... نسيّت اسمه، ولكنها تتذكره جيداً، كان يقود

دراسته، يقترب من مدخل الحديقة، ويعطي عارف صحفًا ومجلاتٍ قديمةٍ. لا.. لا، بسرعة نفت الفكرة من رأسها، مستبعدةً أن يعرف هذا الغريب شيئًا عن عارف. واضح أنه خسر عمله بطريقةٍ ما، الكثير من الهنود في هذه الحالة، لا يتورطون أبدًا ولا يختار بهم الدرب، يعرفون كيف ينحتون أنفاقهم في كبد الحياة كي يستخرجوا الفلس والدينار.

يا ترى أي مجهولٍ يحتويك يا عارف؟ تشرق شمس المنامة، وهي ذي تسأل نفسها من جديد عن مصير عارف.

وكما هي سيرة كل يوم، تتزامن عليها أثناء انتظار حافلة (tata) الهندية التي تقلهن إلى المدرسة، تحضر أطباق كثيرة من الذرة الساخنة وتشاهد كيف تتراشقن بالمزاح والضحك وتلك التي تتحدث عن ولد الجيران الذي غازلها، وهذه التي يتودد إليها زوج أمها .. و.. وقصص كثيرة يحاصرها ضجيجها، لكنها تبقى مشغولةً بضجيج قلبها الخائف، يشاكس صمتها ويستفز بداخلها تساؤلات كثيرة تعشقها روح الأنثى التي تسكنها، كل طالبات الثانوية مشغولات بقلوبهن الصغيرة التي تنتفس حريق الحب المراهق الأول، هي أيضًا أنثى مثلهن وتشعر بنفس حرارة الشواء اللذيذ الذي يداهم الذاكرة والشم والذوق والسمع حينما يكون هناك رجل. رجل تسلمه ضعفها ويا ليتها لو..

يعم الهدوء رويداً على المكان، تهدأ الحركة في الحديقة، فقط بعض الزوجات الآسيويات تتجولن في الحديقة أو تمرجنن أبناءهن الصغار ما دون سن الروضة، تعود، تطأطي رأسها نحو الصمت، ولا رغبة لها حتى في عد حصيلة كدها اليومي، هي تعرف بالتجربة أن المبلغ المتحصل في أحسن الأحوال لا يتجاوز بضع دنانير من القطع المعدنية، تعدادها ممل كهذه الحياة، تحتشد بصفرة الاهتراء والغربة والحزن.

نفضت عنها مشاعرها السلبية وانتصبت واقفةً أمام طيف التعاسة المتغطرسية، رجعت لشقتها بالرغم من توجسها الخوف وكل تلك التوقعات التي داهمت تفكيرها القلق على عارف، لكنها قررت مرة أخرى تفقد أمر هذا المسكين لدى مركز شرطة آخر، رجحت في ظنها أن تجد الآن ضابطاً يتعاون معها، وتحل في قلبه الرحمة فيفصح عن شيء ذي أهمية. لقد مرت حوالي خمسة عشر دقيقة وهي هنا تعتب باب مركز الشرطة، كالمرة الأولى شعرت بالخوف، فهي لا تحب دخول مثل هذه الأماكن، آخر مرة دخلت مركز شرطة كانت من أجل طفلة أجنبية ضائعة سلمتها وسجلت بلاغاً عنها.

وجدته أمامها جالساً خلف مكتبه وقد وضع جانباً قبعته العسكرية وأصابعه تحرك قصب السواك، بالكاد رد السلام في تناقل، مما حدا بما إلى التشاؤم وعبث المحاولة فسألت:

- عندكم هنا واحد.. واحد اسمه عارف المظلوم؟

- لحظة، دعيني أتأكد.

حمدت ربها في سرها أن وجدت هذا الرجل، تنحنح قليلاً ثم توقف عند حافة الدفتر متأرجحاً أو متردداً يريد أن يقلب الصفحة وليس بعدها إلا البياض الفارغ ثم قال:

- موجود في.. لكن ما صفتك كي تسألني عنه؟

- ابن خالتي ومسكين.

- هذا مسكين؟! المحضر هنا عندي، قريبك المسكين حاول قتل

موظف حكومي لا يزال راقداً في مستشفى السلمانية، يعيش أو

يستقيل من هذه الدنيا؛ لا ندري. عموماً.. قريبك موجود في

مركز شرطة (...). ولم يحول إلى النيابة العامة بعد، أتريدن أية

خدمة أخرى يا أختي؟

- شكراً لك، جزاك الله خيراً، سؤال أخير، تعرف اسم الموظف،

موظف البلدية المصاب؟

تناول ورقة ودون عليها اسم الموظف وسلمها لها بهدوء، ثم عاد

ينظف أسنانه ويسترخي في جلسته. أما هي؛ فغادرت سريعاً، وها هي

شتلات الأمل تنبرعم في مراعي قلبها الذي يخفق فرحاً، حققت شيئاً

صغيراً على مسار تعبها، وتمكنت من اختراق حالة العجز التي خنقت إحساسها المرتبك، ثم مضت في طريقها إلى المستشفى.

لا تدري كيف ستنظر إليه أو ماذا يمكن أن تقول؟؟ لا تريد أن تشغل تفكيرها في شيء آخر، بسرعة دخلت إلى رواق المستشفى الرئيسي، وبالسؤال؛ عرفت مكان الرجل.

فقط انتابها بعض الندم، من اللباقة لو أنها اشترت بعض العصائر أو حتى علبة حللوة حتى لا تدخل على مريض ويدها فارغة، تقبلت ورطتها في التوقيت الضائع وحشرت جسدها مع الناس في المصعد. هي ذاتها المستشفى ولم تتغير كثيراً، آخر مرة كانت هنا منذ سنوات مضت، الآن لا تدري كيف استيقظ غبار الذاكرة من رقدتها على رف النسيان، جاءت هنا برفقة بعض النسوة تزور عمّة السوء (مدينة)، ارتفاع في الضغط على أثره رقدت لأسبوع فقط، ثرثرة متبرمة لا يعجبها العجب، لا تكف عن غيبة من تعرفهم ومن لا علاقة لها بهم! وقت الزيارة ثقيل، كانت لا تكف عن طلباتها.. الفواكه في صحن الضيافة غير نظيفة كفاية، قلمي أظافر قدمي، إنهما تؤلماني من البارحة دلكيهما، شعري يابس ادھنيه بزيت الورد، لعنك الله، أما وصيتك أن لا تنسينه .. و..

..و

حتى وهي مريضة مزعجة ولا تُحتمل، تخنلق بعض القصص المفبركة عنها أمام صديقاتها فيضحكن عليها ولا تبخل بعضهن بالتعليقات الساخرة التي تشعل في إحساسها نيران الكمد، ثم يترمد ذلك الإحساس لتتصالح معه مؤقتًا فقط، ولكنها لا تنسى أيام العناء تلك قبل أن تقرر الفرار من جدران جحيمها. أربع سنوات مرت، ماذا فعلت الأيام بتلك الشريرة؟ ينتابها الآن تأنيب ضمير يزورها مذكرًا إياها أنها قاطعةٌ للرحم، تحاشت التفكير في هذا الخاطر الذي يقتحم يومها، استيقظت لتجد نفسها أصبحت وحيدة في المصعد. فرقت غيوم هواجسها وأفكارها وسألت أول مكتب استقبال عن.. بحثت عن تلك الورقة التي تحوي اسمه، هز موظف الاستقبال رأسه مؤكدًا وجود المريض بالاسم على شاشة الكمبيوتر (مرجان خالد الدحسامي) حجرة رقم 22، الطابق الرابع، وفي الحال قصدت الحجرة.

الستارة نصف مفتوحة، هو نعم ولكن هذه المرة بدون زيه الرسمي، صفرة تعلق وجهه بلحية بيضاء تكشف عمره الحقيقي، وكان يتسلى بسماع شيء من هاتفه الجوال، ثم تنبه لها. مفاجأ أو غير مرحب وربما مرتبك.

- السلام عليكم مرجان، أجر وعافية ما عليك شر ولا مكروه.

تحسس الضمادة التي تغطي رأسه، عله يحاول الهرب من شيءٍ ما أو يحاول انتزاع ذكرى بغيضة، لا تعرف تمامًا كيف تقرأ ملاحظته، لكنه تدارك الموقف وقرب مقعدًا بلاستيكيًا نحوها داعيًا إياها للجلوس. أربع باقات لا يزال وردها طريًا كانت تشاركه مساحة مرضه، تخفض بصرها أمامه، يساورها الآن ذنب ما حصل ويتشابك في ذاكرتها كل ارتباك الحادثة.

- أهلاً بك زكية، ارفعي رأسك. أنا من عليه أن يخجل من نفسه (سكت فجأة).

- الموقف الـ... أعتذر لك أو أعاتب نفسي، أو.. لا أدري ماذا أقول لك؟ لكن الموقف ما كان بالإمكان تفاديه.

- الملام الوحيد في هذه القصة أنا! زكية.. قبلك الكثير من خلق الله، آذيتهم ولم أهتم، أنا.. أنا لا أحبكم. أحس بالقهر منكم، يكفي أن مصائب البلد هذه الأيام أنتم السبب فيها بس.. أنا ع..

- أخ مرجان، ما جنتك حتى نتكلم في السياسة أو إن كنت تحبنا أم لا، في النهاية كل مشاكلنا هي على مركب واحدة، أما أن ننجو معًا أو نغرق معًا. ولو أن الكبار حلوا المشكلة من الأساس لكان هناك.. ادع ربك يفرجها قبل أن يحل علينا الخراب، أنا آسفة لما حصل لك.

الدود الذي يعيش في بطنها. فقط عندي شرط واحد صغير،
نرخص الكشك باسم (أبو وليد).

- الله يحفظه لك ويترى في عزك.

- ذكية، عرفت أنه ابني، و.. يبدو أن عندي زوار!

نحضت في الحال، أومأت برأسها تشكره من جديد وغادرت المكان،
تتهجد في داخلها قراءة أخرى لما كانت تعتقد أنه حقيقة، ما أكثر
اطمئناننا وتسليمنا لكل تلك الرؤى التي تمر في وجداننا، هناك فرق بين
القشرة الخارجية وحقيقة الباطن المتواري عنا، مرجان إنسان طيب في
داخله، لكننا هناك شيطان آخر يتلبسه في قسوته مستغلاً ضعفه. لكن
القشرة الخارجية ما كان لها أن ينكسر عنادها المكابر لولا مجيء عارف.
سعيدة الآن بكل هذا البهاء الذي يغمر روحها، مجددًا انطلاقات
الأمل، ها أمامه واحات خضراء، سوف تستقبل شتلات الحلم، مهما
كان صغيراً سيكبر، مهما كان الطريق طويلاً، سيختصر المسافة ويبلغ
المراد، الأيام القادمة ستكون أفضل حالاً، هكذا جملت بستان تفاؤلها،
كأنها تواجه أرضاً جديدة تختبر عزيمتها.

الآن بات بالإمكان تخليص عارف من مأزقه، هذا شعور أفضل
يغمرها بالرضا عن نفسها، خطوات صغيرة ستنفذها ويصبح حرّاً، لن

تتوقف عن ما بدأته، صبح الفرج آتٍ يا عارف، كأنها أغنية شجية النغم
تتردد في داخلها الساعة.



دم، عرق، صراخ يتسول الرحمة، ركلات تحطم الأضلاع، شتائم
 داعرة تشوي كرامة المرء على صفيح المذلة و.. آآآآآآآآ. ما هذه
 الأشباح الـ؟.. هو أصلاً لا يراها ولا يشعر ببصره، غمامة سوداء تحجب
 النور. إحساسه واحد ومتكرر هنا، طحن الألم نازلاً على روحه من
 الأنبوب البلاستيكي، يعرِد قبيحاً في أية بقعة من جسده، مع كل ضربة
 تتزعزع الروح من برجها لتعفر هذا الجحيم، يأكلها اشتعال العذاب، ما
 عاد يحتمل الآن.

ها هو ذا قد توقف، الرجل الغامض، (ابن الـ..) الآن فقط عرف أنه
 مسجون عن حق، حرية ذلك العجري السارح في فضاء الحياة غير عابئ
 بشيء، والمتجول على تخوم القناعة والجوع حيناً، والراكض في مساحة
 الضحك والفرح الزائف حيناً آخر، كل هذا مجرد دخان يتبدد في الهواء،
 فاسد هواء الحرية المزعومة والمعلنة في الخارج. أحقاً تعيش هذه الوحوش
 وتأكل وتتنقل، وتضحك وتلهو وتتناسل؟! وحوش بشرية مغلقة بريق
 خارجي كاذب، هي ذي تنهال عليه مرة أخرى بالضرب، كل ألفاظها
 مشبعة بالكراهية حتى آخر الحدود.

يسمع صوت سحاب البنطلون! يهجس في هذه اللحظة شيئاً ما، لكن لا يعرف من الظلمة شيئاً غير ضحكة هازئة لأحدهم حيث هكذا فجأة تغزو وجهه ثم جسمه، عفن البول!! و.. دفعة قوية تطيح به وهو مقيد بكرسيه، صوت ارتطامه بالأرضية الأسمنتية يزيد من تكسير ضلوعه المكسرة أصلاً. يباغته صوت هذا المجهول الذي لا يزال يطلق ضحكته الساخرة:

- يا (.....). هل أنت مستعد لتتكلم؟ إياك أن تغلط أو تدعي الجنون، هنا يا حبيبي، عندنا تخصص لكل الحالات المستعصية. أنت مكشوف ومصادرنا تعرفك، سهل علينا وعلى نفسك، هيا أسمعني أحلى موال، من معك في عصابة كتابة الشعارات ومنشورات الفيس بوك؟ أنت واحد منهم، تسدون الشوارع بالإطارات المحروقة، حرقتم البلد، عساكم تحترقون و.. تكلم أحسن وإلا أذقتك طعم جهنم.

البصقة في الوجه مسمار! كل خلية الآن ترتجف في جسمه، بماذا يجيب هؤلاء وكيف سيقنع الضابط، الضرب حطم صبره على التحمل، مشلول لا يسمع شيئاً هذه الساعة. هؤلاء ليسوا عصابات الشارع من مراهقين أو ثملين، قد ينجح في مراوغتهم أو يهرب لبعض الوقت من شرهم. هؤلاء شيء آخر.. آه، كيف سيتصرف؟ تركض إليه كل

جيوش القلق والرهبة، ثانية صمت سيعقبها المزيد من الضرب، صبرهم قليل، لا بل هو معدوم أصلاً، إنهم بالطبع ليسوا من سكان المدينة الفاضلة ولا دخل لهم بمقولات الفلسفة والجمال، لكنهم بكل تأكيد يحبون طقوس السلخ ويعرفون بالخبرة، أكثر ما يحطم صبر أي نزيل عندهم، ما أحلى ضيافتهم العربية الأصيلة؟! ما أحلى هذه التهم التي.. هم مخطئون أكيد أو يمكن هناك اشتباه في موضع ما، الأمر يحتمل تفسير منطقي وارد، لحد الآن لم يحاسبه أحد على ضرب ذلك المفتش! مستعد أن يقبل يديه أو رجليه وليأخذ وجبة أخرى من الضرب، ولكن بلوى السياسة في هذا البلد، ورطة عويصة لا تُحتمل ضريريتها، حتى لو كان المرء يحمل فوق ظهره جلد سلحفاة، فلن ينجو من السلخ. أف، ها هو رجل آخر يقترب منه حاملاً حزام سرواله الجلدي ثم.. اللعنة على هذا الكابوس الرهيب، ابن كلب حقيقي أفرعه من نومه. تفقد المكان حوله، نعم نعم، سبعة أشخاص هو ثامنهم حيث يقبعون في مركز الشرطة، العرق يجعل جسمه دبقاً، في أسوأ أيام الصيف لم تكن رائحته كريهة هكذا، ربما هي رائحة هؤلاء الذين يشاركونه الحبس هنا.

*** **

في أزقة المنامة المغسولة بالمطر، رائحة التراب تنفذ إلى مسام الروح، فما أحلى الجري واللعب، ما أحلى (مصاميص الفراولة⁽¹⁾) تلون الشفاه بالفرحة والضحك، من هذا الدكان إلى هذا الآخر، اللعب لا يعرف برودة الجو، قلوب صغيرة ترتع وأرجل هزيلة، بعضها عارٍ في حمى اللعب البريء .. خوانةً هذه الذاكرة، يتبخر منها الكثير من التفاصيل، عجز عن تذكر أي تفاصيل أخرى. لولا فسحة الهدوء المؤقتة وسط ثثرة هؤلاء وإزعاجهم، ما تمكن من تجميع شتات تلك الأيام، مضت وتركت خلفها بقايا طعمٍ سكري عالق في الوجدان تتشبه به النفس بلحظات العطش.

يعرف .. يعرف أن للمصائب طاقة شحن سلبية تمكث أطول من طاقة الفرح التي تستنفدها نفوسنا الظمآنة ويذوب طعمها في فم القدر أسرع من أي شيء آخر. يعرف أن هذه الوجوه المسكينة التي تشاطره شقاء السجن تعيش - ربما مثله - الغربة والامتحان والألم، الآن زاد ذكريات الطفولة وبعضاً من لحظاتها الجميلة هي زورق نجاة تبحر به بعيداً. هو ذا هناك في زحمة الطابور المدرسي، أشار له مدرس اللغة العربية أستاذ، أستاذ .. لا يتذكر اسمه الآن، لكن له قبضة خشنة كادت تسحق أصابعه الضئيلة، طبعاً فكل طالب يهمل نظافته الشخصية،

(1) مصاميص الفراولة كلمة عامية تطلق على السكاكر المزودة بأعواد بلاستيكية.

عليه يقع العقاب والتأنيب، وليتحمل أو لا يتحمل طعم المسطرة الخشبية التي تجلد رؤوس الأصابع حتى لا يعود صاحبها إلى النسيان، هي ضريبة كريهة يكره دفعها كل الطلاب. لكن أستاذ اللغة العربية ذاك، ذي الوجه الأبيض الشاحب واللحية الحليقة، يتذكره كيف كانت أصابعه متسخة، هو أصلاً لا يكثر بتتنظيف نفسه، فكيف يُكلف بمراقبة الطلاب المساكين وتأنيبهم، عدا إخراجهم العلني والعقاب المجاني في حقهم! يومها كان صديقه عبد الكريم يقف بجانبه ويتناول ذات الوجبة، فهمس في أذنه: (والله العظيم سأنتقم منه لي ولك، وجهه يشبه نرجيلة أبي، سوف أعملها فيه)! عبد الكريم، ولد عنيد، يتذكر هذا جيداً، فقد قام بتحطيم مرآة السيارة الجانبية وكسر أحد مصابيحها، الشرير فعلها ونفذ انتقامه.

يتذكر كيف صرخ فرحاً يومها، هو أيضاً لم يكن يجب هذا المعلم المتغطرس، تذوق ضربه مرات كثيرة داخل الصف أو في الطابور، كأنه لعنة على طلاب المدرسة، حتى وهو يشرح الدرس مزعج بصوته الذكوري الخشن والكريه، كيف سمحوا له بأن يصبح معلماً وهو هكذا؟؟ ثم ها هو تأخذه ضفةً أخرى من ضفاف الطفولة، كان يوم جمعة؛ وكان يمشي وسط سوق المنامة يسلي نفسه بمشاهدة ما لا يستطيع شراؤه، ملابس ملونة وألعاب غريبة من بلاد الدنيا مغلفة بالنايلون يلعب فوق

سطحها البراق شعاع الشمس، كما تلعب وقتها كل حساته الظمّانة، ما تستطيع أن تهبه شيء غير سداجة الحلم المباح، يتبخّر سريعاً من مخيلته، فمن أين له أن يشتري أحلامه العصية المشاغبة؟! هو أكثر بؤساً من الطفل الإنجليزي (أوليفر تويست) فقط يسلي يومه ثم يعود للبيت خائباً ككل مرة.

لكن وجود هذه الأجنبية الشقراء الشابة تمشي أمامه مشغولة بنظراتها السياحية المستكشفة، وهي تحمل أكياس تسوقها غير ملتفتة، تسقط من حقيبة يدها بعض الأوراق النقدية، هو من ينقذ الموقف، هو من يهرول سريعاً إلى غفلتها، أصابها الذهول، فشكرته على الأغلب بكلمات لم يفهم منها شيء. شجعته أن يأخذ مكافأته وهي تحديق فيه بعينين زرقاوين لا يمكن لمن رآهما أن ينساها.

ما عساه يتذكر وأي شيء بعد.. تلك الأيام الماضية، يتمنى في سره أن يستعيدها ليهرب من غربة المكان، وكيف ذلك؟ هنا رفيقه عبد الغني من قرية السنابس ذي القامة الطويلة والذي ينام في الزاوية قربه يسمع شخيره فلا ينام، وحين يستيقظ يقول: أنا.. أنت.. متورط في فجوات الوجد، كل فجوة بمساحة الجرح، وطنٌ يزداد تعباً، أي وطنٍ مجبول على الحزن يسربله الظلام هنا؟ يا كل شياطين الخبث والدجل والبغاء، الأرض طاهرة تنزل عليها بركات السماء، فلا خبز لكم فيها.. لا خبز لكم

فيها، آه، تعب، تعب يا دنيا! ربما هو شاعر أو كاتب فقد عقله، يكرر كلامه هذا عشرات المرات.

هو ذا عبد الغني يستأنف سيمفونية شخيره، يربك تسلسل حبل أفكاره، جرته بعيداً، ولكنها الجدران الكثيبة ذاتها التي فارقها منذ قليل، يعود إليها كسير النظرات، الحزن ينهش داخله، هو حزن فرانز كافكا وشبح الانتحار يلازمه، هو حيرة زوربا عندما يتسلى بآلة السانتوري كي يطرد غربته، أو شارلوت برونتي تتسلق ذرى الألم متجرعةً يُتَمَهَا، لا اخضرار في طريقها الوعرة. ألم قبيح الوجه ينتهك خلايا روحه، يجلدته كما الحلاج، يرحب بموته راضياً بقضاء الله. هي ذي كل أرواح السطور التي قرأها، تحضر الآن، لا أحد يستطيع صرفها، ستقدم العون المعنوي حتى يرمم ما لحق بروحه من جراح، هو سيعرف همهمات لا شك، بل هو الوحيد هنا من يفقه لغتها. تتحرك على خشبة مسرحها وكل واحد يتقمص دوره، حتى يبعدوا عنه غيوم الحزن. برودة تسري في عروقه، تهدأ أنفاسه وكذا هواجسه، يغلق الستار بعد تعب، هو ذا النوم يأتي أخيراً، أخيراً؛ حانت لهذا الجسد راحة يهنأ بثمالتها كأحسن شيء متاح في رطوبة المكان.



(21)

- سهام...
- تكلم يا هاني.. أحس أنك تحمل خيراً لا يطمئن، بلوى والله يستر.
- عارف خلاص.. أكلها!
- ماذا تعني؟ أنا قلت لك اذه..
- سهام افهميني.. توقيت أخوك الأبله هذا، صعب، قضيته يمكن.....، المجني عليه في الموضوع تنازل عن حقه ولكن لا فائدة، القضية لو دخلت فيها بلوى السياسة يمكن أ.. أ.. أ..
- تعرفين، نحن - العرب - الأمة الوحيدة في العالم التي تسييس كل شيء!
- وماذا أيضاً يا هاني، تلعب بأعصابي بهذا الكلام.
-
- لا تتخلي عن أخيك، أنت تعرف ماذا يحصل لكل من يتورط في السياسة، ليكون في الشارع أو على الرصيف أو أي مكان، ولكننا نعرف أنه بخير، إلا أن يكون مسجوناً، لا نعرف عنه شيء.

- تعرف.. تعرف أن أمك أمس كانت تسألني عنه. تقول إن قلبها مقروص عليه ويمكن آذاه أحد! ماذا تنتظر؟ وكل له حمام.
- يعني أنتظر أوامرك السامية؟! هذا أخي مثلما هو أخيك أيضاً. المحامي أخبرني بأن الوضع في البلد، معقد و..
- أخي عارف لا شأن له بالسياسة.
- قام من مكانه وأقفل باب مكتبه وأسدل الستائر، عاد فجلس ثم أخذ يحدق في سقف الحجرة يمسك الهاتف..
- عارف يمكن يأكل خمس سنوات سجن هذا الأبله، هل تعرفين هذا أو أشرح أكثر؟، غير هذا، لقب عائلتنا يوضع عليه علامة حمراء عندهم.
- أف.. ولماذا لا تتكلم بصراحة يا هاني، مصالحك - يا حرام - أكيد ستتضرر، أنت اليوم مورد ورق لمطبعة ال.. وخائف ربما يقطعون عنك المناقصات.
- لا تستفزيني يا سهام، كل واحد ينظر لمصلحته، قلت لك أن هذا الجنون سيورطنا بجنونه، دعينا نكسب ثقتهم ونستفيد ثم نرجعه للمستشفى، ولكن القلب الحنون، وأمي المسكينة التي تفكر في ولدها. هي ذي النتيجة، هيا تصرفي وحلي الموضوع.
-

تأكد أنها محاصرة في زاويةٍ ضيقةٍ ولا تملك ردًا، الحادثة مملّة بالنسبة له ولا وقت لديه لإضاعته في الكلام عن عارف ومشاكله، ذهنه مشغول بأمرٍ آخر، هناك مهمة حساسة لكن لا بد من إنجازها قبل فوات الأوان.

- أتركك الآن يا سهام، عندي هنا ضيف سيدخل المكتب، "لا نريد فضائح"، سأتصل بعد قليل، مع السلامة.

*** **

هي ذي مهمته التي تعب في التخطيط لها، كان من المناسب أيضًا مشاهدة بعض المسلسلات الخليجية، قدحت في عقله الفكرة التي يبحث عنها! أوقف سيارته الفارهة في مواقف دار العجزة، على بعد خطوات فقط ويصل إلى مبتغاه، الفرصة تهول إلى المرء مرة واحدة، كغبار النيازك المتساقط من السماء في كف رجلٍ محظوظ، رجل واحد فقط يصل إليه. أخذ يقلب الأوراق التي عنده، يضحك في سره. يعرف الآن، هي حركة صغيرة وحسب، هذا العجوز (...). أثار ترك مسافة بسيطة، رقعة من الرمل وسط محيط كرهه له، لا بأس بأن يترك له حيز من الاحترام، سيقبل رأسه كما يفعل أي ابنٍ بار بوالديه.

يتذكره بوجع الآن، وليت الوجع يمحي، كل زوابع غضبه تنصب على طفولةٍ هشةٍ تعلمت مواجهة الألم بالمزيد من التمرد. ذات مرة.. كم

هذا مؤلم. أي أب يسعى لكي يزرع الفرحة في قلوب أولاده، إلا هذا الرجل المخسوف، كان الحلم صغيراً، دراجة ولا فرق إن كانت قديمة، ما من شروط لكي يحصل عليها، لكنها ستفرح قلبه المشتاق للمسة حب وحنان من جفافه الصحراوي. لو أنه حصل على تلك الدراجة آنذاك لكان هذا جميلاً، كان سيتجنب بعض السخرية من أطفال الحي، حولوه لبصقة، يضحكون عليه و..

ذكرى كريمة الطعم، تذكرها مزعج الآن. خربش فوقها محاولاً الهروب من فخها، ذلك ماضٍ تعيس واستحضاره لا ينفع في شيء. التفت إلى سيارة الإسعاف تصدر نفيراً طارئاً وهي تخرج من المكان، بسرعة أقفل سيارته ودخل المكان، بعد لحظات ها هو الحدس الذي راوده في مكانه، أخبره أحد الموظفين بأن الحجي يعاني انخفاضاً شديداً في الضغط.

فكر الآن في الموقف، ربما تتبخر الفرصة التي خطط لها! لا بد من خطة بديلة، كم هي كريمة هذه المصادفات القدرية، أخذ يلعن في سره ما حصل، ها فسد كل شيء؟! لو يموت الآن والده لربما.. كل شيء مرتبك الآن فوق رقعة الشطرنج التي يلعب فوقها باطمئنان ما عاد موجوداً.

غادر المكان حائقاً، يفكر في تعديل مزاجه المتعكر، بعض الضغوط النفسية التي تطارده لا يستطيع الفكك منها لكن لو ارتاح قليلاً ربما

يعرف كيف يحسن التفكير لتجاوز المطبات الماثلة أمامه، المرء عندما يرغب في شيء لا بد أن يقاتل في سبيله.

توجه إلى مكتبه، هناك حيث يرتب فوضاه الداخلية. مزيد من التعقيدات التي لم يحسب لها حساب، طوال الطريق وكل تلك الأمور تشغل تفكيره، لكن حسم أمر الكعكة لن يكون صعباً! ركن سيارته بسرعة، أقفل باب المكتب وشرع يتدبر أي مخرج يجنبه الخسارة، هذه الحياة إن لم تكن فيها الراح، فلا تجعل غيرك يسجل أرباحه فيها على حسابك، هكذا هي المعادلة ببساطة. قام فشغل الغلاية، كوب قهوة بالحليب سيعيد له تركيزه. رفع سماعة الهاتف..

- آلو، أين أنت؟، اتصلت أمس ولم تجبني، ثلاث مرات وكأنك ميت، أكيد سكران أو عندك مصلحة أو (.....).
- أنا دائماً مظلوم ومتهم، حتى لو أحرقت أصابعي شمع لك يا هاني، لكن ما عليك عتب.
- حركاتك هذه مكشوفة يا حاج مرزوق، هذا الكلام لا يفيدك في شيء، تفهم قصدي طبعاً؟
- على عيني، حاضر لك ما تريد، عرفت منها الخطة، بس يجب أن تراعييني في الـ..
- تكلم مضبوط ولا تراوغ أحسن لك.

- الخطة.. منصوره طلبت منى أستأجر (جنغلية)⁽¹⁾ من الشارع حتى يهاجمونك في أي مكان و.. تعرف!
- إم م م م، واضح أنا غلطان، منصوره ليست سهله بالمره. ماذا قالت أيضاً؟
- طلبت منى أن.. أن أحرق سيارتك حتى أحرق قلبك عليها مثلما أحرق قلبها على فلوسها و.. سبتك وأهلك كلهم بكل ما عندها من ألفاظ وسخه، كانت سكرانه، لو شاهدت شكلها. أنتم (البحارنه) عندما تختلفون، تحرقون بعضكم بلا رحمة.
- أترك عنك هذا الكلام الماسخ، راقبها فقط وخذ أتعابك ولا تهزل، هل تريد زياده؟ تكلم؟ لكن لو فكرت تخونني، يا ويلك منى!
- عمي هاني.. أنت كريم، وأنا واحد فقير، شكراً، شكراً، الله يخليك، أنا معك على الخط. واضح أنك مقهور منها وترغب في الانتقام، أنا أيضاً لا أحب عجرفتها وغرورها، على أي شيء هي مغروره؟ لا أدري!

(1) لفظة عامية تعني شباب طائش ومنحرف له سوابق جنائيه.

- أنت.. لا تتدخل في أموري، مفهوم؟ لا أدفع لك حتى تهزل مثل عجوز خرفان. غدًا تأتي للمكتب وتستلم من الموظف أتعابك، أدلف لا بارك الله فيك من شيبه.

عاد ثانيةً يفكر في والده، يتذكر أنه ذات مرة سمع كلمة منفلة من فم أحد كبار السن، كان يجلس في قهوة شعبية، قال: (الوارث كلب)!! وماذا يعني؟؟ فليكن هو ذلك الكلب ولا يفوته شيء أو يكون آخر من يتحرك في التوقيت الضائع، الخطة سوف تتم، أي تأجيل سيعطل كل شيء، حس الصياد الماهر إن لم يمتلكه المرء، يتحول إلى فريسة طريدة بائسة.



(22)

ها تتعري أمامه المفاجأة.. استغرب وجودها في هذا التوقيت، يعرف بأنها لا تحبه بالرغم من أنه والدها. كانت تحمل وردتين مغلفتين وتضحك، أكيد أن وجودها هنا ليس مجرد الزيارة وحسب! هي ذي بالفعل ترمقه بنظرات ماكرة.

- أكيد أنتِ هنا من أجل الـ...

- أخي العزيز هاني، اعترف ولو هذه المرة أنك خسرت، لا أنت ولا عارف ولا حتى أُمي، لكم نصيب من البيت، الموضوع انتهى يا أخي وكل شيء مسجل لي أنا فقط على الورق وبالقانون!

..... -

- أدري أنها مفاجأة من العيار الثقيل، ثم يا أخي أنت لا تحتاج شيئاً من وراث أبونا، عندك استثمارات وخير، اتركني أستفيد، من حقي أراعي مصالحه و..

كان الطرق متواصلاً على باب المكتب، جال بنظراته في المكان وتأكد من تبخر الحلم الكابوسي الذي سلقه على حين غرة! قام يفتح الباب فوجدها أمامه ترتدي عباءة مزركشة كحال (الشيلة) تنحسر عن

نصف شعرها المسرح، مغري كما يجلو للأثنى أن تسحر به أعين الرجال، غير المصوغات الذهبية التي تزين ساعديها والعطر الفواح، منسجماً مع حقيبة جلدية فاخرة أنيقة الخطوط.

- لا تكن عديم الذوق، على بابك واحدة محترمة، ألا تدعوها للدخول؟!

- آسف.. إنها المرة الأولى تزورني في المكتب واحدة محترمة مثلك يا منصوره!

- هه، مقبولة منك يا شيخ هاني، صرت من الكبار في البلد، لا نقدر عليك.

- لا تلمسني يا منصوره، أسلوب الاستهبال هذا مكشوف عندي، اختصري الموضوع ولا توجعي رأسي، وقتي بفلوس.

- فلوس؟، الستة آلاف دينار التي أعطيتك إياها لتستثمرها في البورصة، ردها و.. لا أعرفك ولا تعرفني.

- لا أدري لماذا لا تصدقيني، فلوسك ذابت في البورصة، بنوك كبيرة في البلد خسرت بالمليارات، وأنت تتكلمين عن ستة آلاف دينار!

- عارف أحسن منك. صح أهبل لكن قلبه طيب ولا يؤذي أحدًا، لو خلق من جنسه الكثير في العالم، لكانت الدنيا بخير.

- ما شاء الله، منصوره صارت تتفلسف علينا، خصوصاً من بعد دخول الكنيسة، تمثلين علينا متوالية بحب آل البيت، شيعة غيورة، تعجبيني أحسن ما يكون هههههه.
- أصير مسيحية أو بوذية، أنت بالذات لا شأن لك بي، أغير ديني أو مذهبي، أأأ أنا حرة هل تفهم؟ أنت ما هو مذهبك؟ لغة الفلوس ويس.. أنت شيعي بالاسم يا حبيبي، قلبك أسود تركض لمصلحتك بس.
- هذا الكلام لا فائدة منه، أعطيك الآن ألفين دينار والباقي على دفعات.
- أستلم فلوسي بالتمام، هذا شرطي.
- أخذ يفكر في طريقة لهجتها الهادئة، كان واضحاً مدى ثقته من نفسها، ماذا تحب هذه الملعونة؟ ماذا لو أن الحاج مرزوق - بالفعل - يلعب على الحبلين، يقبض منها ومنه ثم يضربهما في الظلام ويهرب؟! كان يوماً أغبراً، ليته لم يعرف هذه المنحرفة الماكرة، كيف السبيل إلى إقناعها الآن من أجل تفتيت عنادها المستحكم؟
- سارح، تفكر في المصيبة التي عندك؟ لا أريد أن أكون ثقيلة على أحد لا يرحب بي، أعطني حقي وينتهي الموضوع. على فكرة.. سمعت أن هذه الأيام من يتورط بالسياسة ينتهي أمره!

- - أنا ما أتهدد، عندك الطريق واسعة.
- ههههههه. تذكرت أخوك عارف، مسكين!
- لو يحكمونه خمس، عشر سنوات يكون أحسن له من تسكع الشوارع، أخي النعيس هذا حياته لا فائدة منها بالمرّة.
- تصدق؟ إلى الآن أتذكر الشرطة عندما جاءت للبيت واعتقلته، أحياناً يؤنّبني ضميري ولا أدري لماذا فعلت ما فعلت.
- بالعكس.. قدمت لي خدمة يا منصوره. المهم يكون عارف بعيد، أي اليوم أو بعده يمكن يموت، لازم أرتب وضع الورث، لو ضاع الـ.. أحتاج أهندس كل حركة وفي التوقيت الصحيح.
- خيلنا يا منصوره حبايب وخذي المبلغ والباقي أعطيك وصل أمانة بتوقيعي ما رأيك؟
- لأني لا أسعى للمشاكل ولا ينقصني وجع رأس منك أو من غيرك، وافقت.

نصف ابتسامه على وجهها الجميل، لكن لا يبدو فيه شيئاً من براءة النفس حينما تكون طاهرة، ابتسامه تغلف قناع القبح وحسب. تتمسكن لحال عارف هذه المنافقه ولا تدري أنّها مكشوفه، منذ متى العاهره يستيقظ لها ضمير أو قلب؟! حتى رائحة عطرها فاجرة مهتكة في مثل دمامه طبعها، كم يكرهها ويرغب في الانقضاض على هذا العنق

الطويل المغرور ويكسر فقراته. مضحك، كم هذا عبثي.. سلسال من الذهب يزين عنقها عليه لفظ الجلالة!! يذبك الله ويخلدك في ناره يا مجرمة يا ملعونة، مثلك لا يجلب إلا المتاعب. يحدق فيها وأحشائه تصاب بغثيان يدهم أعصابه، كيف يتحمل جلوسها ها هنا؟ لكن لا بأس، المرء لا يتمكن من بلوغ أهدافه أحياناً بدون قفازات قدرة. سيتحملها على أي حال هكذا حتى.. فتح درج طاولته وأخذ دفتر الشيكات.

- منصوره، اتركي عنك الجوال وهذيان (الواتس آب) واسمعيني جيداً، أنا فكرت خلاص، ستأخذين فلوسك وزيادة ولكن أحتاج منك شغلة.
- هذا لا يضر، كل شيء بحسابه يا هاني. أنت واحد تعرف كيف تمشي الدنيا، المصلحة ويس! عن عارف أكيد.
- اتركي عنك هذا الأهبل، موضوعه غير مهم، أنا متأكد أنك أفضل من يقوم بهذه المهمة هههههههه.

*** **

يلهث عبد الغني من الحر ويكاد يمزق قميص السجن وهو يحدق كالأبله في الجدران..

- حر، حر، سأموت يا عارف، أنا متأكد أنهم يتعمدون ترك هذا المكيف القديم الهالك دون تغييره، طبعًا هم يستمتعون بهذا الشواء الصيفي الذي ينزل على أبداننا بلا رحمة، حر. أألسنت مثلي حران؟
- هذا حر الشوارع الذي تعودت عليه أعوامًا طويلة، أنت لم تجرب حياة التشرذ.
- لا أريد أن أجرب شيء، اللعنة (صرخ) حرام عليكم سنموت من الحر يا (.....)!
- عبد الغني، أألسنت خائفًا؟
- يعني ماذا سيفعلون؟ حر، حر سنموت!
- كرهت حياتي.
- ستفرج يا أخي عارف، لا أحد يزورك، معقول؟! أين هم أهلك، أقرباءك؟
- ما عرفتني بعد! لست بحاجة لأحد، فقط أريد أن أغادر هذا المكان التعيس. هنا طير يسكن روحي يريد التحليق وجناحاه مكسوران.
- أما أنا فأحتاج.. أحتاج زوجتي. هذه معلومة خليها عندك، متى ما رأيت أحد هؤلاء (.....) يبتسم في وجهك ومنشرح النفس،

تأكد أنه قبل أن يأتي، فعلها ولا يزال الوخز اللذيذ يدغدغه!
هه يتكاثرون كالدود، همهم علفهم من فوق ومن تحت، الواحد
منهم يجعل زوجته مفرخة أطفال. تتحدث لي عن الثقافة؟!

- عبد الغني، هذه الأرض مجبولة على النبات الطيب ولا يمكن
مهما فعلوا أن يستقيم لهم نباتهم الحبيث. الأيام هي الفيصل.
واحدة من مسرحيات شيكسبير التي..

- الله يخليك يا عارف لا أفهم شيكسبيرك هذا ولا غيره، اعتبرني
واحدًا بسيطًا وكلمني على قدر مستواي.

- حسنًا.. سأريحك من الثقافة ومن شيكسبير، أليست هذه ليلة
الجمعة؟

- نعم.

- اقرأ مقتطفات من دعاء كميل، مرات كثيرة أحس أن هذا
الدعاء يمتلك قوة شفائية تعالج غربة روحي، أشعر أنني بالفعل
ذلك المجرم في دوامة هذه الحياة.

- لا تقس على نفسك، يعني أنا من رجال الله الأتقياء، بمجرد أن
حفظت شيء من الدعاء أو ذهبت للعمرة؟ يا أخي ما أكثر
ادعاء الناس وكثرة ضجيجهم المزيف، ربك يصعد إليه العمل
الصادق وكل ما هو مزيف يحترق في نار جهنم. مشكلتك يا

عارف أنك تثق بمن حولك بسهولة، هذا العالم متوحش، ما دمت هكذا، صدقني، ستأكلك الأفواه وتمزقك بلا رحمة، خذها نصيحة من أخيك الأكبر. اعط ثقتك لمن يستحقها فقط، الدنيا غدارة وما لها أمان. آااا، أنا تعبت من هذا الحر، تصبح على خير.

الآن ما عادت الهواجس خارج الجدار، يعرف أنها هنا ستطن بتفكيره بالمزيد من التعب، هي ذي ثقافة مغايرة لا يحصل عليها من يقلب صفحات الكتب، ثقافة تأتي المرء من أسلوب حياة الناس المكتوين بلظى الواقع ووجع التجربة. ها كل الخيبات تنسكب كؤوسًا في شرايينه، لجدران السجن الآن ضغط نفسي أكبر من أي وقتٍ مضى. أيما صفقة تفاجئ إحساسك على حين غرة، ليس المهم ردها، بل استيعابها ووزن حجمها ثم القبض على زمام المبادرة، كم يكره كل هذا الركام الذي يحاصر صفاءه الداخلي، قنابل دخانية تنفجر في عالمه الأخضر، النوم يجافيه الليلة، يتأبطه وهن الروح، تنوء بأحمالها الحمقاء، تزيد من ورطته هنا. سيكتب شيئًا ما لو دفتره الآن بحوزته، هذا سيخفف عليه لا شك. يفتقد المنامة، تسكن داخل أفكاره، هي نبيذ معتق، من يجرب العيش فيها يحن إليها في مقاهيها الشعبية وأزقتها ورائحة ترابها بعد

زخات مقدم الشتاء، وكل الأطفال الحفاة يتكون جلود أقدامهم تخاطب
المياه السماوية المنهمرة والسخية على النفوس بلا تفريق.

المنامة التي تحمل كل هؤلاء البشر على كاهلها، تلك السيارات التي
تعقب برائحة حلوى (شويطر) تحمله طازجًا للتو وصل من جزيرة المحرق،
دكاكين قديمة تنتشر منها روائح الدقوس والكاري الهندي والزعتر
الشامي، المشي أنيس للروح ومخفف للهم، تحتضن الطرقات كل الناس
بذات الشغف والحنان، لا فرق بين الغني والفقير، الكل متورط، يبحث
عن مكان ليركن سيارته، وكذا شباب طائش يسترق نظرات خاطفة باحثًا
عن الجميلات اللاتي يتوافدن من حافلات الفنادق، سيقانهن العاجية
البيضاء رشيقة الفتنة والحضور، أو احتشاد الآسيويين في الطرقات عند
جامع المهزغ، يشكلون سجادة ضخمة من الألوان والقداسة تفوح يوم
الجمعة لا تعباً بحرارة الشمس. يا منامة يا التي تتشربها الخلايا، عشق لا
يفتر عن اللعب في الخاطر، ظمأ يشرب من أوابي الشمس ويحط على
ضفاف الوجع، وإن هاج في الداخل، فدواؤه المشي بلا وجهة فتأخذه
الدروب كيفما تشاء، ثم تمبط ريح النسيان تبرد جمر الطريق.

هنا انتظار يطفئ الرغبة في الحياة، الجدران هي ذاتها نفس الجدران،
الآن حياة الشوارع والأرقة بلظاها الصيفي ورعونة رطوبتها القاسية،

أرحم من هذا الـ.. لا لن يستسلم، لن يهزموا روحه. يستيقظ عبد الغني من جديد.

- عارف بعدك مستيقظ؟ نم يا أخي؛ عسى العالم يحترق، لا تفكر في شيء ولا تراكم على نفسك الهموم. ربك سيفرجها مهما ضاقت.

- هذا المكان لا أبالي به، أستطيع أن أتغلب عليهم بطريقة تفكيري فقط.

- هذا شعري.. كله صار أبيض، من ماذا هه؟ نصف شعر رأسي الأصلع وما تبقى منه تجارب ومصائب من هذه الحياة. كن صلبًا ولا يتزعزع موقفك.

- صدقني يا أخي لا أستطيع النوم، ليست المسألة صمود في وجه هؤلاء، أنت تعرف أكثر مني، أنهم إذا ما أرادوا انتزاع اعترافات أي شخص، يقدرون ولسوف تعترف بأنك المخطط للحرب الأهلية في أوكرانيا حتى!

- مرات كثيرة تدهشني يا عارف، لا أجاملك، أنت بالفعل تدهشني، هل أخبرك أحد قبلي أنك إنسان عبقرى ظلمتك الأيام؟

- المظلوم الحقيقي يا صديقي لست أنا. بل إنسان هذه الأرض الطيبة.
- لا تتكلم هكذا، الظلم يخيم على... يعني ما الجديد؟
- قال لي جدي ذات يوم.. نحن أبناء هذه الأرض، أجسادنا معجونة بترابها وملحها. إيه، الطوفان قادم وسيدمر كل شيء. عن أي طوفان كان يتحدث جدي؟! مرة ذهب إلى قرية عالي، شاهد هناك كيف يحولون الطين إلى مزهريات وصحون، ولكن تعرف؟ تمنى جدي لو يستطيع عجن الطين بيديه فيخلق جيشًا عرمرمًا يهز الأرض أسفل أقدامهم، هو لا يريد أن يتقمص دور المهدي المنتظر (ع) لكن سيظهر هذا القاع من الشياطين، سيعلم الناس كيف يتمردون على منطلق الانهزام وكل ما هو مزيف يصادر إرادتهم وكرامتهم، سيعلمهم أن لا يخافوا. أمة شجاعة تواجه قدرها وتضحى، خيرٌ من أمةٍ تستجدي الحلول من غيرها كي تعيش في ذل.
- متواضع جدًا، وتقول إنك لا تحب السياسة؟! أتحدّك أن توجد هذا الجيش الخيالي! أعتقد أنك تصير مجنون أحيانًا و.. آسف أ أ أفلتت الكلمة من لساني أنا..

(23)

تضع القدر على موقدها الغازي، مساحة الكشك الخشبي وإن بدت محدودة، إلا أن هناك هامش للحركة، ترتب بعض أكياس البطاطا المقلية والعلكة، اشترت شواية للشطائر مع أغراض أخرى. راضية النفس تستقبل البنات مثل كل يوم حتى تأتي الحافلات المدرسية لتنتشل هذا الحشد البشري، تفتت الحركة فترتخي أعصابها قليلاً، لكن لا مناص لها من السقوط في دوامة الهواجس.

فيما مضى كانت تخفف بعض أحمالها مع منصوره، لكن هذا تغير كلياً. الدنيا تغير بني آدم، صارت في عالم آخر. عالم وسخ ينتفخ بالحرام ويستحم بالمعصية، كم كانت ساذجة يومها لما اعتقدت أن منصوره صديقه وفيه طاهرة النفس والسريرة!

اللقاء كان متوتراً عند عتبة بابها، كانت في أبهى زينتها تتأهب لحفلة ماجنة حينما طرقت الباب.

- أهلاً زكية، ساعيني أنا مستعجلة الآن، عندي شغل مهم، لو اتصلت بي كان أحسن.
- صارت صداقتنا رسمية يا منصوره؟ جئت حتى أسلم عليك أو أشرب الشاي معك مثل الأيام التي.. تغيرت كثيراً.

- وأنتِ صارِ عندكِ كشكِ بدل البسطة، ألف مبروك.
- مجرد كشك صغير أسترزق منه بالحلال، رزق قليل ولكن اللقمة طاهرة والله يبارك فيها.
- زكية ماذا تقصدين هه؟
- خافي ريك يا منصوره، الدنيا ما لها أمان، الواحد لا تغره الصحة ولا المال ولا الجمال، سمعت عنك بعض الكلام ولم أصدق ولكن الآن..
- ومن أنتِ حتى تحاسبيني هه؟ حياتي وأنا حرة فيها، كل الرجال يجن جنونها من أجلي، أكيد غيرانة مني يا مسكينة؟! تضيعين وقتي بلا فائدة. من اليوم مسحت رقمك من هاتفي.. مفهوم؟
- يعني مصلحتك انتهت معي؟ اذهبي في سيبلك، هيا لا تعطلين نفسك من أجلي مع ألف سلامة.

طعم الموقف مر في الذاكرة، أربعة أيام فقط، لكنه يبدو وكأنه حصل اليوم! كل ما هو مغشوش يتضح معدنه ولو بعد حين، لا الأخ يحن على أخته ولا أحد يسأل عن أحد إلا لأجل مصلحة آنية، منصوره الـ.. هذه الساعة نحس ونكد، ماذا يمكن أن يتحمل هذا القلب من منغصات الحياة؟ يقال حلاوتها بالقسوة التي فيها! وهل الفقراء المطحونين يجدون فيها أي جمال؟! مجرد فلسفات كلامية ينشرها الكتاب المحلقين على

الغيم في عوالمهم القصية عن واقع البشر الحقيقي، في تلك المسلسلات
الفائضة عن الحاجة المثبثة على الفضائيات العربية.

*** **

صوت التلفاز مثل كل مساء، لا يعوض صمت الوحدة القاسية،
تسيج هذه الجدران حولها في اختناق طويل محاصراً الروح، قصياً وجعها،
عسيراً شفاؤها تكابد عناء الأنا المجروحة. من محطة إلى أخرى، ليس
أمامها الآن غير طيفه..

نصفه فيلسوف خبير الحياة، والنصف الآخر ضياع في الفراغ من
تقلبات النفس التي تشطح في متاهات الجنون أو الكبرياء لا تدري!
تتذكر تلك الجلسة، كان الوقت عصراً، خفت الزبائن، هي تحديق في
خضرة الشجر، القلب يتجول في أفكارٍ شتى لا ترسو على ضفةٍ محددة
سلفاً، هكذا تلعب بنا الأفكار عندما تتقاذفنا حالة التشتت اللا واعية
أحياناً. وجدته فجأة ينظر إليها بصمت، لا تدري منذ متى وهو يراقب
تحليقها الهوائي بعيداً؟ ما الذي كان يراه في تلك النظرة، ثم أعقبها
بضحكةٍ كتم نصفها وسكت وهو يحجب عنها شكل أسنانه التي خربها
السوس. سألته عن سبب ضحكه وتلك النظرة الغريبة.
نظر إليها ثانيةً، تتذكر كلماته..

((زكية لا تعتقدي أنني أضحك عليك، لأنني لا أحب مجرد أن أضحك على إنسان بلا سبب. فقط أود القول، في رأسي كلام يناوشني ولا أقدر على مقاومة البوح به.. في داخلك يا زكية إنسان جميل قلبه عامر بحب الخير، عينك كأنهما شيء قادم من التاريخ، أنت فتاة من حضارة ديلمون⁽¹⁾ ذكاء يشع من وجهك قد لا تتعرف عليه الناس ولكني أشعر به وأراه فعليًا و..

أحد الزبائن قطع عليهما تلك المسامرة اللطيفة الإيقاع، حيث توقفت أفكاره، بدا عليه الانزعاج أو أمر آخر، لكنه هكذا، حمل حقيته خلف ظهره ومشى بصمت! كيف لتلك الكلمات أن تحفر في جديها عميقًا فتفتجر ماءً، يروي قلبها المشتاق. متى ما وجدت الأنثى من يسقي إحساسها الأنثوي، طارت من روحها حمامات الفرح وحطت على الأرض لتتحول إلى شجرة وارفة الظلال، يطلع زهرها في كل فصول الوحدة والصمت.

بقاء عارف بعيدًا يثير تساؤلات كثيرة، هي تعرف مقدار الورطة التي وقع في شباكها، ولكن الأهم أن لا تطول هذه الورطة أكثر متحدياً صبرها، ها هو طيفه يطارد ليلها ونهارها، حتى في الشقاء، فالروح تنحاز لمن يتقاسم معها نفس الرغيف المر، هذا ما تعرفه الآن وتفتح له أبواب

(1)

عطفها، يتدفق شوقاً لجنح آخر يتم رحلة طيران جميل في هذه الحياة، لا بد وأن تتفنج وتبتسم قليلاً لكيلا تعتل النفس ويدهمها اليباس. الوقوف هكذا في وجه الحيرة صعب وسلي لا يحرك ساكنًا.. قررت أن تستعلم عنه، أي معلومة يمكن أن تفتح ثقبًا ولو صغيراً في جدار قلقها، ما عادت تتحمل ضغطه أكثر.

مع أول تباشير الصباح، يتجدد صحو الروح وكأنها ترتدي ثوباً آخر، تطل إلى الخارج، المنامة تستيقظ في نشاط، كل الجنسيات القاطنة هنا، تستنفر عزمها لتبدأ مسيرة الطحن والتعب. غسلت وجهها، وضعت مقدار يسير من الماء في أبريق معدني على الفرن ولكن.. هذا اكتشاف متأخر وليس في وقته الملائم، أنبوية الغاز لفظت آخر أنفاسها. فكرت قليلاً ثم تذكرت أنها اشترت غلاية كهربائية من مدة، وجدتها رخيصة الثمن ومن المناسب اقتنائها للضرورة في أوقات حرجة كهذه.

استمتعت بتناول إفطارها، بيضاً مسلوقاً وجبناً وشيئاً من الزعتر مع الخبز، وشاي بالحليب، وهي تحرق من نافذة المطبخ نحو الشارع، يصدق حدسها في توقع الوقت من حركة الظل، ما دامت لم تتجاوز السادسة والنصف، من الأفضل ترتيب بعض الفوضى. تنظيف سجاد الشقة ومسح الغبار، بعض العنكبوت الذي استوطن الزوايا، نمل يمارس مهنة القمامة وغير مرحب به، أشياء هنا وهناك وهذه ال.. المجالات التي

قدمها عارف، كذبت عليه يومها، ادعت أنها ستقرأها في وقت فراغها
في البيت!

هو صدق الكذبة وهز رأسه ثم سكت. مجلات مليئة بالصور
والحكايات عن نجوم الفن والرياضة والسياسة، عوالم مترفة بالشراء
والمغامرة، متخمة بالقوة والغرور، الصور تحكي كل شيء، أما هذه..
قطعاً ليست مجلة، هكذا وجدتها محشورة، غلافها أحمر باهت، مفكرة
ورقية متوسطة الحجم وكأنها كنز من الدهشة المتوارية على غير موعد،
كانت تنتظر من يكتشفها.

وكيف السبيل إلى فك طلاسم هذه الحروف وهي لم تكمل
دراساتها؟! تتهجى بعض الحروف ولا تتمكن من تكوين جملة واحدة!
أكثر التحديات تشويقاً إلى النفس هي تلك التي تتحدانا في لحظة
انكسار، نرغب في الفرار منها ولكن تستهويننا ناراها التي نبتغي تجربة
حريقها! هتف هاتفٌ بداخلها أن قبول التحدي أجدى من رثاء النفس
في دوامة عجزٍ لا تقدم ولا تؤخر، الفكرة ستأخذ طريقها في التوقيت
المناسب، بسملة واحدة ومن ثم التوكل على الله تعالى. اليوم الذي
تتمكن فيه من قراءة هذه السطور، تكون قد هزمت الظلام الذي
تخافه، أكيد ستتعرف على نفسها بشكل آخر، ستذوب كل الحواجز

التي تعانيها، أليس مخجلاً أن تتسول من هو أصغر منها كي يقرأ لها بعض الأوراق كفواتير الكهرباء والماء في نهاية كل شهر؟!

الطريق أمامها وإن بدت مليئة بالعقبات، لكن أول خطوة لا بد أن تخطوها، اليوم الذي هربت فيه من جور عمتها، كان التصميم حليفها الذي رافقته حتى آخر لحظة، التعب ضربية حياتية كي نبليغ المراد، هذا ما تعلمته يومها، هي قوة الحياة التي تصطرع في قلبها، لا تعرف اليأس. توقفت أفكارها فجأة تحت رنينه، ما بال هذه الناس تتصل في السابعة صباحاً؟ ربما هو اتصال عرضي من أحدهم أخطأ الرقم.. لكن الهاتف يستمر في إصرار غريب، إنها منصوره!

- ألو، ماذا بك يا منصوره كي تتصلي في هذا الوقت؟ هل أنت بخير؟ هل أنت محتاجة إلى شيء؟

- لا أصدق مسكنة أمثالك، كل كلامك الذي قلتيه، مثل المسامير أنام على وخزها عذاب في عذاب. أنت شريرة، لكن لن تخربي حياتي وأتركك بسلام، هل تفهمين؟

- يهديك الله يا منصوره، أسحب كلامي وسامحيني وسوف أ..
- لا أريد شفقتك ولا أحتاج منك شيئاً.. رفيقك المجنون عارف، هل تذكرتيه؟ يا حرام.. رفيقك المهبول ولا تسألين عنه، مسجون ولا تدرين عنه؟!

- عارف مسجون وسيفرج الله عنه، لا تلعبى بأعصابي يا منصوره،
إن كنتِ لا تزالين مقهورة، ممكن نتفاهم.

- يا غبية، عارف تورط في قصة خطيرة وانتهى و.. أنا من دبر كل
شيء. يمكن ينصلح حاله هذا المجنون ونكسب فيه ثواب
هههههههههههههههه!

- نعم، نواياك خبيثة، اظهري على حقيقتك، هكذا تترتاحين من
حملك، كل واحد سيجازيه الله بفعله.

*** **

- يا بنتي حالة عارف غامضة، سمعت عنه أكثر من قصة، يقولون
إنه متورط في الاعتداء على شرطي، ومرة سمعت أنه ضبط
يكتب شعارات سياسية في أحد الشوارع. لا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم، هذا المسكين لا يستحق.

- الحاج غلوم، أنا السبب في ورطة عارف. دفع ثمن تدخله
وضرب مفتش البلدية عندما صرخت. لو كان صوتي اختنق أو
مت ولا يحصل له مكروه. ذهبت إلى مركز الشرطة، تركوني
أنتظر ساعة كاملة، أخاف عليه، معقول هذا الذي حصل؟!!

- يا زكية، يا ابنتي، عارف غريب عن نفسه مثل هذا البلد لكن،
هل كان يكتب شعارات سياسية على الجدران؟

- عارف عمره لم يهتم بالسياسة ولا يعرف أهلها ولم يشارك في مظاهرة ولا اعتصام، واحد فقير مشغول بحاله.
- توقعت أن أجد عندك جوابًا لسؤالي بما أنك تعرفينه، افتقدته وكأن الأرض انشقت وابتلعته، مسكين عارف، الله تعالى يشمله برحمته ولطفه.

ذهب الحاج غلوم إلى حال سبيله، تركها في دوامة جهنمية، هي ذي تنتظر في فراغ الألم ولا صلاة تزيع عنها عبء الذنب الذي تشعر به يحاصرها، لا تزال ترى أنها السبب فيما حصل لعارف. يا لها من مفارقة ساخرة.. عندما بدأت الحياة تبتسم في وجهها، معتقدةً أن هناك من يهتم لأمرها ويحن على ضعفها وتتوارى في صدره وتحتمي بظله، تكون هي السبب في ورطته ووجعه، تفصله مسافات من العذاب، هي من أشعل شرارته الآثمة! استسلمت هكذا لنزيف روحها وأخذت من شظاياها المتساقطة بكاء، ما اختارت توقيته الآن! وهل نختار توقيت ضعفنا عندما يثقل كاهلنا وجع الأيام؟!

هنا كل تقاسيم الروح تتصدع من ضربات الأيام، لم تظن عليها ولو بشيء يسير من الفرح؟ لم هكذا يباغتها الحزن سريعًا، يخطف بجنتها ومغرقًا إيها في الظلمة، وحيدة في سجن (أناها) المعذبة؟ الدنيا تدور

خطفًا في رأسها، هي تعرف هذه الإشارة تحديداً، تدهمها آلام الدورة الشهرية، بسرعة أقفلت كشكها، الآن لا بد من اللجوء إلى البيت.

في العادة تبحث عن سيارة نقل مشترك أو تركب النقل العام، ولكن لا مزاج عندها الآن يستوعب توقيت الدورة وأوجاعها ثم الوقوف في وجه هذا الصيف الضاري، تحترق جراء حرارة الشمس وهي متوارية في عباءتها، جوف القماش الأسود الذي تتقبله النسوة سجنًا لطيفًا من وقار مجتمعي مغلف بالأعراف والتقاليد، يشتعل سخونةً وعذابًا في صمت! الألم هكذا يتمرد شيئًا فشيئًا، متى تصل إلى البيت؟ الحمد لله، سائق الأجرة لم يجادل وقد اقتنع بالمبلغ الذي دفعته حتى من دون النظر إلى العداد، ربما هو لاحظ مدى حرج اللحظة التي تترنح فيها؟ مقدار الألم الذي يطحنها تجلت أماراته على وجهها.

والآن؛ تحذ آخر.. صعود هذا السلم حتى الطابق الثاني يعني المزيد من تقلص عضلات الحوض، والوجع يأكلها في لقيمات أكثر شراهة. وصلت إلى شقتها، هي ذي رسالة أخرى عند عتبة الباب من المؤجر. اللعنة على طمع البشر وجشع أعينهم التي لا يطفى شهوتها إلا التراب! التقطت الظرف ودخلت في الحال، لترمي جسدها لأقرب كنية، أهي نامت من أثر نزول الدورة أم أغمي عليها، بالضبط لا تدري.

استيقظت على صوت جلبة تتسرب من الخارج، أحد المراهقين يستعرض قدراته البهلوانية المزعجة وهو يصعد حشرة آلية، يتميل بدراجته غير مبالٍ بتهديد بعض الجيران، كالعادة مثل هؤلاء المراهقين يقضون متعة أوقاتهم كيفما اتفق وبأي أسلوب، الدراجة حتى غير مرخصة ولا يمكن النيل من ركبها، لا تحمل أية هوية، ولهذا فإن تهديد الجيران فارغ بلا نتيجة تذكر!

أغلقت النافذة وقد خفت حدة الصوت عندما انصرف ذلك المراهق المشاغب من الحي.. تشعر الآن بهدوء نسبي يجتاح جسدها، دخلت الحمام بعض الوقت ثم خرجت. شد انتباهها الظرف، تذكرت الآن، هي على الأرجح رسالة من مالك العمارة، تنبيه إلزامي بانقضاء المدة على آخر شهر قبل رفع سقف الإيجار. ستسلم الرسالة إلى رباب طالبة الصف الثالث ثانوي، منامية طيبة الروح والمعشر، تذوب خجلاً ورقة، يمتقع لون وجهها لو سقطت قطرة عصير على زيتها المدرسي الأبيض، تتكلم بصوت منخفض، لها عينان عسليتان وحاجبان صغيران، تنزوي عن رفيقاتها لتقضي وقت انتظار الحافلة في القراءة.

تعطيها الرسالة لتفك هذه الحروف ولكن.. نظرات بعض الطالبات الفضولية، مسامير من الإحراج لا تستطيع تفاديها. هذا سيتغير بلا شك، إصرار وعزم يتوقد في داخلها، قررت أن تريح التحدي حتى لا

تحتاج إلى صدقةٍ من هذا أو ذاك ممزوجة بعطف مقيت وثقيل على
روحها المكسورة.



تفاصيل المكان فقط تغري، قصور مترفة حقًا كما في الخيال فنادق الخمس نجوم، وها هنا خادم خاص يفتح باب السيارة المرسيديس، ثم يسارع إلى الباب الزجاجي ليفتحه هو الآخر، كأن المكان جنة من البريق والأضواء والعطر، وهي ذي موظفة أجنبية شقراء بفستان السهرة تجلس في لوبي الفندق حيث تمرر أناملها فوق لوحة مفاتيح البيانو تعزف ألحانًا من السحر.

موظفة أخرى ترشدها إلى المصعد، ينتظرها مثل الزبون في الأعلى كما أخبرها هاني. هنا عالم آخر حقًا، كثيرًا ما كانت تحدق في هذا الفندق من بعيد، يتعملق في المنامة مندسًا بين العمارات العتيقة والأحياء السكنية المتواضعة التي فقدت ألوانها، هي هنا أخيرًا مثل أميرة عصرها، تختال في فستان باهظ يتناسب والرجل الذي ستلتقيه. هاني لم يزودها بالتفاصيل الكافية التي تروي ظمًا فضولها، لكنه تكلم عن رجل أعمال خليجي، سقّف استثماراته أرقام خرافية مرعبة، رجل محبط من زوجته و.. هاني ماكر ويجسبها صح، اصطياد رجل محبط وإحكام الفخ حوله أجدى من عشرة مساكين، هم حثالة سكارى ومتسكعين، بعضهم

ما عنده يدفع في ذلك الزقاق التعيس. نعم حديث هاني منطقي، وأي مكسب نصف بالنصف.

خطوات وها هو أمامها، ما كانت لتتصور أنه حجز جناحًا كاملاً من أجلها.. هذا الرجل مجنون أم ماذا؟! زهور كثيرة عند مدخل الباب، شيء مثل السحر أو الحلم يجعلها تتساءل عن الرجل. قالت لها الموظفة أن تستمر في المشي ثم تعطف يسارًا، هو هناك ينتظر!

كان يلبس ثوبًا حريريًا أبيض، دخان سجائره يختلط مع عطر رومانسي خفيف وقامة - كما يبدو - مديدة من قفا صاحبها، مستغرق وراء شاشة كمبيوتر محمول وصوته الرجولي الواثق بكل هدوء يتحدث إلى سماعة الهاتف الثابت:

- نعم كما أخبرتك، الصفقة جيدة ولكن أكثر من عشرة ملايين ريال، الموضوع يحتاج إلى دراسة جدوى، وأنت تعرف ظروف السوق، كل الذين كانوا في دبي يا هربوا أو ضيقتهم السجون والكثير منهم باع بثمن التراب وانتهى، ولا يفوتك.. هناك أجنب انتحروا. لا لا؛ أنا وضعي سليم وأخذت احتياطاتي، أربعين سنة في السوق علمتني الكثير و.. أكلمك بكرة عندي سهرة خاصة مع السلامة. ياااااااه، أنت منصور؟!

- عسى بس نكون على قدر المقام؟

- هاني واحد إبليس، أحلى من الصورة على الجوال، هل أنت مرتاحة يا منصوره في المكان؟ أم..
- كأني سندريلا في الخيال، يعني كل هذه التكاليف من أجلي؟! قام من مكانه وجاء بعربة مدولبة، معدنها الذهبي يتناغم والإضاءة الحاملة، صفت فوقها قناني مشكله وبعض الفواكه والمكسرات..
- طبعًا.. قدرني نفسك جيدًا ولا تنتظري هذا من أحد، على فكرة أنا لا أتناول هذه الأمور، خمره يتلذذ بها الواحد وينتشي وبعدها يدفع ضريبتها بالمرض، ولكن إن كنتِ ترغبين.. فلا حق لي أن أمنعك.
- أنت غريب وساحر و.. ديمقراطي!
- واقعي كليًا. أكيد تتساءلين ما الذي يدفعني لكي آتي بلكم، وأترك تجارتي واستثماراتي وزوجتي وأولادي؟
- أحضر جهاز الكمبيوتر الخاص به، ووضعها على طاولة صغيرة وأخذ يعرض بعض الصور..
- هذه صور زوجتي مع واحد كلب، خيانة قدرة من الدرجة الأولى. يعني ماذا تفعل زوجة محترمة مع غريب في هذه الجلسة الخاصة؟! الخاصة؟!!
- تعبان نفسيًا أكيد يا.. ما عرفتنني على اسمك.

- أبو طلال.
- يا أبو طلال.. دخلت بجمرة هكذا، واضح أنك محبط أو غاضب أو.. يمكن تريد أن تنتقم.
- المرأة الذكية تعجبي، ولكن أحذر منها.
- هذا يعني أنك خائف.
- سكب لنفسه قليلاً من العصير وتمشى في المكان..
- منصوره.. هل أنت متعلمة؟ عندك ثانوية عامة أو خريجة جامعية يعني؟
- ههههه لا شيء من كل هالكلام. عندي شهادة إعدادية بس.
- أنت أول زبون عندي يسألني عن مستواي التعليمي! ههههه.
- ماذا بك؟ مستغرب؟
- كأنك عارضة أزياء يا منصوره، عندك وجه إعلامي هل تعرفين ذلك؟
-
- يمكن أربكتك بهذا الكلام ولكن عن جد.. أنا قلبي انفتح لك، هاني على حق حين وصفك.
- وماذا قال؟

- ساحرة وتشلين حركة الواحد من أول نظرة، وفي نفس الوقت؛
لست من النوع السهل مثل أية امرأة عادية! أنت.. الجسم
والطول والنظرة.. عارضة وعندك كل المؤهلات المطلوبة كما
أرى.

- حقًا؟! ههههههه والله دمك خفيف يا أبو طلال. خلاص أنا
عندك، خذني أينما تريد.

تطل من واجهة الشرفة على فضاء المنامة، الدور العاشر رفاهية لمن
يدفع! أكلما ارتفع بني آدم عن الأرض زادت أنفته وغروره؟! تضحك
في سرها لهذا الصباح، تطير من الفرح. أليس هذا هو النعيم على جنة
الأرض؟ أبو طلال ليس رجلاً عادياً ممن يمرون بجمر سريرها، إنه شيء
آخر. تحدق في بريق الزجاج الذهبي المنعكس من بعض الفنادق المجاورة
والبنايات العالية في محيط المنطقة الدبلوماسية، هكذا تبدو الشمس
تغازلها الآن بكل هذا التدفق الجميل من البريق، هي شهرة وفلوس وأيام
جميلة قادمة! حدس المرأة لا يخطئ، تقرأ الإشارات الخفية كيفما توارت
عن الأنظار فتقتنص ومضاتها وتفك اللغز. لو أن أبو طلال هذا كما
قال، لربما.. أخذت هاتفها الجوال وكتبت رسالة "واتس آبية" (هاني يا
خطير.. ماذا فعلت بي؟ والله هذا الرجل منجم ذهب. صديقك هذا

أعطاني شيك على بياض. خلاص.. أنت هكذا سددت ما عليك من
فلوس وألف شكر يا هاني).

فوجئت به يحتضنها من قفاها ويغرق في تقبيل عنقها، لحظات من
الذوبان الشبق ورقص الجسدين في جنةٍ ليست على الأرض.

- كم أنت رائعة يا منصور، أستطيع أن أنتج عطرًا بهذا الاسم
ونسوقه في باريس ولندن وواشنطن ودي، حقًا أذهلتني و.. كم
الساعة الآن.

- النهار طويل، الثامنة والنصف بس. هل مللت مني بهذه
السرعة؟ ثم أنك دفعت أكثر مما أستحقه.

- لا تفهميني غلط يا حلوة. فقط جهزي نفسك سنسافر بعد..
بعد ساعة على الأكثر.

- نسافر!؟

- ماذا قلنا ليلة البارحة؟ إياك أن تتراجعني، أنا أحب الناس التي
تتخذ قرارات مصيرية حاسمة بلا ممانلة وبكل شجاعة.

- أبو طلال، أنت أخذت كلامي جد؟ أنا لا أصلح عارضة أزياء
ولو عرفتني (جويل بخلق) لما وافقت على استضافتي في برنامجها.

- جويل أو أي مشهور في هذا العالم، كلهم يا منصور مصنعين.
نعم لا تستغربي كلامي، حتى الحكام الطغاة تصنع طغيانهم

شعوبهم، عندما يتركونهم يراكمون على ظهورهم وأعمارهم فواتير
الخوف والعبودية والجشع والفساد، فيتعملق الحاكم ويصير
فرعون زمانه! بعض الديكورات الخفيفة ودورة مكثفة في اللغة
الإنجليزية والإتيكيت وتعلم مواجهة الكاميرا والمشية الساحرة
وتخفيف وزن، أكل صحي و(بوتكس) في الصدر والشفاه ثم
تصيرين صاروخًا من الفتنة الذبابة على الشاشات
والصفحات!

- أفكر في الموضوع على الأقل، أنا..
- أنتِ تملكين فرصة واحدة، نعم أو لا؟ البقاء هنا في المنامة
بصراحة..
- تقصد أن الوضع غير مشجع؟
- اصنعي مستقبلك ولا تنتظري من أحد أو تعولي عليه، هذه
نصيحة مجانية مني يا.. حلوة هه ما رأيك؟ إمم، أعتقد هذه
الابتسامة تخبرني بموافقتكِ صح؟ الباب يُطرق، إفطارنا جاهز.
- وهذه أولى الخطوات نحو تخليق آخر، جاهزة الآن أجنحة الحلم
لتغادر المنامة، النفس تتعلق بالسفر ومتعة الاكتشاف. ومتى هي سافرت
كما ينبغي؟! عندما كانت تحت سقف بيت والدها لم تسافر إلا
لوجهتين، المرة الأولى؛ كانت زيارة المدينة المنورة، وقتذاك كانت طالبة في

الصف الأول الإعدادي ولم تستمتع بالسفر بسبب المرض الذي داهمها في الطريق. أما المرة الثانية؛ فكانت إلى العراق وكانت تعمل كطباخة مع حملة للسفر، حاصرها الإجهاد ولم تستمتع بالسفرة كلياً!

مكسبها الوحيد هو تعرف عائلتها على ذلك العجوز المتهالك والذي فيما بعد أصبح زوجها أو بالأحرى أصبحت هي ممرضته برتبة زوجة مع وقف التنفيذ لا غير! هي تعرف مدى تعاسة التجربة وتلمس جروحاً غائرةً في ذاكرتها، لذلك حان وقت التغريد خارج سرب المعاناة، مغادرة هذه الأرض المسكونة بالعذاب والحياة. هي أصلاً انفصلت عنهم وزهدت فيهم منذ أن رموا بزهرة شبابها تحت قدميه، كانت وقتها مدفوعة برضا والديها تسيرها قوة غبية من بلهها المراهق لا يعرف شيئاً عن الحياة، فما عرفت حجم المأزق إلا في التوقيت الضائع، فكرهتهم ورفضت ترك بيت ترملةا. والآن ها هي ذي فرصة أخرى كي تحزم حقائب الماضي وتتنصر لقلبها اليافع حتى يبدأ مغامرة السعادة واكتشاف عوالم جديدة.

ضحكت في سعادةٍ غامرة، تتذوق تفاح اللحظة وعسل القادم من الأيام، عرش الفرح أمامها وأبواب لا حصر لها طوع خيارها هذه اللحظات الفاصلة..

- خلاص يا أبو طلال، أنا معك وكما تقول أمي (اللي ما يدور أدواره يروح عمره خسارة)⁽¹⁾ أصلاً أنا مليت من هذا البلد، العيشة فيها تقصر العمر، أنا معك ومستعدة أسافر لأي مكان.
- تعجيبني يا منصور، أحب المرأة الجريئة والمتحررة والتي تعرف ما تريد ولا تتردد في اتخاذ القرار الصبح في التوقيت الصبح. غداً تقولين أبو طلال قال وصدق.
- يا خسارة صحيح، لكن خلاص خرينا نضرب الحديد وهو حامي.

- أعرف هاني من خمس سنوات وندمان أنه لم يعرفني عليك من قبل!

- كل اللي فات يتعوض يا أبو طلال.

قرب جهاز الكمبيوتر الخاص به إلى حيث يجلسان، بينما الخادم الخاص يعتني بصب الشاي، ثم ينحني بلباقة خفيفة ويتراجع بضع خطواتٍ إلى الوراء وعلى سحنته السمراء ابتسامة هادئة وهو يغلق الباب خلفه.

(1) مثل عامي بحريني يقصد به.. من لا يتحول في محيطه أو يسافر ويكتشف العالم من

حواله، يذهب عمره هباءً وخسارة!

- تكلمي عن ماضيك يا منصوره، هذا إذا ما كان عندك مانع طبعاً؟ أحب سماع قصص الأشخاص الذين هم حولي، يعني تقدرين تسمين هذه العادة، فضول أستفيد منه وأضيفه إلى رصيد خبرتي في الحياة.
- ماضي.. ولا أتعس منه، مجرد واحدة عادية في زقاق بالعاصمة، نصف شبابها حسرة وضياح. لا تغرك هذه الضحكة الساحرة كل هذا ديكور بس للشغل.
- هاني أخبرني أنك..
- مسيحية.. أنا فكرت في تغيير ديني ودخلت الكنيسة، المكان الذي تسكن فيه أوجاع نفسي ربما، لكن لم أقرر بعد، يمكن أن.. يعني ماذا أقول لك؟ هواجس أشياء معقدة مما تفكر فيه واحدة تعيسة مثلي.
- مسألة المعتقد يا منصوره، أمر خاص بكيونونة الإنسان، لا تسمح لي لأحد بمحاسبتك فيما تعتقدين.
-
- منصوره، واضح أنك منزعجة و.. لا لا داعي لهذا.
- أبكي نعم.. علي حالي! خليني أتكلم أبو طلال، هكذا أحس براحة غريبة، أنا لم أعرفك إلا من ساعات فقط، ولكن في

داخل نفسي صوت يقول لي: تكلمي بصراحة ولا تمنلي على هذا الرجل الطيب الجالس أمامك.

ما تعرف هي كم مضى عليها من الوقت، كأنها المرة الأولى التي تتكلم مع نفسها بهذا الوضوح، الأمر أشبه ما يكون بانتزاع نصال تتموضع في قلبها وروحها هي المنبوذة المقبحة العاصية الجرمية، يكتوي إحساسها الآن و.. الحمد لله أن أبو طلال أوقف هذا الحريق الناشب في ذاكرتها، الخل المنسكب على جروحها، أوقف كل ذلك، وعلى وجهه ابتسامة مطمئنة..

- من اليوم أنتِ إنسانة تولد من جديد، على فكرة.. دموعك خربطت ماكياجك و.. لكن، المهم الواحد يرتاح من ضغوطه. كل هذا الكلام الذي قلبته أريد منك أن ترميه خلف ظهرك يا منصور، هيا نستعد للسفر.

- إلى أين؟

- بيروت.

- بيروت؟ ماذا أفعل هناك؟

- نصنعك هناك من جديد، ماضيك هنا في المنامة نتركه هنا في صندوق ونرميه في البحر و.. باي باي، ولا تعودني تذكرينه بتاتاً، الآن؛ ترجعين لمكان سكنك لتأخذي جواز سفرك فقط!

- هل فيه أحد يسافر بلا حقيبة؟ ..
- مجرد ملابس وحاجات، كلها نشترىها لك من سيتي سنتر وكل ما تحتاجين. منصوره، الوقت يسبقنا هيا هيا يا حلوة أو أغير رأيي؟!
- لا، لا أبو طلال الله يخليك هذه فرصة عمري. عمري اللي ضاع.
- وبعدين يا منصوره..؟ واحدة شباب وحلوة مثلك تقدر تعوض اللي فات، الدموع لا تنفك الآن، هيا هيا، حتى لا يفوتنا موعد الطائرة.



(25)

- قرفص بالقرب منه وهو يحك شعر رأسه الكثيف، يتشاءب ثم قال:
- الملاعين.. والله نسيت طعم الأكل من هذا المكان الزفت، أمس عندما جاءت أمي وأختي، صادروا منهما الأغراض التي كنت أحتاجها. برياني دجاج يا عارف حرموه على بطني. أكيد مليون في المائة انبطنوا به.
 - لا تنسى أننا فئة ضالة ونُشتم من على منابرهم كما تعلم.
 - يا أخي.. أنا يائس من الحياة هنا، والله لو أحصل على إقامة في سايبيريا، لغادرت بلا رجعة!
 - خليك من هذا الكلام يا عبد الغني. تكرره من مدة على الفارغ وبلا معني يا أخي.
 - مليت مني يا عارف؟ يعني الواحد ماذا يفعل غير أن يسلي نفسه بالكلام؟ كلام فارغ أو جاد، يعني لو أنا عندي حيلة غيره أصبر بها نفسي لكنت.. والله لو أحصل على واحد يلفني بجزام ناسف لما ترددت في تفجير نفسي في "تل أبيب"، ولا هذه العيشة.

- حَقِّكْ عَلَيَّ، ثُمَّ يَا أَخِي أَنْتَ.. اللَّهُ يَهْدِيكَ أَلَا تَقْمَلُ مِنْ تَرْدِيدِ
نَفْسِ الْكَلَامِ أَنَا وَإِسْمَاعِيلَ وَعَبْدَ النَّبِيِّ وَجَعْفَرَ كُلَّنَا نَسْمَعُ مِنْكَ
نَفْسَ الْأَسْطُوَانَةِ، أَلَمْ تَتَعَبْ؟! تَعْرِفُ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ يَظُنُّ أَنَّكَ كَبُرْتَ
فِي السَّنِّ وَخِلَاصَ صَرْتِ مُخْرَفٍ؟ اصْبِرْ مِثْلَ غَيْرِكَ، مَنْ يَرِيحُ
وَمَنْ يَخْسِرُ؟ مَوَالَاةٌ أَوْ مَعَارِضَةٌ، مَا عَادَتْ الْمَسْأَلَةُ تَهْمِنِي وَلَا أُرِيدُ
وَجْعَ رَأْسٍ، مَصِيرُ هَذَا الْبَلَدِ سَيَحْتَرِقُ بَعْنِ فِيهِ وَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ!

- تَغَيَّرْتَ يَا عَارِفُ؟!

- هَذَا أَنَا كَمَا عَرَفْتَنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَاحِدَ مَجْنُونٍ رَسْمِي!

- صَرْتُ عَصْبِي الْمَزَاجِ وَمَتَشَائِمٍ. أَوَّلَ مَرَّةٍ كُنْتُ مَخْتَلِفٌ، كُنْتُ غَيْرِ
مِبَالٍ بِشَيْءٍ. تَتَذَكَّرُ يَوْمَ قُلْتَ لِي: إِنَّكَ رُبَّمَا تَتَعَلَّمُ شَيْءًا يَحْرُكُ
مِنْ السَّجْنِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يَعْتَقِلُ رُوحَكَ. لَمْ أَفْهَمُ كَلَامَكَ
الْفَلَسْفِيَّ هَذَا وَلَكِنْ.. مَلَلْتُ أَنَا كُلَّ هَذَا، هَذِهِ الدُّنْيَا حَقِيرَةٌ
وَعَاهِرَةٌ.. اللَّعْنَةُ لَا فَائِدَةَ مِنْ كُلِّ هَذَا الْهَرَاءِ!

لهجة عبد الغني بدت محطمة كليًا، هو أيضًا لا يدرك بأنه قد تغير، ما
عاد يشارك في حلقة الدعاء التي يتصدرها إسماعيل، بات يفضل العزلة
ويترك نفسه متخندق في صمته لا يرغب في شيء! حياة السجن ليست
نزهة ولا تجربة يمكن أن تمر على الذاكرة بدون أن تلتهب وشمًا على
جلدها، وشم محروق بالمرارة، شيء يعرف بأمره يكاد يفتك بعقله الآن

كمثل تلك العقاقير التي كان يُجبر على تناولها يوم كان هناك، حتى شكل المستشفى لا تنساه الذاكرة أو تتصالح معه. ذاكرةٌ لا تُخبر صاحبها طبعاً بأنه مشوش الرؤية، بل تستمر في نزيها المولم الملعون.

تخطر عليه صورة زكية قانعة الحال تبسّم في وجه قدرها، تلملم شظايا أيامها وتعيش رغم كل شيء. أين هي الآن؟ وما هي أحوالها؟ كأن هذا المكان كوكب آخر.. يشعر بخنين غريب لتلك الأيام التي فرت منه، يعود ككل مرة يتحسر طعم الأشياء التي اختبرها، وهل في وسع الذاكرة إلا جر صاحبها نحو تخوم التجارب واجترار بقايا ملوحة أو حموضة من هذا العمر الشقي؟! شيء يشبه حالة العبودية لهذه الذاكرة، تصر على استفزاز أية لحظة هدوء داخلية تبرد احتقان الروح المتعبة، تشاكس هنا وهناك لا يهدأ لها حال.

زكية.. طالما كان يتحاشى الذهاب إليها في وقت ازدحام الطالبات ويؤجل بعض جوعه حتى يغادر صخبهن من المحطة، يعرف أنه سوف يثير قرفهن بشكله الفوضوي ولا يرغب حتى بإحراجها في تلك الصباحات. تبقى الآن تلح عليه ويتعطر من طيفها شيء من الفرح المسروق.

الذرة المسلوقة شكلها شهبي في قدر الألومنيوم وهي تحرك تلك الملعقة البلاستيكية وستارة بخارية خفيفة تتصاعد قبالة وجهها الطيب

القسمات، تستمهله بعض الوقت ريثما تجهز الطبخة، تدعي أنها أعرف امرأة في المنامة بسر الذرة، ولهذا يقصدها الكبير والصغير، الفقير والغني، هي كما تقول: تحفظ السر من تعويذة أعطها إياها أحدهم في الحلم؟! كانت تقول ذلك على سبيل المزاح فقط ثم تضحك كي تتحاشى كشف سر مهنتها لا غير، التفاف حاذق تحسن تربيته لتجيب سائلها بديلوماسية فطرية.

هي مثل باعة الحلوى في المنامة، لا يكشفون سر المهنة إطلاقاً وهو ما يجعل عامة الناس لا تنقطع عن شراء الحلوى، نعم يستطيعون تقليدها في البيوت مع مقدم شهر رمضان، ولكنهم يفشلون في اصطياذ أصالة سر الطعام! زكية ليست من النوع السهل، فتوقع نفسها في مأزق مع من يستدرجها بالكلام، هي شيء آخر، خيالها الآن يسلي وحدة هذه الروح، تكابد قحطها بين هذه الجدران الرمادية.

بلا شك ما اختاروه هكذا عن عبث وارتجال، بل عن قصد وهدف بعيد الغور. حتى يثبتوا في روع السجين أن المكان هنا.. حفرة من اليأس، بقاياها رماد ونهاية أو ببساطة لا شيء، عديمة تقمّع استيقاظ الأمل لو تسلل إلى النفوس المتعبة المحاصرة!

زكية.. هي لون الحياة، تستيقظ كما فراشة، ترفرف حوله ساعة الضجر والامتلاء من هواجس الخيبة والوجع. هي قصية البعد وحاضرة

قريباً من تغريد هذا القلب المشخن، جراحه ها هنا لا تبرأ في قسوة
الظلام. هي ستكون كل ألق القصائد وفرحها، تتهكم على النهارات
الطويلة هنا وعلى تكرار الأيام. هي ذلك النور الوامض في البعيد من
السماء، تهدي طمأنينة الرجاء، تسير به نحو كونٍ آخر وكأنما هي آلهةٌ
تنشر الرحمة لرعاياها المطحونين.

يعرف الآن أهما.. أيقونةً للفرح في بؤس المكان، كأنما هي حاضرةٌ هنا
توزع هدايا الأمل على الوجوه البائسة، تتهجد صلوات وطقوس أخرى،
تنزل مثل رذاذ المطر على الأرواح تشتاق عناق السكينة والظهر، كم
يحن إلى سحنة وجهها السمراء ويعود يتخيلها في ضيافة ظلال أشجار
الحديقة في بداية تلك الصباحات.

*** **

وكيف للسكينة أن تحل في المكان؟ انتشر الخبر في مركز الشرطة..
عبد الغني غرز في حنجرته جسم معدني من وراء باب الحمام، فقامت
قيامة أقدام العسكر، استنفاراً في المكان. الرجل لفظ تعب حياته واختار
حنفه، تذكرة موتٍ واحد، عذابٍ واحد ولا دوامةٍ جحيميّةٍ تطحن في
العمر ها هنا بعد الآن، أما كان محبطاً حد الفجعية من كل ما يحصل!؟

هو ذا قد بلغ آخر المطاف في رحلة المعاناة، الآن ما من شيء يقلق بشأنه، ما عادت روحه رهينة الوجد، تكسر الروح قيودها وتحرر من الأرض، مغادرةً لأفقٍ آخر فلا تعود محاصرة.

نذف دمه على الأرضية الأسمنتية القاسية، عبد الغني الآن حراً! فصرخ أحد السجناء في وجه عارف..

- نعم.. ماذا تملوس يا غني؟! هؤلاء أنت تراهم، السماتة في أعينهم وسعداء الآن.

- عبد الغني الآن حر، وهذا هو مهر حريته، لا أحد الآن يستطيع أذيته.

عمت المكان ظلمةً أخرى وهو شرع يحدق ذاهلاً في الوجوه، ثم غرز رؤوس أصابعه في شعر رأسه بعصية وهو يشد بهستيرياً يعلو صراخه متردداً في المكان، انهار على الأرض وابتلعته موجة ضحكٍ غريب، فبدأ ينطح الجدار مرة ثم مرتين بعنف أكثر فأكثر قبل أن تحاصره الأيدي لتمنعه.. يكاد ينطفئ أمامه كل شيء، هو يعرف الآن شيئاً وحيداً يشاغبه في هذه اللحظات، ظل الفزاعة ضاحكاً يستحسن حركته ويصفق، زكية هنا طيفها، ينتابه الخوف، والشهقة تنفلت من دموعها القلقة، هاني يرفع يديه معلناً أن لا حيلة لديه حيال الوضع، يتبرأ من

مسئوليته. أما منصوره فترفع كأساً من البيرة وترسل له قبلة قبيحة في
الهواء، يحل صمت ثقيل وينطفئ كل ما حوله الآن.



(26)

- خلاص يا منصوره.. نسيت خلفك كل شيء؟ ثلاثة أشهر وتبعين وراءك كل ما سبق. لكن أنا السبب، عندما اضطررتني الحاجة لك.
- هاني.. قصدك واضح عندي. أعتقد سبق وتكلمت معك في الموضوع. يعني تتصورني عندي قدرات خرافية حتى.. قلت لك أن حجرة العناية المركزة التي رقد فيها أبوك المرحوم كانت فيها كاميرا، أتعرف معنى كاميرا؟! هذا الكلام لا يفيد الآن حبيبي، آجرك الله. عرفت بالخبر لكن نسيت أعزبك بسبب انشغالاتي الكثيرة.
- لا تكلفي نفسك كثيراً، أبو طلال كفى ووفى، هاتف التعزية وصلني وانتهت القصة. كيف هي بيروت؟
- الجو جميل، ولكن منظر البنايات في بيروت الشرقية أوف.. أول مرة أشاهد كتل الأسمنت والحرسانة منخولة بالرصاص، تذكرت أيام كنا نشاهد نشرات الأخبار عن الحرب الأهلية اللبنانية عبر تلفاز بيت الوالد.
- هذا من الماضي، اتركني عنك هذا الكلام، ما أخبارك؟

- مرهقة، متطلبات معهد التدريب كرهبة وقاسية، أتعلم الأكل بالشوكة والسكين مثل الكبار، وكيف أمشي بأنوثة ورقة و.. هذا مرهق هاني.
- أبو طلال يدفع، لن تخسري شيئاً، أصلاً أنتِ محظوظة تتعرفين على رجل أعمال كبير مثله. الرجل عنده استثمارات في صناعة الملابس والأزياء والزجاج وسلسلة فنادق أربع نجوم على مستوى الشرق الأوسط. العام الماضي اشترى أسهماً في شركة جينيرال إلكتريك الأمريكية. الرجل لو أراد.. يقرض حكومات دول مفلسة.
- حقاً يا هاني؟!
- ههههههه يا منصور المسألة كلها أبعد مما تتصورين، لا تستعجلي، ستعرفين الرجل. من هو في مقامك، فتحت لك أبواب الجنة!! مرة ثانية لا تبخلي علينا باتصال، وصلتني الصورة. فارق رهيب بين الأمس واليوم، كأنك ملكة جمال تصعق عشاقها. صفحتك أكثر من رائعة.
- ذكرتني بالفيس بوك وعالمه الساحر، أحد هؤلاء المخابيل مستعد يدفع أي رقم فقط ليأخذ معي موعد تصور!؟

- ركزي على عملك مع أبو طلال وتكسبين ذهباً، غداً تتذكرين كلامي. الواحد أحسن شيء يعمله، يتفقد أين تكون مصلحته ولا يضيع وقته ثم أن... الصوت يتقطع، منصوره، أتركك الآن، مع السلامة، نعم سنتكلم في وقت آخر.

أقفلت هاتفها الجوّال، وقفت قبالة مرآتها تتأكد من هيئتها.. فقدت بضع كيلوجرامات من وزنها، تبتسم بكل ثقة وغرور، لا شيء يدعو للقلق، صحة وجمال وثروة وتألّق باتت تعرف مفاتيحه ها هنا. لكن ما لا تعرفه هو تزايد هذا الحنين الجارف للوطن، تمر عليها صور كثيرة تشاكس ذاكرتها، والدتها وأخويها وأختيها و.. يا للذاكرة المجنونة التي تتواطأ مع الغربة! ها هي تتذكر تلك الابتسامة البلهاء المسكينة.. عارف، ندبة موجعة في الذاكرة، إثم لا يفتأ يطل برأسه موجّهاً ما حصل ذلك اليوم. اثنان من رجال الشرطة اعتقلاه من البيت، تهاوى نحو الأرض كان يطلب منهم أن يتركوه فقط لكنهم صعّدوا به إلى سيارة الجيب ثم تواری كل شيء.

ما هي أحواله الآن؟ أكيد لن يغفر لها. كم كانت لحظة شريرة وقحة، لا تعرف كيف وقعت في شركها! خيالها الآن لا يتحمل مجرد رؤية عارف في يوم من الأيام وقد أصيب بمكروه أو حدث له شيء؟؟

مجرد التفكير بهذه الدوامة، تشعرها بالعطش، يدهمها وكأنها تخشى الوقوع في فخ هواجسها، نهضت وصبت لنفسها كوباً من الماء ثم الآخر، ولكن.. كأن بجوفها حرارة غريبة لا يطفئها ارتواء الماء! أو هي ربما حرارة ضميرها تراكمت عليه قاذورات حياتها، شيء يتقد وبغضب صامت. عارف لا يستحق ما جرى له، مسكينٌ مثله تائه في تلك الشوارع لا يستحق غير التعاطف، حرام أن يتعرض للأذية. تتمنى الآن ملايين المرات لو يغفر لها، ستعوضه بأي مبلغٍ يطلبه ولكن كيف تجد عزاءها في شبح عارف يزور ذاكرتها بلا تردد، نزلت إلى الشارع، سرها أن تجد أحد المتسولين عند رصيف البناية التي تسكنها في منطقة رأس بيروت، بدا واضحاً مدى بؤسه، يشبه عارف في الشكل والريثة، يدخل سيجارته ويعتمر قبعة قديمة يرسم عليها العرق خارطة من الحزن، مرسوم على وجهه العابس، تركت في كفه عشرة دولارات، فقام يرفع كفيه بالدعاء.

عادت من جديد إلى حجرتها، تشعر ببعض العزاء، تسكن هواجسها قليلاً، تسترخي على كتبها الوثيرة، جهاز الـ mp3 يبث موسيقى هادئة للفنان العالمي (يقي)، بعض الراحة تتسلل إلى روحها، خدر لذيذ يسري في شرايينها، النوم راحة المتعب، يا تعب الحياة، اتركنا نتنفس.

*** **

أشار بإصبعه في ثانية، فجاء رجل أنيق يحمل حقيبة، فتحتها وأخذ بعض الأوراق ثم أقفلها وانصرف الرجل.

- منصوره، كل الهواجس التي كلمتني عنها انسيها تمامًا، نحن هنا في بيروت وعلينا أشغال نجزها، مديرة معهد التدريب أفاضت في مديحك على الالتزام بالبرنامج، يعني غير معقول تتوقفين في منتصف الطريق!

- أبو طلال، صدقني أشعر بالاختناق، لا تدري بالنار التي تشتعل في جوفي.

- صدقيني عندك مستقبل باهر، أتعرفين ما هذه الأوراق؟ عقد عمل عند شركة إعلانات كبيرة تتعامل مع شبكة تلفزيونية ضخمة، فرصة ولا في عالم الأحلام. وقعي العقد يا منصوره، وخذي ثلاثة أيام إجازة، وبعد أن ترجعي من المنامة نستأنف عملنا.. هل هذا يريحك؟ آه كم تعجبني هذه الابتسامة، نعم أنتِ هكذا أحلى والله.

- أبو طلال، ألا تلاحظ معي أنك مهتم هذين اليومين كثيرًا بالجرائد؟ الحياة والسفير والشرق الأوسط و.. عسى خير؟

- لبنان الشغل فيها مربح ولكن عيبها السياسة وحزب الله، لو أنهم يعقدون معاهدة سلام مع إسرائيل لانتهينا من وجع رأس

كل النكبات والمصائب التي تخرب كل شيء في المنطقة، محور
الممانعة كما يقولون!

- يعني.. ما الذي يزعجك أبو طلال؟ أنت رجل اقتصاد وأعمال،
خلي عنك هذا.

- بالعكس يا منصور، ولا أي مستثمر مهما كان حجم استثماراته
يمكن أن يغامر في بلد غير مستقر، الملف النووي الإيراني،
الربيع العربي، ومصائب كثيرة تخرب علينا عملنا. أغلب أعمالنا
التجارية في أوروبا، المنطقة هنا تجر الواحد للهبل والخسارة.
بالمناسبة أنت مع حزب الله صح؟

- ولم تسألني هذا السؤال؟

- لا تهمني المسألة الطائفية ولكن.. أخبرني هاني أنك شيعية في
الأصل. صحيح أنتم الشيعة هاجرت من إيران؟!

- قلت يا أبو طلال أن المسألة الطائفية لا تهمك، أنا يهمني
الدولار بوصلتي ومصلحتي، باقي كلامك لا يعنيني، و.. أليس
علينا أشغال ننجزها؟!

- ذكية وهذا ما شدني إليك. هههههه.

- ضحكنا معك يا أبو طلال؛ نعم، خيلنا نرتاح من هم الدنيا.

- منصوره، أنا كل تركيزي على الشغل، هذه الأمور لا أهتم بها مادامت استثماراتي آمنة، كنت أمزح فقط، افتحي الظرف.
- هدية أو مفاجأة يا أبو طلال؟ حساب في البنك!
- نعم في بنك المستقبل، أحد البنوك الكبيرة هنا، كل أموالك تودعينها بالدولار وأنت مرتاحة البال، بعدها فكري كيفما تشائين، اصبري فلوسك على هواك، أوه عندي اجتماع وتأخرت.

خرج من الحجره وترك خلفه رائحة عطره الباذخة وقبله في محيط المكان أرسلها برقة أمير.. تأملت بيانات الحساب على الورق الأبيض الفاخر، كان رقمًا خرافيًا! ما لم تحلم به في أبهى أحلام مراهقتها، أما كانت توفر مصروف المدرسة حتى تشتري بعض الملابس للعيد، بل ترفض - وبعناد - أن تلبس بعض تلك الملابس الفائضة عن الحاجة والقديمة التي تأتي بها خالتها في كل زيارة لهم.

لا تنسى أنها كرهت نفسها وعذبها ذل النفس، تتذكر أختها الأصغر سناء المرحومة، حينما عايرتها ابنة خالتها في أحد المواقف.. (مثلك لا ترفع رأسها في عيون الناس وهي ما عندها تلبس)!!
تلك هي.. منال المغرورة، أكثر ما كرهت في حياتها كلها، تمنيت لو هاجت عليها وأشبعتها عصًا كي تتأدب عن وقاحتها. من يومها قررت

أن لا تلبس شيء مما يتقيأه إحسان القريب أو البعيد لتصون كرامتها. يعصف بها الماضي ويلهو كيفما يحلو له، كم كانت تلك الأيام مشحونة بالقهر والحمران، أخذت من حضن الأسرة من بعد سناء، عزيز أصغر إخوتها، مات في السابعة عشرة من عمره بالفشل الكلوي المبكر وهو على جدول المتبرعين!

تحن إليه.. غافياً في ذاكرتها بكل جدرانها الحجرية العتيقة، تسمع الآن من بين شقوقه حكايات الطفولة والصبا، اللعب عند بابه الخشي الكبير، الاختباء بسرعة كلما لاح شبح "فطوم" المجنونة في الحي، أيما طفلة تقبض عليها تضربها وتعضها ثم ترقص فرحة بفعلتها. خليل ابن الجيران من على السطح يستعرض عضلات مراهقته، تضحك عليه وهو يستمر في زهو شبابه الفرحان يرسل قبلات في الهواء، وذكريات كثيرة لا تدري كيف تزورها الآن.

اتصلت بالمطار وحجزت على أقرب رحلة إلى المنامة. مرت الساعات ثقيلة في سيرها، وجمر اللقاء في الصدر يتقد شوقاً إلى تلك الجزيرة، شيء يلسع روحها بحرارة، لا تستطيع الانتظار، ومن فرط الحنين؛ بدا كأن اللوحة الإلكترونية توحد كل الرحلات إلى المنامة فقط! عند المدخل تنتظر، بينما المضيفة - ذات الملامح الآسيوية - تتضحك مع زميلها بلا اكتراث وهي هنا، شوقها يتصاعد وقد تصرّم الوقت،

الطائرة تتأخر عن موعد إقلاعها. المضيفة تتكلف في ابتسامات مجاملة ترسلها لوجوه الركاب المستائين، لكن كلها ساعة، ثم رفع الحزام المخملي عند حاجز المدخل، فتهافتت الأقدام.

استرخت على مقعدها رقم 132، تشعر ببعض الهدوء، ها هو الوطن قريب من العين، رائحته تسكن القلب، متى يقلع هذا الطائر المعدني العملاق؟! تتأمل الركاب وحركة المضيفات ترتبن تدفق الناس، ولكن.. كانت هنا، بالكاد ترفع ترهل جسمها وهي ترتدي عباءة سوداء بدا أنها تتجه إليها والمضيفة تشير إلى حيث هي تجلس، لا لا يمكن أن تجلس هذه المرأة البدينة بجوارها، هذه أصلاً كيف سمحوا لها أن.. كتلة جسمها مستحيل يحتويها مقعد واحد فقط، ثم أنها..

انتهى الموضوع، وها هي تجلس، تكرمت بابتسامة مجاملة وهي تلهث من الشحوم التي تحملها، عانت بعض الشيء المضيفة العصفورية الشكل وهي تساعد في ربط حزام مقعدها. هي ذي عادت تبتسم من جديد، ثم انشغلت بهاتفها الجوال. لا تدري الآن لم هذا الوجه مألوف؟ ألم يمر على ذاكرتها من زمان؟ هي هكذا الذاكرة، تأكل معك عيش وملح ثم تخونك! يستعصي عليها تذكر شيء الساعة، الوجه ليس غريباً، ولكن الصورة مرتبكة مشوشة لا تثبت في محيط الوعي، تتأرجح يميناً

يساراً، فوق تحت، لا فائدة، فقد أفلتت الصورة من اقتناص الذاكرة هذه اللحظة.

دقائق ثم أقلعت الطائرة. إشارة فك الأحزمة بعد لحظات مضاءة أمام الركاب، ما بها؟ هل ذراعها قصيران أم هي أصلاً تركب الطائرة لأول مرة ولا تفقه كيف تفك حزام مقعدها؟، فتطوعت لتفك لها الحزام عن طيب خاطر..

- شكراً يا بنتي، والله أنتِ طيبة، هذا واضح على وجهك من أول مرة رأيتك فيها.

- لا داعي لهذا الكلام، الناس للناس.

- ماذا أفعل؟ الضنا عزيز، أنا لا أقدر على السفر، لكن ولدي نادر يدرس في بيروت، قلت أزوره وأبرد شوق قلبي، والله أظل أفكر فيه وأخاف عليه.

- الله يطمئن قلبك عليه و..

- أنا مستغربة والله العظيم.. كأنك تشبهينها، يا سبحان الله، الفرق أن تلك جسمها ممتلىء قليلاً وعينيها بنيتين، أما أنتِ مزبونة وأحلى منها والعيون ما شاء الله.. أنتِ خليجية؟

- نعم من.. من الكويت!

- طيبين والله يحفظهم من كل سوء. لا تتصورين، فرق بين الأرض والسماء، أنتِ صحيح لستِ محجبة، ولكن من أسلوبك محترمة وبنيت ناس. تلك التي تشبهينها، هي أرملة أخي، منصوره الله يصلها نار جهنم، قصتها مخزية ..

- خلينا من سيرة الناس، رب العباد أمر بالستر!

- بالعكس.. هذه وحده فاسقة والغيبة والسب فيها حلال، لا تستحق التراب الذي تمشين عليه، تصدقين؟ حتى أهلها تبرأوا منها ومن أفعالها، يقولون إن أمها ارتفع عليها ضغط دمها وماتت عليها حسرة وقهراً من كلام الناس!

يهتز إحساسها وجعاً، وكل خلية في جسدها يرتبك نظامها، وتعصف في داخلها لاءات غير مصدقة، تناست كل وخز ثرثرة هذه المرأة ولم تعد تهتم الآن، هي ذي الرؤية أوضح ما تكون، أحقاً ترحل أمها عن الدنيا وهي آخر من يعلم؟! يا كل قسوة العالم، كيف تحولين النفوس إلى أسمنت وهي من لحم ودم؟! ولا واحدة من أخواتها أو إخوتها تكرم بإخبارها، أيعقل هذا!؟

- عسى ما شر يا بنتي؟ تبكين لأن قلبك حنون وطيبة، نعم، ما ذنب أمها وأهلها تنجس شرفهم، وهذا أخي المرحوم الذي ستر عليها، وسخت شرفه، الله ينتقم منها.

- أتسمحين لي؟ أحتاج إلى الحمام.

بالكاد تخلصت منها، مشت بضع خطوات ثم.. كادت تسقط لكن تماسكت في آخر لحظة. رشت وجهها بالماء، وأخذت تدعك بقهر كل بودة الماكياج وزيف السعادة والهناء، تدعك كذب هذا الوجه البائس هو ذا يتعري كأقبح ما يكون التعري ولا تملك حياله شيئاً أو تداري من ظلامه المريض، تبكي وسيل من المرارة يزرع خيبات القهر، تعبت حتى انتهت لطرق خفيف على الباب. ملمت حزنها من صمت المرأة، أخبرتها المضيئة بوجوب الرجوع لمقعداها فالطائرة تستعد للهبوط، وجدت مقعداً شاغراً فذهبت حيث كفتت بعض إحساسها المنهار بالمزيد من سورة البكاء، المضيئة جاءت لتسألها وتطمئن، فضلت الصمت حتى هبطت الطائرة.

أهي تنتظر، وترتبك وتُسحق في غفلة الأيام أم تقبل كل هذا الضجيج الملعون في عقلها الباطن يحدثها ساخراً عن ضحك الأمس ولامبالاة الغرور أم تجمع شظايا البراءة التي كانت؟ قبلة ابن الجيران الأولى وخيالات نار الله الموقدة التي تستولي على جسدها المذنب وسرها الدفين، ما باحت به لجنس مخلوق. تختلط كل الصور وتحترق في مدى بصرها. ضابط الجوازات يبتسم وأصابعه تتحرك سريعاً على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، يسلمها الجواز فتسلم روحها ها هنا لجحيم آخر،

كيف تكون العودة هكذا؟ آه يا جزيرة الحزن، ما بال تربتك لا تنبت
غير الشوك! صدق عارف حينما قال هذه الكلمات ذات خيبة حامضة
الطعم ألمت به، لم يكن يهذي في أبيات شعره!

سحبت خلفها حقيبة سفرها، آثرت أن ترتاح في أحد مقاهي صالة
الوصول، تشعر بالمزيد من الإحباط، خيال تلك المرأة حميدة، البرميلية
الهيئة، ما تذكرت اسمها إلا الآن! خيالها ثقيل مثلها، مثل كلامها رصاص
مصبوب ينفذ إلى البدن، وكيف لها أن تكشف نفسها؟! غصة تستقر في
سقف حلقها، كانت مكبلة تتلقى الضربات المتتالية، أحسن شيء فعلته
هو الهرب من وجهها المترهل ولسانها القاسي، هذه أول مرة تشعر
بالعجز عن رد إهانة، كل ما فعلته أنها لجأت لأقرب مقعد فارغ كي
تهرب منها.

تحتسي قهوتها في أقرب مكان، مرارة ما حصل أكثر شيء أفسد هذه
الإجازة قبل أن تبدأ، لا تزال مرتبكة الحواس، أشياءها تضيع في حقيبة
يدها، أين المحفظة الغبية؟ جوالها يترنم بموسيقاه، هذا هاني يتصل، لا
مزاج لها للرد، أكيد هذا الملعون يفكر في شهواته بحجة أنه يطمئن فقط
على وصولها بسلامة الله! استمر اتصاله في إلحاح ممل..

- أهلاً يا هاني.

- الحمد لله على السلامة، الحلوة واضح أن ما عندها مزاج، ماذا بك يا منصوره؟
- لا شيء يا هاني، صداع خفيف يأخذ وقته فقط. أرتاح هنا في (كوستا) قرب المطار.
- هل أرسل لكِ سيارة أجرة خاصة؟
- لا شكراً، خيرك واصل يا هاني.
- دعك من هذا الكلام المجامل، يعني لا تريدان رؤية وجهي؟ هو ذا يسفر عن نواياه الشهوانية، يحترق في رغبته، يتقلب على جمر انتظاره، ولهان مثل أي عاهرٍ يمتطي عنفوان جسدها الشهي. كيف تتخلص منه الآن؟ مزاجها أسوأ ما يكون وهي ليست مستعدة الآن لإشباع نزوات هاني أو غيره من الأوغاد.
- أتكلم معك يا منصوره، آلوووو! أين سرحتِ؟ افهميني ولا تذهبي بعيداً تفكرين يمين شمال. سأحجز لكِ في الشيراتون.
- هاني.. لست مستعدة بعد لاستقبال أي رجل، فأنا في حالة مزاجية لا تسم..
- حبيبي منصوره.. ألم أقل لكِ من قبل، أنكِ لستِ المومس الأحملى في المنامة كلها. افهميني بهدوء.. حجزت لكِ على الفندق حتى تسكني بشكل مؤقت.

- عندي بيت مفاتيحه في حقيقتي وسأذهب لأرتاح.
- ههههه هذا من الماضي يا حلوة، حرقوا بيتك وصار رمادًا، ماذا ستفعلين هناك هه؟!
- هي لطمة أخرى تتلقاها، ما حسبت حساب شيء. تلك البدينة محقة في كلامها، كل هذا حصل في غيابها؟! لا ترى أمامها شيئًا واضح المعالم يمكن أن تصدقه الآن، ماذا بعد تغير هنا؟
- حسنًا يا هاني، سأخذ الآن سيارة أجرة إلى الشيراتون و.. الآن الخامسة عصرًا، أراك في السابعة بالمساء، مع السلامة.
- دقائق وحجزك يكون جاهز، أحب الحلوين أنا، باي باي.



(27)

كما كانت.. الهواء يداعب سعف نخيلها الباسقة، عند ظلاله
ذكريات الطفولة واللهو، صديقات كن يتجمعن وعلى علبة صفيح
تتشكل نغمات الفرح، هي هنا ترقص وتثنى في سعادةٍ، تجمع الرطب
من النخلات الصغيرة، تصرخ بنشوة كلما اكتشفت فراشة مختلفة
الألوان، تستمتع بتلوين أناملها مع صديقات غيبتهن الأيام. كأن
تغيرات الزمن لم تدرك هذه القرية إلا قليلاً، هي ذي نفس الدروب،
أصبحت معبدة بالقرميد الرمادي وبدون مجاري طافحة، ذات المكان
هو هو.

أرشدت سائق الأجرة الآسيوي عند آخر ال.. ماذا؟ أيعقل أن تتوه
عن بيتها وكل الذكريات تغني موجوعة الصوت بقلبها الآن؟! متأكدة
من بعد هذه الانعطافة على الجهة اليمنى حيث يقع. هو ذا هناك، بضع
خطوات تكاد تشم رائحة الطين في حجارة سورهِ العتيق، لم يتغير فيه
شيء، الباب الحديدي بقايا طلائه الأصفر القديم عالقة، خرجت منه
عروسًا والدمعة في عينيها على حلمٍ فر منها كسيرًا كسيحًا وكأنهم
يأخذونها إلى جنازة وليس عرسًا!

صامت ما عدا حفيف النخيل الذي يتوسط فناءه، تسمع صوتها،
يؤنس ذاكرتها الظمآنة. يفتح الباب، إنها مهدية، نعم هي الأخت
الصغرى، تركت عند الجدار كيس قمامة. في الحال دفعت في وجه
اللحظة كل شوقها المحبوس وداست على هواجسها غير مكترثة بشيء
ونادتها.

على استحياء جاءت وهي تتوارى في عباؤها وعلى وجهها سؤال
مستنكر يتفقد في حذر الوجه الغريب.

- نعم ماذا تريدان؟

- مهدية حبيبي التي تحب الققط، كيف حالك؟

- من.. من أنت؟ وكيف تعرفين اسمي؟!

- يا هبلة أنا منصوره أختك.

فاضت عينيها بالدموع وفي الحال فتحت باب السيارة وعانقت
أختها بشوق فياض من حرارة اللقاء، لحظات ثم ابتعدت وقد تجهم
وجهها قليلاً..

- لماذا يا مهدية؟ لم أشبع منك، أنا أختك الكبيرة ومشتاقه لك
موت.

- أختي الكبيرة ماتت، كلهم يقولون هذا.

- أنا أمامك أتنفس، صح تغيرت كما تريني ولكن لحمي من هذا البيت ومن هذه القرية.
- كلهم يتمنون لك الموت يا منصور، أنا فقط التي أكتم في نفسي وأظل أتخيلك. أمنا ماتت من قهرها عليك ومحمد وجاسم أحرقا بيتك في المنامة، صرنا في القرية منبوذين. أنا وسلمى عنسنا في البيت، ما ذنبنا تعاقبنا الناس بجرمتك هه؟
- مهدية حبيبي أنا مظلومة.. مظلومة لما زوجني أبي بواحد على باب قبره، أنت صغيرة يومها ولا تفهمين هذه الأمور و.. أبي كيف حاله؟
- (الجلوكوما⁽¹⁾) أخذت نور الدنيا من بصره، أطفال الحي يتصدقون عليه، يوصلونه للمسجد والبيت، لا فرق عنده بين الليل أو النهار، ساكت وكأنه حي ميت! ماذا تريدون بعد منا يا منصور؟ ما عاد لك وجود هنا، سأعتبر نفسي في حلم. اذهبي قبل أن يخرج جاسم ومحمد، أقسما أنك لو وصلت لعتبة الباب أحرقك في جلف.
- ماذا تقولين؟ لا بأس.. يمكن أنا أنتحر حتى انتهى من القصة وترتاحون مني ومن عاري.

(1)

- أستري على نفسك وعلينا، عيشي حياتك بعيداً عنا، ماذا بك يا منصور؟ تأتين لنا حتى تزيدني همنا، كل أفعالك السوداء حولت البيت إلى جحيم، اتركينا وموتي ألف مرة وخلينا نرتاح!

- خلي عنك الآن هذا الكلام. أرشديني حيث دفنوا أمي أو لا يحق لي قراءة الفاتحة على روحها بما أني مطرودة من الأسرة؟

على مريض وافقت، لحظات ثم وصلت السيارة إلى المقبرة. وعلى الجهة الشرقية كانت ترقد هناك أسفل بساطة التراب، بعض المشموم اليابس والورود الاصطناعية تنام عند مقدمة القبر بلا شاهد، فجثت عنده تبني من دموعها محراب غفران وندم يعرض على وجعه بعد فوات الأوان.

- أخباري؟ تسألين عن أخباري.. كلها لا تسر، تركت المدرسة ولم أكمل الثانوية وجلست في البيت، بنات الصف تتهامسن عليّ بكلام مثل المسامير! خلاص مستقبلي ضاع.

- كأنك غنمة مذبوحة! أنت في العشرين وتفكرين بعقل واحدة في ال...، مستقبلك مشرق، مستعدة أعلمك في أرقى المدارس الخاصة، وبلا موضوع العوانس هذا، لا تفكري في شيء سابق لأوانه، سأرتب وضعك مع سلمى لا تخافين. جاسم ومحمد ما هي أحوالهم؟

- جاسم فصلوه من الجامعة، معدل درجاته ضعيف، يأكل وينام ويكثر من العصبية والصراخ ويلعن الكل، محمد ترك المدرسة أيضاً مثلي، صار من أولاد المزارع والحوط، لا نراه إلا في أوقات الوجبة. سلمى دخلت الحوزة تدرس وتركتنا وسكنت مع خالتي حتى تصير بعيدة عنا.

- المهلم أختك منصوره لن تترك هذا البيت ينهار ..
- قلت لك أنتِ صرقي ميته في نظر الجميع، رجوعك سيزيد من المشاكل و.. أ أ، شكراً لا أريد منك فلوس، أي مصنع خياطة في ستره يمكن أتوظف فيه ولا أقبل شفقة أحد.
- أنا يا مهيديه صرت أي أحد؟ حسناً.. قلبي مستحيل يزعل مني أختي الصغيره التي تحاول تكبر بسرعة قبل أوانها.

*** **

- الكلام الذي وصلك، هاني، أنا أول مرة وقع بصري عليها، عرفت أنها المرأه المناسبه، لم ترها بعد كيف تغيرت. منصوره قطعة ألباس خام اصقلها، ثم قدمها للعرض واكسب.
- تقصد يا أبو طلال أني فرطت فيها، تعرف أنها واحده تاريخها زباله، مات عنها زوجها الشايب، وصارت تتعهر وتكد كم دينار، خلاص عليك بالعافيه.

- تعرف؟.. سأحولها فتاة إعلانات سوبر، متفائل بها، وكل دولار
أصرفه عليها أجنبي من ورائه ألف، حولت لك من أمس تحلية،
استلمها على حسابك في البنك.

- والله تحجلني يا أبو طلال، ألف شكر، أتركك الآن، أكيد وقتك
من دولارات وألماس، هههههه، مع السلامة.

- أهلاً منصوره، لا لا، أعرف أي جعلتك تنتظرين، لا بأس
تحمليني، ماذا أفعل؟ زوجتي على الخط شغلتي، لا تستعجلي،
الساعة الثامنة أكون عندك، نجلس في لوبي الفندق و(الليلة
سهرة حلوة وحياتك يا قمرنا).

- هاني، ومن قال لك أنني مستعجلة، أنت من طلبني في الأساس.
- مسافة الطريق وأكون عندك، خلاص لا داعي لهذا الكلام يا
حلوة، أعصابك متوترة، أكيد ذهبت هناك. بيتك هذا انتهى
خلاص، أنا أخليه على مكنتي العقاري وأبيع لك الأرض بأي
سعر تحبين لا مشكلة.

- رأسي يكاد ينفجر يا هاني، لا أفكر بهذا الموضوع، تعال
وخلصني.

لتمضية وقت الانتظار، أخذت تقلب صفحات بعض الجرائد المحلية،
دقائق لا غير حتى توقفت عند الخبر في الصفحة الاقتصادية.. مجموعة

أبو طلال الاستثمارية تدهن مصنع الأسمت الجديد. هو ذا بيتسم تمامًا كالديلو ماسيين، وعن يمينه أحد وزراء التجارة العرب وكبار الشخصيات. تركت ما عندها، سرحت بعض خصلات شعرها، راق لها أن تتغنى مع بعض المقطوعات الغنائية على هاتفها الجوال، تتعد - ولو قليلاً - عن كل ضغوطات النهار، ما عسى عقلها يحتمل أكثر؟ حرق البيت، ثم وفاة والدتها، وحديث مهدية عن انتهاء دورها في الأسرة، ما عاد أحد يرحب بها، صارت منبوذة أكثر من ذي قبل! كانت تضحك في سرها على عارف كونه منبوذ، وإذا بها تصاب بذات اللعنة! لا تريد التفكير في كل هذه الدوامة الكارثية الآن.

(أخاصمك آه.. أسيبك لا..) تتمايل رأسها مع صوت نانسي عجرم، نسيت كل ما حولها، حتى جاء صوته فجأة يستأذنها، التفتت للرجل، أحد العاملين في الفندق يحمل بعض الورود مرتبة في غلاف نايلوني شفاف معقودة بشريط أحمر، مرفقة بكارت: الورد للورد. (خليفة!) موظف الفندق كما يدعي لا يعرف حتى من هو صاحب الهدية؟! تلفتت حولها ولكن لا معنى لهذه الحركة، من غير الممكن أن يرفع أحدهم فوق رأسه لافتة ليعرف نفسه أمام الجميع بأنه (خليفة!) صرفت انتباهها عن الأمر، ربما أحد نزلاء الفندق ذوي الأرواح المشاكسة. هؤلاء ما أكثرهم، لا يستطيعون الاختباء وراء بدلائم الرسمية

أو الثياب الفخمة التي يتوارون خلفها، تفضحهم شهوة اللحم، مستعدين لقطع آلاف الكيلومترات من أجل اقتناص مثنى وثلاث ورباع من (ن) الأنوثة، يجربونها بكل اللغات والنكهات! طلبت من أحد العاملين رمي الباقة في القمامة.

ها هو حضر ومتأنق كعادته بدلة رمادية تحمل توقيع أرمانى، وربطة عنق حمراء، كأنه أحد هؤلاء الدبلوماسيين الشباب ساعة خروجهم من مبنى وزارة الخارجية برفقة وفد عربي يزور البلد..

- مساء الخير، الحمد لله على السلامة يا منصوره.

- مرحبًا يا هاني.

- لا أصدق، فعلاً هذه الواقعة أمامي، امرأة مختلفة! كأنك ممثلة

حلوة في مسلسل خليجي وأحلى ألف مرة، كيف حالك يا

منصوره؟

- حالي أفضل من الصباح، رأسي انتفخ واسودت الدنيا في عيني

من بعد.. ما أرغب بعد أن أتذكر كل ما صار، مزاجي الآن

أحسن وخلي السالفة بعيد.

- منصوره، هذه هدية صغيرة تفضلي.

- شكرًا يا هاني، كلك ذوق.

- زعلانة أكيد؟

- تذكرت زكية، صديقة قديمة وطيبة، تباع الذرة عند حديقة في المنامة، الفندق لا يجيد طبخ الذرة في مثل مهارتها وشطارتها، مستحيل.
- أغلب من يبيعون الذرة وهذه الأكلات البسيطة، هنود وأجانب، يعني تتكلمين عن حالة خاصة.
- بالفعل زكية تقريباً حالة خاصة.. سمرة وجهها ربما تجعلك تتشائم، ولكن الكبير والصغير عند كشكها يطلب تلك الذرة. تذوقتها لمرات كثيرة قبل أن أنهي علاقتي بها.
- كل واحد يعرف مستواه. مثلك على أبواب الشهرة تعرف وحدة بسيطة تباع ذرة؟! هي من جماعتنا؟
- نعم، فقيرة وعلى قدر حالها.
- رسالة هاتفية وردت على هاتفها.. (جميلتي منصوره.. افتحي على جهاز التليفزيون، بقناة العربية الآن، تقرير مصور على الصفحة الاقتصادية عن شركتي للإعلان وإشهار وجهك الجديد - أبو طلال).
- عساها أخبارًا حلوة؟
- هذا أبو طلال، هو الآن على شاشة العربية، تقرير إخباري عن واحدة من شركاته ونموذج إعلان خفيف عني، صورته من شهر.

- أووووو، منصوره تنطلق للنجومية، بس نترك المطعم يرتب لنا
العشاء في حجرتك وهناك نشاهد التقرير ما رأيك بالفكرة؟
كنت أعرف أنك ستوافقين!



لا يعرف من أين ظهرت هكذا فجأة، يدري بأنه منسي أو ملغي الحضور في الأسرة، على حد قول هاني ذات مرة.. (أنت واحد حياتك زبالة فمن يتشرف بمعرفتك، حضورك أصلاً ملغي من الأسرة، هل تفهم)؟!

- أخي حبيبي ما هذه العمامة البيضاء على رأسك، هل أنت بخير يا عارف؟ مشتاقين لك وندعو الله أن يفرج عنك.

..... -

- صرت هزيلاً، لا بارك الله في (...)، شكلك تغير يا عارف، شعرك طويل وكل هذا الشيب، ماذا فعلوا بك يا أخي؟ (تبكي).

- تزوريني حتى تبكي يا سهام؟ إذا سمعك أحد هؤلاء سيقطع عليك الزيارة وبطردك وتمنعين من الدخول هنا، تعرفين أم لا؟

- سأسكت، خلاص خلاص، ماذا أفعل؟ حالك يا أخي جعلني أبكي، الأيام التي كنتها في الشارع هائماً على وجهك لا بيت يأويك ولا لقمة نظيفة تأكلها، لم تكن هكذا أبداً.

- هل صادروا من عندك طبق سمك الصافي المقلّي الذي أحبه؟

- ومنذ متى تفهموني أصلاً؟! حياتي كلها جزيرة معزولة لا يسكنها
ولا يتورط فيها أحدٌ غيري!

*** **

- تفضل، تفضل يا حاج غلوم، ما هذه الغيبة؟ جئت الحديقة تشم
الهواء العليل؟

- قلت يمكن أتنفس وأغير جو البيت، الوحدة أصعب على
الكبير يا ابنتي. الحمد لله على كل حال. الذرة عندك ساخن؟

- دائماً حاج غلوم، تفضل وبالهناء والعافية، دقائق وأجهز لك
طبق خصوصي.

- يمكن مشغولة بهذا الكتاب وأفسدت عليك.

- أكملت مدة في محو الأمية ولا زلت صامدة، صارت الدنيا
معكوسة في عيوني. معلمتي مدحتني كأشطر طالبة تتعلم بسرعة.

- حرمتني عمتي من التعليم، لم أكمل صف رابع ابتدائي، لكن..
كأن ذاكرتي انتعشت فجأة.

أحست بشعور مختلف يخالجه، هي ذي في طريقها نحو فضاء آخر،
كل الصخور التي تسد الطريق ها هنا تنزاح، أمامها جنان خضراء من
بهجة الأمل الذي يعني في قلبها، تود الآن لو تخبر عارف بأنها قبلت
التحدي، تفك ترميز الحرف وتتهجى الكلمات، من لافتات الشوارع

إلى كل ما هو مكتوب في محيط المنامة. عارف سيرحب بهذا، المجالات التي قدمها آخر مرة، ممتعة بموضوعاتها، نقرأها وتكتشف عوالم أخرى وراء الخبر والمعنى، نعم هناك كلمات صعبة الفهم، ولكن مساحة النور أمامها تتسع يوماً بعد يوم. كم هو شعور رائع لا يوصف يجتاح مسافات العتمة والخبية في نفسها.

لن تمارس ذلك الخجل المسكين حينما يطلب منها أحد قراءة شيئاً ما، باتت قادرة الآن على فهم عالمها، تثق في نفسها أكثر، تقبل على تحديات حياتية أكبر، لن تداوي صبرها بالصمت وتكفن أوجاعها بغضب الهارب، هي الآن مختلفة، وتعرف أنها ستجتاز بقية الطريق بنجاح.

- والله أنك شاطرة. طبخة الذرة عندك طعمها لا يتغير مثل طيبة قلبك.

- خلي حسابك علينا حاج غلوم. بالصحة والعافية.
- شكراً يا ابنتي. تصوري؟ جنتك ماشياً والآن لا أقدر على المشي أحس مفاصلي متيبسة.

- أحد أولادك تتصل له ويرجعك إلى البيت، أنا سأتصل به، كم رقم هاتفه؟

- من أين يأتي؟ هو في آخر العالم.. في كندا وقاطعني من أربع سنين وكأنني ميت بالنسبة له. يريدني أن أهاجر مثله وأترك الوطن، قلبي وعمري وأنفاسي هنا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وكيف يتركك وأنت بهذا العمر؟!

- كل واحد يقول نفسي نفسي، هذا هو حال الدنيا. مرة مرضت فوصلت روحي إلى سقف حلقي لولا الطيب عارف، كنت مت وحيداً. وجدت نفسي في المستشفى إلى أن تعافيت.

- عارف هو ال..

- نعم يا ابنتي، عارف لم تفهمه الناس وتعطيه حقه. في رقبتي دين لهذا الشاب الطيب ما أقدر أوفيه. الله يفرج عنه.

عارف.. مرة أخرى يعود لمشاكسة خيالها، مرة أخرى يسجل حضوراً مختلفاً في دفتر إعجابها، لا تزال الأسئلة حوله تكبر، عالم غامض يغوص في البعيد مما لا تعرف بعد! تصورت أنها فكت لغزه، لكنه الآن على العكس من ذلك، كرة خيوط صوفية متشابكة ومعقدة البدايات والنهايات، هو هكذا تماماً. أصحيح أنك عارف؟ الناس من حولك لم تفهمك، أنت تفهم هذا العالم حولك، بينما هو يجهلك! الحاج غلوم يخرف أم يقول الحقيقة؟!، من وصل إلى حقيقتك ونبشها فأستخرج فائض تعبها وعرف كنهها المتواري في وجهك الضاحك في بؤس الأيام؟

تذكره الآن.. قال ذات مرة: (إن الدرب التي يمسيها متصحرة وطويلة، لكنه لا يأبى أن يقطعها رغم حزنه، هو على أي حال سيمشي، فإما أن يدركه الظمأ فيضيع، أو يتحول إلى شهيد حاز شرف المحاولة، يموت وهو راضي النفس، وكم سيكون سعيداً لو أن غصة الموت تزوره بلا ألم، فروحه ضئيلة الوزن مثل روح عصفور، ويتمنى أن تكون قبضة عزرائيل لطيفة التفاصيل في تلك اللحظات الحاسمة!

في رأسه أحلام قتيلة، بقايا جثث من أفكار تطارده منذ زمن، يقول بأنه عجز عن اجتنائها ولم يتمكن من مهادنتها حتى يتنفس مثل بقية خلق الله، لكنه أيقن على مضض أن الحياد أفضل الحلول، هو لا يعرف كم هي النسبة المثوية التي فقدها من اتزانها النفسي جراء تلك الأدوية المدمرة التي غزت روحه المرتعشة، أو مقدار الجينات الوراثية المشوهة التي أتحدت مع دمه من أبيه، لكنما الأحسن لو تركت له البقية الباقية من عقله حتى يكمل مسيرة شقائه في حياة هو غريب عنها. فقط هو يريد الاستمرار في البحث عن مخرج وسط الزقاق المظلم حيث ظل الفزاعة يستنسخ نفسه آلاف المرات ويطارده، الوصول إلى مخرج يجعله يحس بشعور أفضل ثم تعتق نفسه من أسرها. ما دامت الروح تتنفس على وجه البسيطة، تظل في قيدها، تنتظر لحظة التنوير، تلك التي لا تأتي إلا مع صعود الروح لبرخ الفناء.. وبعد أن قال ما عنده، حك

شعر رأسه وضحك لا مبالياً! كشط كل ما سبق مهوئاً المسألة كعادته،
بأن الإصغاء لهرطقاته عبث لا طائل منه ولا يفيد البشرية في شيء.

*** **

تشعر برهبة كلما أرادت فتح الدفتر. ماذا كان يكتب في أوراقه؟
السؤال الذي شاكس فضولها كلما شاهدته يدخل الحديقة وينتهي ركناً
هادئاً ليكتب. أكيد أشياء كثيرة كان يهاجسها ولم يجد مكاناً أفضل من
الورق يبوح له بكل ما يعاني. عارف ترك الدفتر، الأرجح أنه لا يتذكره
الآن. فتح شهية السر، فضح ما هو في طي الكتمان، يحق لعارف
الاحتفاظ بسر، وأي بادرة فضولية تحاول إحداث ثغرة في هذا الجدار
ستكون شريرة وذات رد فعل غير متوقع، فأرجعت الدفتر مكانه،
والتردد شيطان يستمر في تحريضه غير مستسلم. أكيد عارف نسي
دفتره وهو لا يعرف بذلك.

تناولت الدفتر من جديد وانتصرت لشيطان فضولها، فتحت سر
الصفحة الأولى، جاء الخط شبه فوضوي..

(هذا يوم آخر من تعب روحي. بعض الرجال الملتحين عصر هذا
اليوم، طردوني من على باب المقبرة، أحدهم وصفني بأني مجرد سكير
متشرد! كيف هي هذه الناس؟ تدعي التقوى والإيمان وتنهش بعضها
البعض. نعم أنا متشرد؛ ولكنني لست سكيراً، لا أدري إن كان الله تعالى

يسمح للمشردين أمثالي بدخول جنته، ولا أعتقد أنني قدمت شيئاً بالمقابل حتى أربح تذكرة مغفرة لتلك الجنة، ولكن لماذا البشر تدعي أنها وحدها من تحتكر توزيع صكوك الغفران! هذا ظلم.. تنبذني الناس آهههه، كم أشعر بالراحة لما أبكي بعضي وأغسل شيئاً من أحزاني.

أن تحزن من أجل نفسك وعليها، تكون قد اكتشفت جزءاً من الحقيقة. عزلي اختيارية؛ لكن الناس لا تتركني وشأني. تركت الجلوس عند المقبرة مدة ثم رجعت، هذا أنا، عنيد حتى ضد نفسي. لكن أن ترافق هؤلاء الموتى وتأنس بصمتهم خيراً من الأحياء! يوماً ما سأدفن هنا، لا أدري إن كان هذا قريباً أم لا؟ أريد أن أوصي أحدهم، فليكن قברי عند شجرة باسقة لا تغيرها الفصول، شجرة عوسج حتى لا تنال ضراوة الشمس من قברי، أعتقد الناس ستقرأ لي الفاتحة مثل أي ميت هنا يلتحف بساطة التراب، ولكني بالمقابل أتمنى أن يؤنسوني بسماع أصواتهم وهم يضحكون.. أوليس الضحك ينظف أرواحنا من تعاسة الأيام؟

أحياناً أكره حياتي. ماذا أراني فاعلٌ ها هنا؟ طيف أمني في أحلامي ويقظتي، لكني لا أدري كيف لا تطاوعني نفسي على زيارتها، هناك أكثر من حاجز يقف حائلاً بيني وبينها، قد أكون غاضباً عليها في "لا

وعيي"، هذا ربما يكون صحيحًا. أشعر بالعجز حيال هذا الوضع، أمقت حتى أفكارى السوداء التي لا تتركني أعيش في سلام. سئمت من كتابة أي شيء هنا لا أجد له مبررًا حتى! مرات كثيرة أشعر بالمزيد من الحيرة تجاه اطمئنائي، حياتي التعيسة لا تستحق شيئًا، لكنني على أية حال أتصالح مع نفسي أحيانًا. أنا مثل طفل أبكي ضعفي، أبكي بسبب وبلا سبب محدد، أرجع ثانيةً أرتب نفسي من جديد وكأن شيئًا لم يكن. ما أحلى أن يكون المرء هكذا، هذه ثقافتى أنا في العيش، عل أحدهم يكتشفها ذات يوم ويستفيد منها أو يشقى بها، أنا لا أعطي ضمانات هنا لأحد. وهل هناك من يضمن شيئًا من معنوه مثلي؟!

جئت لهذه الحياة مكتوب عليّ الشقاء، (الأنا) التي تعيش بداخلي وعيها مشوش الرؤية في صورتها التكوينية. فزاعة بوجه الريح.. هي ظلي الآخر الملازم لي، تتطفل عليّ أو تملي قناعاتها، تحتقرني، تستفزني في كثير من أفعالي، أكره هذه الفزاعة التي أنا عليها، وأحيانًا أقبل وجودها على مضض. اللعنة.. أشعر بما الآن وشيكة الحضور وستبدأ تفسد كل شيء كعادتها! هذا دخانها يغزو نافذة عقلي، أحرقتها آلاف المرات ولكنها تتبعث من رمادها كطائر فينيقي، تضحك في دهشة وجهي الأخرق. هذا ما يرفض طبيبي النفسي تصديقه في الأعوام التي أُخْضِعْتُ فيها

للعلاج بالقوة، (يزعمون) بأني أعاني إعاقة عقلية، قالوا هذا ولم يكلفوا أنفسهم بعض الوقت حتى يفهموني أو يحاولوا مجرد الحديث مع فزاعتي كي يتفاهموا معها. نصف شقائك يا ابن آدم أنك عندما تكتشف الدنيا على حقيقتها، تكون ورطتك قد سحبتك في العمق حيث لا رجوع؟! هه، أشعر بالجوع وسأتوقف عن هذياني، فهو على أي حال لن يغير العالم، وأنا نفسي لن أتغير، أبقى هنا غريباً مثل (روينسون كروزو)، أعبّر وحشة الطريق وأقتات عزلتي، أعلق قميصها المهلهل على هيكلي الخشبي، لقممة أنا لشهبة الريح، ولا أذان يُسَكِّنُ أوجاع روحي ولا صلاة تظهر خطايي.

خطايي التي أحملها وكل آلامي التي ترمي بثقلها عليّ، ما أشبهني به؛ ذلك المسكين (سيزيف)، يلهث مدحرجاً صخرة خلاصه إلى قمة الجبل، فلا تلبث الآلهة حتى تدحرجها إلى القاع، فتتجدد رحلة عذابه الأبدى!

يا أيتها الفزاعة اللعينة اغربي عن وجهي. ما أنا صاحبك ولا أريدك هنا، لا تدحرجي صخور عذابي في الدروب الوعرة، أتنفس بصعوبة كلما حضر ظلك في مساحة قلقي، حامض الطعم لا أطيقه.

الأشياء المزعجة تحوم في فضاء الذهن، تستوطن ذاكرتنا على عكس الأشياء الجميلة، تأتي بتأشيرة غيمة صيف، لا تطيل مقامها، ها أنا أتذكر

الآن وأحاول الهروب من سطوة ذاكرتي، تجلديني بلا رحمة، متى يطول
سجني الداخلي هذا الذي لا يشعر به أحدٌ سواي؟!
كل ما بداخلي يتهشم، أمشي خطواتي الأخيرة فوق جسرٍ آيلٍ
للسقوط ثم..

أغلقت الدفتر.. ما عاد هذا شيء مسلٍ الآن حتى تستمر في إزاحة
غطاء البئر عن بقايا الصفحات، كلها تغرق بالمزيد من الكلام، كلام ما
كان واضحًا في عينيه المنكسرتين، شخص مثل عارف نصف عالمه
مخفي، مرات كثيرة يختار أن يكون صامتًا عن الكلام ولا يلحق صمته
الطويل إلا بالمزيد من تلك الضحكات الملتبسة بين الغباء المفرط أو
الذكاء المتوقع، يسخر من سطحية هذا العالم فيتفرج عليه من باب
التسلية لا أكثر!

*** **

الكثير من أعمال التنظيف وترتيب الأشياء، تدور في الشقة من
مكان لآخر، أوه.. هذا مصحف صغير في محفظة كانت منصورة قد
أهدتها إياه مع قارورة عطر رخيص، لا تتذكر المناسبة لكن يومها عانقتها
مثل أي أخت حقيقية اشتاقت لأختها بعد سفرٍ قصير. بكت فجأة
وعندما سألتها عن السبب، لم تفصح. قالت بأنها لا تحتاج إلى مناسبة
كي تقدم هدية لأختها، ثم مسحت دموعها.

أزالت الغبار عن المصحف، رتبت بعض التحف الخزفية الصغيرة على مكتبة التلفاز، هنا بعض النشرات الإعلانية القديمة، لم تهتم بها سابقاً لكونها لا تقرأ؛ فتستعملها لتنظيف النوافذ أو تلف بها الشطائر لبنات المدرسة. ستحتفظ بها. تشعر بنهم لقراءة أي شيء يقع تحت يدها، المعلمة نصحتها بأن تكثف من القراءة حتى تتفتح أمامها عوالم المعرفة والنور.

طرقات خفيفة على باب الشقة؟ هي في العادة متروكة هنا لوحدها، لا أحد يزورها بتاتاً، وهي تحالفت مع الصمت الذي تحول لاحقاً إلى عزلة. تتبادل بعض النظرات فقط مع جيرانها حين تنزل للشارع أو عندما ترجع من عملها مكدودة، نظرات خالية من أي تعبير مع جيران غرباء من بلاد بعيدة، الحمد لله أنهم لا يثيرون المشاكل وكل واحد في شأنه. أطلقت من ثقب العين السحرية فكانت المفاجأة.. منصوره!! إنها هي أو.. كأنها واحدة من فائتات الشاشة، ماكياج خفيف ساحر اللمسات، بلوزة زرقاء بلون البحر، جاكيت صيفي ذي خطوط غريبة وحقيبة أنيقة. إنها هي ولكن لا تشبه منصوره التي ترقد في ذاكرتها، هي ذي تفتح حقيبتها وتتعطر، تتفقد زينتها على مرآة صغيرة في شكل قلب مذهب الأطراف.

ما الذي أتى بها؟ ما هذه بالصديقة التي تستحق الوفاء أو التضحية، لماذا فقط الآن ترجع؟ أتريد إحياء صداقة ماتت وأصبحت طي الماضي؟ واضح أنها صبغت شعرها باللون الأشقر، تحمل كيس ورقي وردي اللون. فتحت لها الباب ولم تكن تعرف كيف أو بماذا تستهل هذا اللقاء المفاجئ..

- أنتِ منصورَة أو أنا مشتبهَة فيكِ؟
- عانقيني أولاً ثم أفعلي ما تشائين، حبيبتي زكية. والله العظيم اشتقت موت إليك.
- خرجتِ من حياتي ثم فجأة ترجعين؟ سمراء مثلي لا تتناسب ومستواكِ يا بنت الناس اللي فوق، ماذا تريدن بالضبط هه؟
- أريد قلبك يا زكية، أعرفه طيباً ولا يحمل حقداً على أحد، أنا أينما أذهب وكيفما يصير شكلي، أنا طينتي بحرينية، هذا أصلي ولا أتغير، وكل هذا الذي ترينه ليس أكثر من ديكور. هه أتفضل عندك أدخل أو..
- أهلاً وسهلاً.
- تفقدت المكان بنظرات فاحصة ثم جلست على الكنبه الوحيدة في الصالة المخنوقة الحجم، صفت بيدها خصلات شعرها وهي ترفع من تهدل فستانها عن كتفيها بعض الشيء.

- سامحيني يا زكية، لو اضطررت للسفر من آخر العالم، لا بد أن أجيء إليك لتسامحيني. هذه هدية بسيطة، اقبلها مني.
- لست حقودة لهذه الدرجة حتى أحملك عناء السفر من أقصى العالم كما تقولين، ولا داعي لهديتك، الحمد لله، قلبي أبيض ويجب الناس اللي تحترم نفسها. كل تلك السنوات ولم تعرفيني؟! بنت الكبار ماذا تحب أن تتضيف؟
- أسلوبك جاف يا زكية، تغيرت كثيراً.
- وإلى الأفضل.. أكيد رأيت كتب محو الأمية هنا على الطاولة؟ تعلمت القراءة من جديد، والآن أتحسن في الكتابة، وعرفت أن القبح ليس بألوان الوجوه، بل ببشاعة النفوس عندما تتكبر. نعم؛ أنا أتغير، وقريناً سأذهب لموعد العملية وستذهب حبة الحمص هذه الراقدة إلى جانب أنفي إلى الزبالة.
- أخبار طيبة، تستحقين كل خير يا زكية وأتمنى لك التوفيق. اعتبري فلوس العملية عندك، أكتب لك شيك بأي مبلغ، ولكن سامحيني ولا تتركيني هكذا أتعذب؟
- لا تكبرين الموضوع يا منصوره، ما أحتاج فلوس. هل أضيفك بمهلبية الرز والمكسرات؟ أنت تحبينها.
- أكلتها في أفخم الفنادق؛ ولكن، طعمها مختلف عندك.

تفقدت من جديد محتويات الشقة، شماعة ملابس معدنية من النوع الرخيص، بعض طلاء الشقة متقشر، النمل ينقل قواته متنقلاً، يستولي على بعض فتات الخبز ويتوارى في أسفل الأرضية الأسمنتية العارية، يغطي نصفها سجاد متقادم، وفي أعلى السقف مروحة تصدر صوتاً شبيهاً بالأنين، قديمة هي الأخرى وعمرها من عمر إنشاء العمارة، أما الجدار؛ فواضح أن من سكنوا هنا قبلاً تركوا بعض المسامير أو ندوبها عليه. هنا صورة رجل في العقد الخامس من عمره، الشبه واضح، زكية تشبهه كثيراً في منطقة أسفل الفك وعند الأنف والعينين والحواجب، كما لون البشرة. والدها ربما، لكنها لا تعلق لنفسها ولا صورة واحدة؟! بسيطة حقاً يا زكية وقانعة بأي شيء.. هناك في أحد الزوايا كانت تقبع بصمت، تعرفها جيداً ولا يمكن أن تغفل شكلها، رأتها مرات كثيرة وهو يحملها، عارف وحقيبته الرثة! يقفز الآن إلى ذاكرتها من جديد. ربما هي تزوره في السجن؟ ربما استودعها بعض حاجياته البسيطة؟ هه، هو أصلاً لا يملك شيئاً! تفكر أن تسألها عنه وعن أحواله في السجن، ربما هذا كفيل بتبريد بعض جحيمها الذي لا ينفك يسلط نيرانه عليها وما فعلته ذلك اليوم. ستشعر ببعض التحسن على الأقل كما تظن الآن. لا لن تفعل، ربما أخبرها بالقصة!

حتى لو انتابتها دبابيس الخيبة تحشر أسفل جلدتها بمزيد من الإحباط، فسوف تتجاوز الأمر، مجرد الحديث ممارسة تعطي شيئاً من العزاء للنفس. عليها ترفض الحديث في الموضوع، تبدو غير راغبة في الزيارة من الأصل. ماذا لو أنها على علاقة سرية معه؟! قبيحة مثلها سترحب ويطرب قلبها لأي محاولة من أيما رجل يطرق باب قلبها ولو بهمسة مجاملة كاذبة. هي سطوة اللذة، من أول حريق تتحول إلى جنون متوقد العنفوان لا يعرف توقيته حينما يتمرد العطش، يا زكية أكيد جربت شواء تلك النار ووهبتها الوقت والصمت والسر والفرح، كيف لا تفعلين وهي ذلك الاخضرار الذي يزيل يباس حواء ويبهج روحها. جاءت تحمل صينية بلاستيكية متوسطة الحجم..

- تفضلي، هذا بعض ما عندي، لست متعودة على استقبال أحد، أنا البحرينية الوحيدة المعزولة في هذه العمارة، تفضلي.
- زاد فضلك يا زكية، كم تدفعين إيجار الشقة؟
- أدفع مثل غيري بزيادة وعلى مزاج مالك العمارة، ولكن الحمد لله، الحال مستور.
- ما جاوبتِ سؤالي.. كم تدفعين إيجار؟
- مائة وخمسين ديناراً.

- لذيذة المهلبية، لا تزالين تحضريها بنفس الطعم ونحن نأكلها
على كورنيش الملك فيصل، تتذكرين يا زكية؟

..... -

- زكية أرغب في مساعدتك حقًا، اعطيني فرصة، فرصة واحدة لا
غير، أصحح فيها غلطي قبل أن..

..... -

- ذلك اليوم أنا جرحتك، بس أنا صرت أنانية، واحدة حقيرة
خانت العشرة وباعت أختها. تعرفت على ناس من كل
جنسيات الدنيا، الكثير منهم مجرد وحوش متأنقة تتعطر بالرقمي
والحضارة وهي من الداخل ضياع ودمار وفراغ، أنت يا زكية
إنسانة مختلفة، نقية من أصلك، لا تعرفين الحقد على أحد حتى
لو جربت! طبيبتك فقط تفضح الأشياء الجميلة التي تحملينها،
هكذا عرفتك من أول يوم عندما تلاقينا في سوق المنامة..
أتذكرين؟ عزومة العصير عند الهندي مبروك، أنا ضحكت في
وجهك ثم بدأنا نتكلم وكأننا نعرف بعضنا من زمان بلا
مقدمات.

- ذكريات الماضي، الأيام التي ذهبت.

- لكنها تعيش في داخلي يا زكية. كنتُ يومها أعرف نفسي أكثر قبل أن.. الله على تلك الأيام، ليتهنا تعود. بعد غد أسافر على طيران العربية، لا وقت عندي، سامحيني يا زكية.

.....

- سكوتك أفهمه جيداً، لا تعرفين الظروف التي أمر بها، بيتي في المنامة صار رماداً، أمي ماتت وما حضرت جنازتها وأسرتي.. (تبكي).

لم تتمالك نفسها لتراها على هذه الحالة، أحقاً هذه منصوره؟! تلك الواثقة من نفسها، تقشر حظها من الصخر العاتي، تحلب أيما غيمة تمر منها، تتحدى شرار اللحظة لتخطف الدفء قبل أن تحرق النار أصابعها، أهي تمثل أم تنهار الآن؟! حدسها لا يخبرها الآن بشيء، تكاد الصورة تكون مشوشة الرؤية، فكيف تعرف حقيقة ما تراه، إن لم تواسيها فرمما.. كم هذا مريبك! لا أحد يستطيع تفتيش قلوب الناس، من العبث والسخف إذن محاكمة نواياهم. قلبها يدوس على أوجاع الماضي، تكتف بصمت من داخلها المجروح.. (الدنيا لا تستحق، سامحتك منصوره، بكاؤك فاتورة مستحقة الدفع، وها أنا أقبض حقي)!!

(29)

ثمة ضوء شحيح ينير فوضى الروح المحبوسة في العدم.. ثمة صوت مشوش النبرات، يخبره بأن أنفاس الحياة لا تزال تحبو في عروقه. اتسعت مساحة الضوء، أروقة طويلة بها أقدام خلق الله تروح وتجيء، مقاعد كثيرة ترتاح عليها أجساد المرضى والمرافقين، نساء وأطفال. فتاة جميلة تضحك على عتبة العشرين وتثرثر بسعادة في هاتفها الجوّال، وشرطي يلتصق به كحال القيد الحديدي، كماشاته المزعجتان تكادان تأكلان من لحم رسغيه.

عادت إليه بعض حواسه الآن.. هذا مستشفى السلمانية! تذكر الآن كيف تحدى تلك الأشباح وحاول القبض على أنفاس الفزاعة وكل هواجسه، أفرغها في الجدار الأصم حتى أعتم كل شيء في وجهه! يعرف أنه ربما يكون عقله الباطن الذي ألهمه هذه الفكرة الذكية كي ما يخرج. كم هي غريبة رائحة هذا الشرطي، بقايا تبغ مع قات وخليط من رائحة العرق يفوح من زيه الرسمي، جالس بوجه متجههم، وكل ثلاث إلى أربع دقائق يحك فروة رأسه!

الناس لا تكف عن التحديق، تتمسكن، تسرق نظرات خاطفة، تكبت بعض تساؤلاتها الخفية، تمارس الشفقة ربما، أو حتى تلعن في سرها حكاية الظلم الراقد فوق الصدور. كل أفكاره الآن تحتشد في طرف واحد عند عتبة الحرية، لا بد من هزيمة هذا الخوف. الخطوة الأولى تفقد تفاصيل المكان، ثم.. آه نعم هذه حجرة الأشعة وهو هنا ينتظر دوره حتى يخضع لفحص أشعة، بسبب اكتظاظ المستشفى، فهو متورط بالانتظار مع هذا الشرطي، متململ من مأزقه بمناوبته النهارية ويتشاءب. هذا أحد الشباب، واضح أنه من قرى المنطقة الغربية، يدفع أمامه حاوية مليئة بالشراشف البيضاء ويدخل حجرة الأشعة ..

لحظات وتفكيره يتقدم مهرولاً ويرسم خطوطاً ما، سوف تتصل ببعضها لتشكل شيئاً تتكشف ملامحه بعد حين! هذا أخصائي الأشعة يحمل ملفاً وينادي (عارف جابر المظلوم)، كان لا بد من فك القيد، كل ما هو معدني يستبعد قبل تشغيل جهاز الأشعة، بدا الشرطي غير مكترث ونفذ طلب الأخصائي. المكان مظلم ولكن الشاب صاحب الحاوية لا يزال يتحرك ويقوم بعمله، الشرطي هناك خارج حجرة الأشعة.

أهي صدفة قدرية تتحالف معه الآن؟!

ينشغل الأخصائي بتفقد جهاز الأشعة كأنما يضرب عن العمل في هذه اللحظة بالذات! لا شيء يستطيع عمله حتى يجعل الأمور تعود إلى طبيعتها، الجهاز ودوائره الإلكترونية تتشابه وحمار يحرن عن العمل رغم جلد صاحبه لظهره الأجر، الشاب يكاد ينهي عمله وسيخرج، الدقائق تنزف حماسها في عقله، هو يعرف الآن كيف.. فيتبادل النظرات مع الشاب، يعلن هذا الأخير موافقته!

كيف يجب أن تكون القفزة الحرة التي تؤدي بالحبال المطاطية من أعلى الجسر؟ أن اقف بنفسك في هاوية المجهول الوهمي، ولكن حصاد المغامرة لن يكون بوسعك تصور شعوره! يعرف.. هي ذي اللحظة الحاسمة، سيتغلب على شبح الفزاعة، يستفزه دائماً، يتهمه بتلك الرجولة الورقية، ليقهرن الآن هذه الفزاعة التي تحاصره، ليحرقن كل هواجسه الغيبية، كوة النور أمامه تكفي للمجازفة أو أن يقرفص أمام عجزه ويتلاشى.

ليخسأ ظل الفزاعة الآن..! ها سينترعه من جلده وأنفاسه ونبض شرايينه ومسامات عرقه وأحباله الصوتية ومخاط أنفه وبصاق فمه وليذهب مقلّباً بدخانه إلى الجحيم، ما عاد يحتمل صحبته التعيسة كل هذا العمر ولا تقبل ضربيته التعسفية الكريهة، أو حتى إمكانية تصالح

وقتي مزيف معه؟ الآن ليفعلها أو لا ينتظر شيئاً حتى يتحرر من سجنه الداخلي، الآن أو الطاعة العمياء لسفنٍ تأخذه إلى زحام الضياع مع المهزومين، يركبون مشاعر الرضا المزيف، يتجنبون مواجهة الحياة، يلبسون جلود الخرفان لتبقى رؤوسهم فوق السطح تتنفس! فليكن مستعداً لمواجهة هذا الانفجار ولتسرب كل سوائل ظنونه الحمقاء، كل الشياطين الراقصون في رأسه سيجهز عليهم، لن يترك لأقدامهم حرية التجوال في أرضه الحرام، ولا حتى أن يتنفسوا في سمائه، ليفعلها الآن، الآن...

*** **

- أنا عارف، ما اسمك؟ (وهو يلهث ويتلفت حوله)..
- فاضل.
- لا تدري أنك فعلت خيراً في واحد مسكين مثلي.
- أنت أكيد واحد مناضل وأنا طول عمري أخاف، مليت الخوف. والله؛ إنك أعطيتني الفرصة حتى أصير شجاعاً ولو لمرة واحدة في حياتي، بسرعة يا عارف قبل أن يراك أحد.
- شكراً.. شكراً، لن أنسى وجهك وصنيعك الطيب، مع السلامة.

كان لابد من تجاوز السور، الأسلاك الشائكة العادية، بعض الخدوش والجروح، لا يهم هذا الآن، الركض ثم الركض .. مغادرة المنطقة كلها، الوقت يلهث في تفكيره الخائف حيث يراقب كل شيء. فكر بمكان آمن، نعم.. تذكرها الآن، وكيف ينساها؟ مزرعة جده في قرية كرزكان. ما دام قد غادر المستشفى فهو في حال أفضل، حرية جزئية تحت سيطرة القلق والخوف، ولا انتظارٍ بئسٍ هناك.

يركض ويركض مبتعدًا أكثر عن دوامة العذاب، هي أفضل الأوقات الآن، يستنفر كل طاقته وعزيمة النجاة، هم الآن اكتشفوا هروبه وذلك الشرطي المتجهم الوجه، المفاجأة ستجعله مستيقظ ولكن في التوقيت العبيث الضائع!! قد لا تشبه هذه المغامرة الهروب من الكاتراز⁽¹⁾، ولكن الخلاص منهم، بمثابة ولادة جديدة للحياة. يركض مرة أخرى ويقاوم

(1) الكاتراز.. سجن أمريكي شهير (1859 - 1933م) ويسمى كذلك سجن الصخرة، حيث يتموضع على صخرة عالية عبارة عن جزيرة معزولة مقابل سواحل سان فرانسيسكو الأمريكية، حيث يضبط في هذا السجن عتاة المجرمين والخارجين على القانون والذين يشكلون خطرًا على المجتمع، السجن يتمتع بحراسة مشددة، ومحاط بمياه البحر ذات التيارات القوية، تتكاثر حوله أممهاك القرش، وهو ما يجعله أسطورة، فلم يتأكد من خمس حالات فرت منه إذا ما كتبت لها النجاة أم لا. يحتوي السجن على 378 زنزانة، منها 42 للحبس الانفرادي، كتبت حول السجن الكثير من الكتب والروايات وأنتج عنه العديد من الأفلام السينمائية، وكان من أشهر مجرميه زعيم المافيا (آل كابوني)، وفي منتصف عام 1963م قررت مصلحة السجون الأمريكية إقفال السجن، فتم تحويله إلى مزار سياحي!

التعب وحر النهار، هو يعرف الآن القيمة المصيرية للوقت، تنتفخ رأسه بآلاف الأفكار والهواجس تركض معه في أنفاسه حتى أحس ببعض الأمان، وجد قواه تنهار لتحط أحمالها عند بيت حديث البناء غير مسكون، في الحال اختار الدور العلوي، تحامل على نفسه قليلاً وصعد عتبات الدرج ثم أظلم في مرمى بصره كل شيء.

تهدأ تلك العواصف، المخاوف، الأشباح، جيوش القلق، كل شيء هنا يغرق في السكون والظلمة، يتفقد المكان فلا يجد أمامه شيء يلفت الانتباه. لا يدري كم من الوقت نام هنا، وكم صخرة نطحتها كي يصل، كم حلمًا تمسك بجباله البالية حتى يرتفع فوق سطح ألمه، كم شبهاً قاتله كي ما يهزم خوفه؟ الآن يعرف كيف يغيظ هذه الفزاعة البغيضة، سيقدم لها البيض الفاسد وابتسامة الانتصار. سيرقص بخيلاء مثل أي معتوه يظهر على التلفيزيون يهز رأسه بحركات غامضة، كي يخبر المشاهد أن به مس من الجان!

هذه المرة يختبر شعورًا مغايرًا، تلك القفزة الحرة فعلت فعلها، الشياطين التي كانت تضحك، هو متأكد أنها أصيبت بالخرس وخيمت عليها خيبة الصمت، ربما تساقطت من رأسه تفر مذعورة. لكن هنا في الظلمة، تمكن من تبيين ملامحه المتعبة حينما جاء ليشاركة الجلوس..

- هذا أنت؟ لا يرقى إليّ الشك، أنا متأكد أنه أنت، رفيقي وعمي زوربا.
- أهلاً عارف، ههههههههه. لو كنت مثلك ما تجرأت على مغامرة كهذه، لكن أنت شجاع.
- الحرية طعمها غالٍ يا عمي زوربا، أنت تعرف قصدي طبعاً؟
- ليس المهم أن تصعد القمة، ولكن التحدي أن تبقى فوقها تتمتع بالهواء النقي.
- لن أتركهم يقبضون عليّ، القمة التي أنا فوقها، ستتخطى الطوفان القادم.
- علمتني الحياة يا ولدي أن لا أثق حتى في نفسي؟! خلايا جسدي لا بد لها في يومٍ ما أن تخذلني، عيني اليسرى صارت كثيرة الالتهاب، لم أعد أبصر بها سوى الضباب. الشكر للرب أن الأخرى سليمة، وأستطيع بها تصفح وجوه الجميلات. هل تساعدني لإيجاد إحداهن؟
- عمي زوربا هههههههههه. كما عرفتك من قبل، في قلبك يعيش شاب مراهق وعفريت، يتمرد على الجسد المتعب.
- بني آدم إن لم يتمرد على شيء، يفقد ضوء الإنسانية الذي بداخله. أتدري لماذا أتكلم معك بودية هكذا؟

- لماذا؟

- لأنك تشبهني يا عارف، فيك جزء كبير من الفارس الذي كنت عليه أيام شبابي، تصور؟ أنا مثلك أيضًا، توجد هنا في رأسي أشباح نزقة تطاردني، لا أدري؟ أنا أشبه حصانًا عجوزًا انكسرت ساقه ويعجز عن النهوض، لا يملك صاحبه إلا إطلاق رصاصة رحمة على مجتمه النعيسة! لم أعد أحب هذه الحياة، الإحباط الذي يسكنني أطفأ في كل رغبة. هو من ورطني وقذف بي إلى جحيم الحياة، أود لو أدمر مكتبته وأمزق قراطيسه!

- حقًا.. لا أصدق هذا؟! عمي زوربا متورط مثلي وتشعر بالضياع؟!

- أكثر مما تتصور يا عزيزي، نيكوس كازا نتراكيس⁽¹⁾ ضيعني. هؤلاء الكتاب الكبار مجرمين، يصنعون أمجادهم على حسابنا،

(1) نيكوس كازانتراكيس.. (18 فبراير 1883 - 26 أكتوبر 1956 م) كاتب وفيلسوف يوناني، أشتهر بروايته - زوربا اليوناني التي تعتبر أعظم ما أبدع. درس كازا نتراكيس القانون في جامعة أثينا، ثم ذهب إلى باريس في عام 1907 م لدراسة الفلسفة. لدى عودته إلى اليونان، بدأ في ترجمة الأعمال الفلسفية. اكتشف الشيوعية وأصبح معجبًا بفلاديمير لينين، لكنه أصيب بخيبة أمل منها وأستبدلها بأيدولوجية أكثر عالمية. في العام 1912م تطوع للقتال في صفوف الجيش اليوناني في حرب البلقان. أنخرط في العمل السياسي لفترة قصيرة، ثم عين وزيرًا في الحكومة =

يموتون عنا ويتركوننا أيتامًا في حيرة الحياة، نتحول مع الوقت مثل
الدمى الخشبية التي تحركها عقول القراء وهرطقات مخرجي
المسرح والسينما والتيليفزيون، ولكن أرواحنا المسكينة تتعذب
في سجنها هذا! ما بالي أهلوس هكذا؟ أنا متعب وأحتاج كأس
ويسكي.

مثل كل الأشباح التي تأتي وتغادر بلا موعد، ها قد ذهب شبح
زوربا. الآن تحتج معدته الجائعة، الأحسن لو يغادر هذا المكان، ظلمة
الليل تستر، سيعتب أكثر ولكن هذا أفضل من البقاء هنا، ربما تشك
الشرطة بهذا البيت و.. لا، لن يتركهم ينالوا منه بهذه البساطة. متى ما
أصبح الجسد ضعيفًا، تنال منه الجراثيم وتهزم دفاعاته الداخلية، سيقاوم
كل بوادر التعب وإغراءات الراحة. أفضل خيار اللجوء إلى مزرعة جده
كما قرر سابقًا.

يتذكره الآن.. تكلم عن صباحه، يومها كان يضع بضاعته من البطيخ
والبقل على ظهر الحمار، بينما هو يستمر في المشي من كرزكان حتى
المنامة، الرحمة والمغفرة للذكرى هذا الجد الطيب. مادام الجد كان آنذاك
قادرًا على تحدي صعوبة التدريب، إذن فهو يستطيع. يعرف أن الشرطة

=اليونانية عام 1945م ثم مديرًا في منظمة اليونسكو 1946م لكنه استقال بعد ذلك ليتفرغ
للكتابة.

على الأرجح ستفتش مداخل المناطق، نقاط التفتيش قائمة أصلاً، سيبحثون في وجوه الناس ومركباتهم التي تعبر الشوارع ونقاط التقاء المناطق، المشي أفضل وسيلة، عليه أن يثق في خياره ولا مجال الآن للتراجع، المزرعة ليست بعيدة من جده، وعلى ذلك؛ فهي ليست إلا رمية حجر في مرمى بصره المصر على تحدي كل صعب.

وضعت هاتفها الجوال على منضدة الصالون، مدت يدها لعلبة سجائرها، ولكن تركتها وهي تحاول تجميع الصورة من حديث هاني بالخبر المفاجئ. معقول ما سمعت؟! هاني بدا منزعجاً، أخبرها عن الضابط وتحذيره بعدم إيواء عارف والتستر على هروبه. فكرت بأن تبحث عنه، تقديم مساعدة لعارف في هذا التوقيت سيكون بمثابة كفارة عن موقفها المخزي السابق. لكن أين تبحث؟ ربما سيبتعد عن محيط المنامة، هذا مرجح.. تتذكر كيف كان يتحدث عن ذكرياته في مزرعة جده، كان أشبه شيء برجل يهذي مكرراً بسط ذكرياتٍ يعيد شريط أحداثها بلا ملل من موقع حسرة خفية تطعن قلبه المشخن بالجراح. هذه اللحظات تشعر بمغناطيسية قوية تشد إحساسها إليه، فقط لو يشرق ضوء النهار أسرع!

صباح اليوم التالي، تناولت إفطارها بسرعة، حملت معها بعض الأغراض، وكما طلبت قام الفندق بتأمين سيارة أجرة بسائق أجنبي

أوصلها حتى منطقة المزارع ثم طلبت منه الانصراف. إنها المرة الأولى التي تعرف فيها هذه القرية، أصوات العصافير على ذرى النخيل وبعض الهواء العليل، لا تدري أين يمكن أن تكون تلك المزرعة التي تحدث عنها عارف؟ لا تدري إن كان تخمينها الآن صحيحًا أم أنها مشت وراء سراب خادع؟ تألف روحها كل شيء هنا، أنفها يحفظ رائحة النخيل، كل التفاصيل تشبه قريتها ما عدا فروق بسيطة، تمشي في المكان ولا تعرف بعد أين تضع خطواتها عن يقين.

مزارع كثيرة متشابهة، يكدح فيها أبناء الجالية الآسيوية، اختفى منها ابن البلد، لا تزرع تربتها الفقيرة غير البقل وبعض المنتجات المريضة المحمية خلف البيوت البلاستيكية التي تستنزف من الفلاحين قروض التمويل بلا طائل!

أين يمكن أن تجد عارف الآن؟ باتت تشعر ببعض القلق من تحديق تلك العيون الآسيوية، أغلبها هنا تقبع في وضع الاستبعاد المقنع، تكدح لقاء دنانير معدودة، عمالة مطحونة. تشعر بالخوف يسري في عروقها، لكن صوت نباح الكلب ينتشلها من أفكارها المهرولة خوفًا. هل الصوت آتٍ إليها؟ أم هي تشعر به قريبًا من هنا؟ تتلفت ولا ترى شيئًا أمامها.. قررت أن تصارع خوفها وتتبع مسار الصوت، إحساسها الأنثوي يخبرها برسالة غامضة الملامح بعد بوابة هنا. مزرعة تقع في زاوية

متطرفة نحو الشمال، يرتفع من داخلها خزان حديدي قديم بقعه الصدأ،
صوت النباح يتضح هنا أكثر كما يكشف المشهد أمامها.
في الحال؛ وجدت نفسها تندفع بعفوية، ولم تفكر في أي شيء،
تقذف بالحصى في وجه الكلب بتوتر واضح وبسرعة، حتى جاءت وهي
تتصاعد في أنفاسها لتحتضن خوفه الهارب النازف الوحيد.



(30)

هجم على كيس الخبز، وعلبة الجبن ثم أجهز على محتويات الكيس والعرق يتصبب من جبهته، لم تره هكذا حتى في أسوأ حالاته وهو عند بابها يشحد هرباً من جوعه، حتى أنه غير مكترث تقريباً لساقه اليمنى النازفة إثر عضه الكلب، يحوم عليها بعض الذباب الفضولي وقد انسحب عنها ظل النخلة. تنظر إليه.. كأنما هو من كوكب آخر، كثرت الشعرات البيض في لحيته الكثة، هذا شعره صار منسدلاً على كتفيه يتناغم مع لحيته، وتحمل عيناه وقار منتصف الأربعين وبقايا جنون الشباب والحلم. أليس كل تسكع الأعوام التي مضت من عمرها على أرضفة الرجال، تتذوق أجسادهم وأحاسيسهم المزيفة كما كلماتهم، كلها هراء وهي لاهثة تهرول في السراب، تبتعد عن ذلك النور الذي كان يسكن داخلها ثم تحول إلى ظلمة مقيته، يمازجها الخوف وذوبان الأمان.

- عارف، هل أنت الآن أحسن؟

- م... م... ماء، اللقمة تنحشر في حلقي، آه، آه آه آه آه آه آه

- سامحتني يا عارف، سامحت هذه الفاسقة الملعونة؟

- وما بها الكلاب؟ على الأقل تحفظ الوفاء لأصحابها أكثر من البشر!
-
- الآن الشرطة تبحث عني هه؟، قلت لك أن المزرعة هنا أفضل مكان أتوارى فيه، لن يجدوني.
- وكيف هربت؟!
- ماذا يعني؟ هل هي قصة من فيلم هوليوودي؟! المجنون الذي يسكن هنا قادر على تجاوز الصعاب ولا يعرف المستحيل.
- نعم قصة من فيلم هوليوودي.. أنت بطلها يا عارف. اتبعت حدسي وكدت أتوقف في منتصف شكي، ولكن.. ها أنا عندك، عرفت أنك ستكون هنا، من اللحظة التي أخبرني فيها هاني بهروبك، لا أدري لماذا تكلم بشأنك.
- هذا الداهية وضعك في فخ ربما ويعرف ماذا يفعل.. يهتم بموضوعي أكيد لأنه يخاف على مصالحي مني. لم يفكر حتى في زيارتي هذا التعيس.
- المهم أنت.. الحمد لله على السلامة يا عارف.

أندست في صدره مثل طفلةٍ تعرف خطأها وجاءت تطلب الصفح
بآيات البكاء، لا تعرف إلا التوغل في مساحة هذا الخواء، تقرب منه إلى
صدره، كأنما يهبها كوناً آخر، تكتم فيه صرخات عذاباتها، هنا تغني
وتفرح، تلتئم جراحها، تسافر "أناها" للبعيد كما رشة عطر تجود
بنفسها، تؤتي رقصها بسخاء لا يتقن إلا الاحتراق.

لكن في هذه اللحظة أوقف رقص اشتهاه الأهوج، استيقظ
مستشعراً طعم هذه الهزيمة، واحتقر نداءها الحيواني، متجلداً يتمرد على
لظى نارها اللذيذة، وقال بحزم:

- كفى يا منصوره، يرحم الله والديك، كفى.
- هيا يا عارف، لا تترك مني شيئاً، أشعل حريقك ولا تبالي!
- قلت لك كفى يا مجنونة (صفحة)!!
- ارتعشت كما نبتة بريبة داهمها الغبار الصحراوي الجاف، حدقت فيه
منكسرة مندهشة ومن بين دموعها، أصبحت الآن لبؤة شرسة..
- لك حق، نعم أنا استاهل، الديكور الذي تراه تعرف التي تختبئ
خلفه.
- استيقظي، خلاص.. ضيعك هاني، أنت لا تعرفينه؟

- أعرفه أكثر منك. هو صادق في نيته عندما حاول مساعدتك، حتى تصوير واحدًا آدميًا مثل الناس، لكن ها أنت، متشرد ثم مسجون وفريت بعمرِكَ التافه، لا هدف لك في الحياة، قالها هاني وصدق: حياتك لا تعني شيئًا، مجرد.. زبالة! طوال عمرك لن تتغير حتى تموت وتدوب عظامك.

..... -

- تف على اليوم الذي عرفتكَ فيه. أنا لا أدري ما الذي خبلي فيكَ؟ أنت واحد نكرة أنت.. بصقة على القاع تتقزز منها الناس.

انتصب واقفًا، يهتز قليلاً والريح تداعب خصلات شعره، دار ببصره ناحية حوض المضخة التي كانت تسقي الزرع وأجمل الذكريات، يقف جده هنا يوزع سيمفونية الماء خصبًا يروي ألحانًا من الحضرة والهدوء والخير. عند الحوض الحجري الذي لا يزال صامدًا، تقف بقايا الفزاعة، تهرأ الشوب الذي ترتديه وبقيت الرأس الخشبية بشعرها الاصطناعي وبعينين جاحظتين في الفراغ، كان قد صنعها والده ذات نهار، هو لا ينسى ذلك اليوم (ضحك)..

- هل تربيتها؟ هناك، نعم هناك. كل وجودي في الحياة مثلها تمامًا. فشلت في التصالح مع نفسي، صدقيني لم أعرفها يومًا. قرأت الكثير من الكتب ولم أجد لثقب هذه الملعونة الأسود غورًا أصل إليه، ما وصلت إلى شيء.

هذه الفزاعة عندك تسكن هنا في رأسي، تشاركني نومي وصحوي وأحلامي وأكلي وشربي وحزني وكل خيالي وهزائمي، فشلت في انتزاعها من رأسي اللعنة عليّ! ماذا تريد من معنوه مثلي؟ صرت أعتقد أن لكل منا فزاعته التي تجري في دمه وتطارده.

- أحبك..

أحبك والله أحبك يا عارف، سافرت ورجعت وخيالك لم يفارق تفكيري، قدرتي أنت يا عارف، أحبك وسأجن مثلك هل تعرف أم لا؟ أنا مثلك منبوذة وأبحث عن نفسي يا عارف، نحن لبعض ألم تفهم هذا بعد؟

- مسكينة وغبية.. تحبين مخبولًا مثلي!؟

- طالما نظرت لنفسك هكذا ستظل على هذا الحال يا عارف، حياتك ستتغير، اعط نفسك فرصة، حرام اللي عمله في نفسك. تدري.. لازم تسافر بأي وسيلة، ستتعالج في أحسن

راسبوتين⁽¹⁾ سوف يساعدي بتأثيره السحري الطاغي ويهلك أعدائي من الشياطين، سوف يلهمني جريجوري بواحدٍ من حلوله العبقريّة، ربما يشفييني من أوجاعي. صدقيني أنا بأمان، كل أشباحي الصديقة أراها هنا تسانديني، لست وحيدًا كما تتصورين، فقط لا تقلقي عليّ.

*** **

- سهام افهميني واتركي هذه المثاليات السخيفة، أنا لن أكرر العرض مرة ثانيةً. تعرفين الآن أن عارف هرب، حسب الفريضة

(1) جريجوري يفموفيتش راسبوتين.. رجل أعطى العالم نموذجًا فريدًا لم يعهد التاريخ مثله عن الرهبنة، عرف عنه فجوره ودوره المؤثر والغير عادي على المحيطين حوله، وعلى مجتمع القيصريّة الروسية، حيث عاش في الفترة ما بين 1869 – 1916 م. عرف عنه انتمائه في شبابه المبكر إلى عدد من الجماعات السرية ذات الممارسات الروحية والجنسية المشبوهة التي تقترب من عبدة الشيطان وممارسي السحر الأسود. كما أنه من عام 1881م بدأ سلسلة من الرحلات سيرًا على الأقدام، سافر فيها إلى اليونان وسوريا والأردن وفلسطين، زار فيها معظم البقاع المسيحية المقدسة والأديرة الشهيرة في تلك البلاد. ثبت عن راسبوتين قدرته الهائلة على التنويم المغناطيسي (الإيحائي) باستخدام صوته فقط، يتمتع بحضور قوي، فكان يشتهر بقدرته على شفاء الأمراض والجروح، بمجرد وضع يده على مكان العلة! بعد تنامي نفوذ الراهب راسبوتين على العائلة القيصريّة وتأثيره السياسي في روسيا، قام خصومه بالتآمر لقتله.. قتل بالسم وتلقى طلقات نارية قبل إغراقه في النهر.

الشرعية له نصيب من البيت من بعد وفاة الوالد، علينا أن نتصرف، مصلحتنا تضيع، فكري في هذا.

- لا يهديك تفكيرك إلا للشر. يعني تريد ماذا؟ نقله حتى تكون التركة لنا نحن الاثنين؟

- تعرفين الآن من بعد إقرار قانون تملك الخليجيين عندنا، كم صارت أسعار العقارات والأراضي في السوق؟ لا تدرين بشيء غير ملابس الأطفال وصدريات النساء، مكسبها مضحك مثل تفكيرك.

بدا عليها التفكير العميق في كلام هاني، أنزلت بعض الأغراض عن طاولة البوتيك ثم نهضت لتقفل بابه الخارجي..

- عندك صفقة ومتأكد من نجاحها يا هاني؟

- جريبي وسترين!

- أمنا لها نصيب من البيت، ما فكرت فيها؟

- أمية ولا تفهم (الله يحفظها)، أي ورقة يمكن أن تقنعها بأننا أعطينا عارف حقه ونسلمها كم دينار وأنا معك مكسبنا واحد.

- أحتاج ضماناً حتى لا تغدر بي، ماذا ستقدم لي حتى أتنازل لك عن نصيبي من البيت؟

- أعفكي من قرض البوتيك وخذي مني أربعة آلاف دينار بعد بيع البيت.
- لا يا حبيبي.. يا ولد أمي وأبي، تعرف كم صارت أسعار العقارات والأراضي في السوق؟! ههههه.. أمك وأخوك تصرف معهما كيفما تشاء، هذا لا يخصني، أنا لا أقبل بأقل من عشرين ألف دينار، وحلال عليك، بكم تبيع البيت؟ لا دخل لي، عليك بالعافية.
- خبيثة وطماعة.
- أشكر ربك يا أخي، أمك في مسؤوليتي وأدفع إيجار البيت ومعاش الخادمة من جيبي. وأنت كرمك فائض علينا، تستكف تدفع مئة دينار في الشهر حتى نتنفس.
- كنت أعرف أنك... لا بأس أنتِ مهما كان أختي العزيزة، خلاص اتفقنا.
- وعارف؟
- عندنا الأوراق التي تثبت حالته الذهنية، حيلة قانونية من محامٍ شاطر ونطرد هذا الأهل من الموضوع نهائيًا، فقط لو يساعدنا المحامي المناسب.

- هاني، إياك تتهور، فهذا مهما يكون أخوك من لحمك ودمك، لا تؤذيه.
- عجيبة أنتِ يا سهام! تتآمرين معي عليه ثم تبكين؟! لا تخافي عليه، إن كان سيموت اليوم أو غدًا فلن تقتله إلا الشياطين التي تحوم في رأسه وقراءة كتب الهراء. رجعتي تفكرين مرة أخرى؟
- مسكين يا عارف، الدنيا ما تركت له شيء، لا مستقبل ولا عقل ولا.. لكن مصير أخونا الكبير..
- مصيره تقبض عليه الشرطة ويرجع السجن أو المستشفى النفسي، من يدري؟ ربما يأخذ الله روحه وتنتهي قصته كما في أحلام أمي الخرفانة! إياكي تتراجعين يا سهام، اتفقنا وانتهى الموضوع.



(31)

أطلت من العين السحرية تستطلع قارع الجرس، فكانت المفاجأة..
عمتها تقف عند الباب، عند حيرة الصمت المنكسر والغربة التي تحتشد
في وجهها الذي كبر به العمر، تجاعيد من حزن وتعب أزال تلك السطوة
ربما وحل مكانها سؤال مباغت لم تتوقعه ذات يوم (لماذا؟) وهي التي
كانت تريد الفكك منها وتدعو الله بأن يأخذ روحها، فهي السبب في
عنوستها وقلة حظها من الدنيا! تركت لها البيت وهربت فما الذي
دعاها الآن إلى...؟ بدا على وجهها الضيق وقرعت الجرس من جديد،
أكدت سألت وتقصت هنا وهناك حتى وصلت.

هذه العمّة التي لا تشبه إلا (.....) استغفرت ربها وطردت غبار
الماضي من ذهنها وفتحت لها الباب. دخلت، ثم بدا أنها تتجمد أمام
خيالها، تنظر إليها من فوق إلى تحت، كأنها تتأكد من أنها ابنة أخيها،
تلك الفتاة الهزيلة السمراء الهاربة، ذات الثؤلول المنتفخ كحبة الحمص
على جانب أنفها المعقوف.
- تفضلي عمتي أهلاً.

ماذا تنوي؟ لقد سحبت خلفها حقيبة كبيرة ودخلت وهي تبكي ثم
حضنتها بحنان يربط إحساسها كشيء ودي لم تعهده من هذه العمة
القاسية القلب..

- زكية.. زكية، رائحة أخي المرحوووووم، سامعيني يا بنتي وأجرك
على الله، سامعيني.

..... -

- أظل عمّتك، إحنا ما لنا أحد في الدنيا، إحنا لبعض، وهذا هو
ما كتبه الله لنا. ماذا أفعل؟!

- حياكي الله عمّتي.. يعني أنا طردتك لا سمح الله؟ ادخلي، كيف
حالك؟

- بهدلتني الدنيا وشفّت الويل آآآآآ.

استيقظ كل وجعها الآن، تهكمت على حال هذه العمة.. أما كانت
كل لقمة تأكلها مغمسة بالنكد والمشاكل التي تختلقها من كل الجهات،
فقط لكي تمنع في تحويل حياتها لجحيم لا يطاق. هي ذي دورة الزمن،
جاءت بحملها تخلط الأشياء ببعضها ومن النقيض إلى النقيض، فسبحان
الله تعالى، ها نزلت من برج تكبرها العاجي، تبحث عن ملجأ، تلوك
الكلمات متمسكة على حالها وحال البيت الذي كانت تسكنه، تداعي
بحجارته وطينه، بيت قديم ناء بحمله، كل كلامها المستعطف ولهجتها

اللينة الآن تمهيد أولي من أجل طلب اللجوء.. دنيا دوارة الطامع فيك
والمغرور بك لا يجد منك غير الصد والخسران! ها هي الآن أمام امتحان
آخر، بالكاد تتدبر معيشتها وبقية مصاريفها. لن تشغل تفكيرها بأي
شيء يلح عليها هذه الساعة، وصول هذه العمة التعيسة أريك نهارها،
كم تكره تلك الأيام، طعمها الآن يصعد إلى سقف حلقها كالحموضة في
المريء التي تفسد نومها في بعض الليالي.

ها هي سكتت قليلاً من ثرثرتها المصدعة للرأس، التفتت إلى الشقة
وبدأت تتفقد حولها كل حجرة بتركيز شديد وكأن عينيها الغائمتين
ستخرجان من وراء نظارتها القديمة، ثم عاودت الجلوس مكانها
وتبسمت..

- عليكِ بالعافية بنتي، الشقة ما تتعيب أأأ الحجره اللي عند
المطبخ ما تصلح وأنتِ تعرفين عمته، عندي ضيقة نفس يا
حسرتي على صحتي وشبابي.

- خذي الحجره اللي تعجبك عمتي، أنا ما عندي عمه سواك.

- أصيله يا بنت أخي، الله يرحمك ويجعل الجنة مثواك.

تكاد تنفجر كما القدر التي تغلي من داخلها، مغلقة الآن على
إحباطها الصباحي ما من طريق للتنفيس والهروب، ستقبلها على مضض
وهي مكرهه لا خيار أمامها. هل ستترك أيما جن يركب عقلها الآن

ويجعلها ترتكب حماقة طردها من الشقة؟ فكل تعب وإذلال تلك الأيام
الكريهة لا يبرح ذاكرة الشقاء، تطر من فيض العممة الرحيمة الدمثة
الأخلاق جدًّا!

- زكية أناديك.. ألا تسمعي؟ الحجرة تحتاج ترتيب، و.. حتى
سرير ما فيها؟!

- رحم الله والديك يا عمتي، أحس رأسي سينفجر. إن شاء الله
بكره أدبر لك الموضوع.

*** **

كان قد انقطع من المكان، شبح واختفى فجأة، أين يتوارى عن
الأنظار هذا العجوز هكذا ولا يحس به أحد؟ بدت ملابسه مرتبة بشكل
أفضل، لكن هذه قشرة رأسه الأشيب لا يزال يفضها بتلك الحركة كأنه
ممثل مسرحي، إلا أن سيارته لم تتغير وعاد ليقف هنا بالقرب من
الحديقة. هه واضح أنه قادم هنا حتى يستطلع بفضوله الكشك. يبخلق
ويبخلق ثم نزع نظارته الشمسية وقبعة المراهقين التي لا تناسب سنه، لم
يبق إلا أن يسأل الآن، خشب الكشك من أي بلد هو مستورد؟!

- إيه.. زمن أول تحول، زين زين.

- تفضل، ماذا تريد؟

- يقولون: السلام قبل الكلام، كيف حالك يا زكية؟ الكشك على ما أظن إيجار.
- الكشك يا حاج مرزوق حلالي من تعب وشقاء عمري. قل ماذا تريد؟ تغيب وتظهر مثل الشبح!
- هههههه، حلوة كلمة شبح. ماذا أفعل؟ ديرتنا العيشة فيها تقصر العمر ولازم الواحد يغير.
- يعني كنت مسافر؟
- الحمد لله من حلالي وتعبي، على الأقل هناك في تايلاند، الوحدة ما تتشرط ويركبها الغرور وتصدق نفسها!
- هو ذا ينتقم، تعرف لهجته التهكمية، تعرف مغزى الكلمات، تنطلق بهدوء من فمه تصطف في جوفه أسنان اصطناعية كم بدت قبيحة الشكل تتناقض وتجاعيد وجهه الشرير. ينتقم منها لأنها كانت ترفض عروضه للزواج. فجأة عرض عليها صورة من هاتفه.. كانت تقعد في حضنه بشبابها الفائر وبشرتها الصفراء، تلبس بلوزة بلون البحر وصدريه بيضاء، تضحك عاهرة القبح وفي يدها علبة بيرة كما صاحبها الأهل.
-
- سفرة حلوة ما يمكن أنساها، الله عوض علينا ما تعطلنا على هالديرة!

- بالبركة يا حاج مرزوق، تريد شيء؟

- واحد (مارلبورو) أحمر.

أشعل سيجارته وأخذ نفساً طويلاً منها، تقلص فكيه وبرزت تجاعيده أكثر وهو يحدق في الرصيف، ثم نظف حلقه من البلغم وبصق ما بجوفه بتقزز..

- أمس سمعت الخبر.

- أخبارك ما تخصني يا حاج مرزوق، لا تطول الموضوع دعني أشوف شغلي.

- صاحبك المجنون الله يخلف عليه، هرب من الشرطة.

- عارف؟.. عارف هرب؟ أو بس تحب تقهرني وتمزح على الفاضي؟

- هههههههه إليه، عارف هرب، بس أعتقد بيرجع إلى البسطة،

أكيد ما يستغني عن الذرة اللي ببلاش من الحبايب هههههههه!

مضى من المكان يضحك هازئاً وها تركها في دوامة جهنمية من

القلق. استجاب الله دعاءها، عارف إنسان طيب، الإساءة إليه جريمة،

منبوذ محاصر من أوجاعه، في عزله يتجرع الصبر على بلواه. ترتبك ولا

تدري ماذا تفعل الآن؟ تذكرت أنها خبأت دفتر مذكراته في حقيبتها

للحيطة فقط كما أقنعت نفسها، لكنها ظلت تؤنب إحساسها بأن

محاولة الالتفاف على ضميرها ومراوغة تشكيكه بصواب ما تفعل في التجسس على أشياء الآخرين، كلها لم تنفع. لكنها ربما تجد شيئاً من كل هذه السطور المحشودة أحياناً بشكل فوضوي صعبة القراءة، شيء يدلها عليه.

تعرف أن هذا - ربما - يساعد الآن. العاشرة والنصف، هذا الوقت من النهار مناسب، لا حركة هنا من قبل المرتادين، حتى كناسي البلدية تجدهم يختبئون أسفل ظلال الأشجار يلتقطون أنفاسهم وسط هذا الحر الصيفي المتوحش. فتحت الدفتر على صفحة ما، هكذا بعفوية..

((لا أدري إن كنتُ حقاً مسكيناً؟! أو ربما أنا - ملعون - في جحيم هذه الحياة، جسدي هذا ليس لي! ربما هو جسد إنسان آخر يسكنني بشكل تعسفي، شقاء في كل مكان أذهب إليه، كل هذا الضياع يحاصرني، تطردني الأماكن شريداً، لا أعرف نفسي، كأنني أنت يا (أوليفر تويست¹) حكم عليك تشارلز ديكنز⁽²⁾ باليتم والشقاء لأنكما وجهين

1

(2) تشارلز جون هوفام ديكنز - 7 فبراير 1812 - 9 يونيو 1870، روائي إنجليزي يعتبر - بإجماع النقاد - أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري، ولا يزال كثير من أعماله يحتفظ بشعبيته حتى اليوم. صور جانباً من حياة الفقراء في أعماله الروائية والقصصية وبالذات في راعته الأدبية (أوليفر تويست - Oliver twist) عام 1839 م، وله أعمال أخرى عاجلت واقع الطبقات الفقيرة والمنبوذة في بريطانيا وطيغان الليبرالية في عهده. أوليفر تويست

لعملة واحدة. فأنت يا عزيزي أوليفر تضيع في ضباب شوارع لندن، جائعًا مطاردًا ومهشمًا مثل البلور، تأكل منك الوحدة، ضياعك يتشظى في كل الجهات فلا ترسو سفينتك على بر الحلم الذي تريد لدفنه أن يغطيك.

آااااا، نسيت لف قدمي اليسرى، لم أربح شيئًا من تلك القمامة التافهة، المسمار تسلل إليّ وغدر بي فجأة، تلبسه روح شريرة حتى يباغت اطمئنائي وتعاسني، هذا معنى واضح على ما سبق ووصفت به نفسي (ملعون)! أي هو صاحب الحق المصري في هذه التسمية التي ألصقتها بي، أذكره ذات مرة صرخ في وجه طفولتي حانقًا: أنت.. أنت من يوم ولدت وأنا لا أتوفق في حياتي وتلاحقني المشاكل في كل مكان، لا بارك الله فيك يا ملعون!! حقًا.. ليس لنا الخيار، أين نولد وما هي تلك العقائد التي سنرتدي قمصاتها ونقاتل في سبيلها ولا حتى نختار والدينا. شكرًا أي، جعلتني منبوذًا قبل الأوان.

هناك أشياء كثيرة لا أجد لها تفسيرًا، فهي تم...))

تصل إلى حافة الجملة المبتورة، بقايا الصفحة منتزعة بقوة وكأثما غضب من لحظات الاعتراف مكابدًا أوجاعه بلا طائل، يستمر في

هي بمثابة حياة موازية، تعبر عن الظروف الصعبة التي عاشها ديكنز فانعكست ضمن هذه القصة بكل ما تحمل من ألم إنساني وصراع مجتمعي.

العرق، تبتلعه بؤر الخراب الشاخصة بوحشيتها وتستولي عليه. لم ينفع
بحثها الآن عن نتيجة، نصف الصفحة الممزقة مفقود، حياتك يا عارف
مفقودة، لماذا الأسئلة فيك تكبر حيرتها؟؟ أي الأماكن تأوي تعب
روحك الآن؟

عارف.. جروح روحك تمعن في قسوتها، هنا روح أخرى تقف ترسًا
تصد الألم عنك، تشاركك خبز الحلم، مهما صار يابسًا، لكنه يتنفس
متمردًا ويعبر مساحات الجمر التي تحاصرنا. هكذا ولا شيء يشبه هذه
اللحظة، ما الذي أبكاه وسرق منها هدوء النهار؟ كان أحد الأطفال
يحدق فيها مستغربًا منظرها، ثم آثر الانسحاب من المكان.

*** **

- هاني أرجوك ابتعد، أحس بطني تتقلب، أكاد أفرغ كل ما بجوفي،
ابتعد عني، اللعنة على قدري يوم صرت بنتًا، ليتني أموت،
أتركني.

- عذرتك في المرة الأولى وقلت، المسكينة متعبة من السفر ولكن
ما حاجتك الآن؟ حتى..، هه، كأنك قلتِ بطنك تتقلب و..
آاااه فهمت! لا.. لا، احذري، تلعبين غلط مع أبو طلال.
أنتِ حامل منه، صح؟

- ههههه، غنمة وصار لها قرنان وفرحانة تريد أن تنطح! ماذا اكتشفت بعد؟، تكلمي يا حلوة، خلينا نستفيد بعقلك الخطير.
- أنت وأبو طلال عندكم أنشطة مشبوهة وبلاوي، وعلى يدي فضيحتكما وستريان.

قام عن السرير، عدل من هندامه وتفقد بدلته وربطة عنقه عند المرأة ثم صفق ضاحكًا..

- بصراحة يا منصور، هذه أول مرة في حياتي أحترم امرأة، ومن؟ وحدة نكرة تظن نفسها مظلومة وشريفة!
- يعني أنت الشريف؟ تتملق كبار البلد حتى تمشي مصالحك ولو على جث الناس. لو تتوب أحسن لك يا هاني يمكن ربك يغفر بلاويك.

- محاضرة أخلاقية من واحدة وسخت شرف عائلتها، عيب يا منصور، لا تخليني أغير فكري عنك.

- أنا خلاص، هذا الدرب ما هو دربي، أتوب لربي وأرمي الماضي وراء ظهري، أنت وأبو طلال وأشكالكم ما يلزموني، لازم أعيش حياة جديدة بعيدة عن أوساخكم. أبغي أرتاح.

- يعني ماذا تقصدين بحياة جديدة؟ ههههه العاهرة تبقى عاهرة حتى تموت.

لحظات مفزعة، لا تدري ماذا تفعل؟ كل هذه الأفكار تصطرع بداخلها،
رياح سوداء تتقاذفها في بحرٍ هائج بسماءٍ ممطرة.

حدسها يرسم أشياء كثيرة ملفوفة بالسواد، يرحم الله تلك الأيام التي
كانت فيها هائثة البال، برغم المعاناة مع عجز متقادمة أمراضه،
كالطفل يتغوط في ملابسه، تتأفف منه وتلعن حظها كلما غيرت له.
لكن.. كل هذا تغير إلى غير رجعة، كم تحتقر حالها الآن، في محمل النعيم
الملوث، لا شيء غير الحرام يغلي في أحشائها المدنسة. هي هرولة عبثية
في وسط النصال الحادة ولعبٍ بالنار، مقامرة حمقاء مع الشيطان! حتى
لو غرق أمامها عالمها، لا بد من شتلة أملٍ وحيد تكون اخضرار نجاة،
سوف تسعى لهذا، تعرف أن هناك وقت مهما كان قصيراً في أنفاسه،
لسوف تتصالح مع رهانات الخيبة والوجع وتأنيب الضمير، كالطاحون ما
استطاعت إيقافه، ولا ترضية سكوته. تعرف الآن ما تفعل، ستقوم
بذلك.



(32)

- هههههه أنا أراك تقرفص قربي في هذا المكان، كأنك.. أوه
الأحسن احذف هذه الكلمة من تفكيري الآن يا عارف. احترام
متبادل بيننا أحسن من كلمة طائشة ومحبطة ترضي غضبي،
أعذربي، قلت لك، هكذا يكون عجوزاً مثلي عندما تقترب
نهايته.
- لا تقل ذلك يا عمي زوربا.
- الحياة أكبر من أن نستوعب كل شيء فيها، نادم على أشياء
كثيرة لا أستطيع البوح بها يا صاح.
- تبدو بائساً يا عمي زوربا، كل شطحاتك وجنونك ولا مبالاة،
هل الآن تتوقف مخذولاً؟! كم تهمني العزاء في هذا العالم
الجهنمي، إياك أن تتخلى عني.
- تعبت كثيراً، أليس من الأفضل أن تتركني لأوراق صاحبي،
تركت مكاني شاغراً هناك من أجلك، يجب أن أرجع، قبري
هناك يا رجل، وهل هناك رجل يغادر قبره لآخر غيري أنا؟!
اللعنة.. اللعنة.
- ماذا ستفعل؟!!

- دعني أفعلها.. عندي رصاصتان في مسدسي العتيق، جاهزتان الآن من أجل موت سريع، كلانا يرتاح من بؤس الحياة ما رأيك يا عارف؟
- أنت يائس مثلي يا عمي زوربا؟ هكذا نتحول عندما ينطفئ الحلم البريء بداخلنا ويضمحل الأمل.
- اللعنة؛ لا تفلسف شيئاً أمامي، لغتك الأدبية هذه لا يحتملها الموقف. أنت أكثر بؤساً مني، أنت قارب صغير ومهترئ تتقاذفه أمواج العاصفة، ضائع لا وجهة له.
- ههههههه، عمي زوربا، ها أنت ترد عليّ بنفس اللغة، أنا أنت وأنت أنا. حتى (جريجوري راسبوتين)، التفتُ أمس لوجه الشبه بيننا عندما ثرثرت معه!
- أوه العزيز جريجوري لم ألتق طيفه من مدة، تعرف؟ المرة القادمة ربما لا تجدني هنا. أرجوك لا أستطيع تبرير هذا الآن فلا تسألني و.. سأصلي من أجلك. لست متدينًا لتك الدرجة، لكن سأفعل.
- تصلي من أجلي؟!!

- تمسك بشيء من الأمل، هذا لن يكلفك شيئاً، سأنصح بقية
الأشباح من زملائي حينما ينوون القدوم إليك، كلنا نحبك يا
عارف! ثم لو كنت أعرف..

ها قد غادر بغتة، بسرعة أخلى المكان. جاءت وعلى صفحة وجهها
سؤال من ازداد استغرابها.. تتفقد المكان، لكن المزرعة كما هي، مقفرة
في هذا النهار، لا أحد فيها غيره مع تلك الفزاعة البشعة، أليس من
الغريب أن يتحدث هكذا مع الفراغ؟!

- هل معك أحد في المزرعة يا عارف؟!

- لا تشغلي بالك، هذا عمي زوربا أروع واحد طيب أحبه
وأحترمه في العالم كله!

- لا أرى أحداً عندك، يمكن عضه الكلب نقلت لك مرض
خطير وأنت لا تدري. هذه هلوسات غير مطمئنة. زوربا من
يكون؟

- زوربا أحد الأشباح الطيبين، يزورني من وقت لآخر، نحن
أصدقاء مع بقية الأشباح التي.. أوه لا تشغلينا بهذا الموضوع،
معدتي تأكل نفسها من الجوع.

- كل حتى تشبع، عندك دجاجة مشوية ورز.. كل ما يعجبك.

- خسارة.. طعم السمك المقلبي أحلى، أتذكرين ذلك اليوم يا منصوره؟
- دعك من الذكريات الآن. عارف، لازم تغير مكانك هنا، لا تنتظر حتى تهجم عليك أية دورية شرطة أو يصيبك مكروه، هل نسيت أنك هارب؟
- أخذ يعضغ طعامه في عجلة والأرز يملأ فمه منتفخاً ثم هز رأسه..
- ماذا لو قررت أسلم نفسي وأنتهي من هذه القصة السخيفة؟!
- أكيد لا تقصد هذا الكلام، أخوك هاني اتصل بي اليوم.
- وماذا كان يريد؟
- لا تشغل بالك، هو في عالم وأنت في عالم آخر.
- هذه الغاز أم ماذا؟
- لا أبداً، أحس بالضجر ولا رغبة لي في شيء، عارف، يجب أن أذهب، طيارتي تقلع بعد ساعتين. هل كتبت شيئاً جديداً؟
- نصف صفحة ثم مللت، أعجز عن فعل شيء ذي جدوى، أمس تيبس الدم في عروقي، سيارة شرطة مرت بالقرب من المزرعة.
- تقول أنك ستسلم نفسك، لماذا خفت؟!
-

- سأتأخر على هذا الحال لو جادلتك بلا فائدة، هاك، خذ هذه الأغراض أيضاً. أحبك، أرجوك ساعني. مع السلامة يا عارف، ساعني.

بسرعة انسحبت من المكان، حدق في الظرف، لا يدري شيء عن رزمة الدنانير التي تعطر يده ولا عن الحقيبة التي تركتها. حقيبة جديدة فيها بعض الصابون والمعلبات، هاتف جوال، صحن ألومنيوم مليء بالمكرونه الساخنة مع رسالة لم يكثرث بشأنها، وأشياء أخرى. الجوع لا يدع له حيزاً كي يفكر في شيء آخر، هجم على طبقه يأكل بشهية ثم انتقل لبقية الطيبات يأكل. وهي تنسحب على مهمل من المزرعة تفضحها دموع أخرى، كأنما تستعد لشيء ما، يشعل حريقاً آتماً تريده وتكاد تهرب منه ثم تصطلي بندمه!

*** **

المضيفة الجوية كالمعتاد تشرح تعليمات السلامة، ها وجهها تتراكم عليه طبقات الماكياج وصرفت انتباهها عنها حينما تسرب إليها الندم، لم تستأذنها الدموع هذه اللحظة، أنصت إلى عالمها الداخلي، ها يدها تتعرق في خوف وقلبها يهرول في غابات القنوط، أن لا شيء يستحق في هذه الحياة! هو هكذا يغرق في التيه ويستمر في تلك الهاوية التي تمتص عمره في حفر الجهول، لا يعرف ماذا يريد من الحياة ولا يهادن شيئاً

حوله، لا يقاتل أحدًا سوى ظله، يرتدي قمصان أحلامه المهترئة
ويضحك!

عارف.. حزنٌ أمامك يفتح ذراعيه وحكاية بائسة لا تشبه أي شيء
آخر. كانت تتوقع أن يموت في سجنه حزنًا أو ربما يحصل له شيء،
ولكنه أفلت بطريقةٍ ما، على أي شيء يكافح ها هنا؟ لأجل ماذا؟ هل
لديه أحلام حقيقية أو أمنيات؟ طلق الفرح من سمائه، عاشر طرقات
الخبية والألم، تجول في عواصم نكباته طويلاً حتى ذابت أسماه وتفرحت
قدميه وهو يحوم في دوائر الفراغ الجهنمي، لا يبلغ أيما ضفةٍ في المدى
غير محطات أخرى متجددة من العذاب!

حرام.. والله حرام، كيف يترك في هذه العبثية يسقط من قمة عذابٍ
فتتلقفه أخرى، صعبة وغريبة الحياة، فكيف تفكر يا عارف؟ لا داعي
لأن تفكر في شيء، لا بد لروحك أن تستريح! حاولت الهرب من
أفكارها، جربت مشاهدة مسلسل كارتوني ثم غيرت رأيها مع شيء من
الموسيقى الهادئة، ولكن كل هذا لا يجدي نفعاً أمام (تسونامي) من القلق
وتأنيب الضمير يجتاح رأسها الآن. هي لحظة حقيرة قبلت بخيانتها
واستجابت لندائها الآثم. تعرف أن بكاءها الآن في التوقيت الضائع ولا
ينفع أو يغير من حقيقة ما جرى في الساعات التي مضت.

مر الوقت سريعاً وسيل الهواجس يجرفها من مكان لآخر. من النافذة تحت غلالة شفافة من الغيوم بدأت تظهر جبال لبنان، سبقها إعلان الطيار الاقتراب من أرض المطار، دقائق حتى صار واضحاً في مرمى البصر، بدت على أرضيته العديد من الفجوات التي خلفها عدوان 2006م الإسرائيلي، تم رصفها من جديد. برج المراقبة قديم كحال المطار في بلدٍ يعج بالتناقضات والمشاكل الطائفية والاقتصادية والسياسية التي لا تهدأ. أشارت المضيفة إلى أهمية ربط حزام الأمان، تبخر بعض شرودها، تركت التحديق خارجاً، تركت ما خلفها ولو في هدنة مؤقتة، ربما الأمور تمضي عكس التيار، يحصل هذا أحياناً. لا بد للمرء من الطبطة على هواجسه حتى يستمر في الحياة.

حطت الطائرة على مدرج المطار، تلك الخراطيم الصندوقية الشكل لا تتوفر عادةً بالعدد المطلوب مع كثافة الحركة الجوية، جميع الركاب ينزلون عتبات السلم نحو الحافلة المنتظرة يلهث محركها دخان الديزل الكريه، استنشاق هذا الدخان يثير رغبتها في التقيؤ، كل أحشائها تتقلب، لا تستطيع التغلب على هذا الشعور، هي ذي تبحث في الصالة عن أقرب حمام للسيدات، تدخل في الحال.. تفرغ ما بجوفها، لحظات ثم تستريح، كأن أحشاءها تستقر في مكانها إلا قليلاً، ترش وجهها بالماء، تريل ماكياج الرحلة، ترتب شعرها لتكتشف زيف وجهها

- آآآآ آكيد اتفتت معها على دس السم في الأكل! لكن يا أخي صحيح، هل يطاوعك قلبك كي تقتلني؟!
- صدقني سترتاح من هذه الدنيا، لا أريدك يا أخي أن تتعذب فيها. وفر عليّ تعب وبلاوي أفكر فيها، والسبب أنت.
- وصلني المستشفى الله يخليك يا هاني، بعدها خذ ما تريد، ألا تراني أموت؟؟ أنت وهي تريدان إزهاق روحي، آآآاه، انجديني يا هاني.
- حياتك بلا فائدة، لازم ترتاح!
- تريدني أتنازل عن ورثي؟ حلال عليك بيت أبونا و.. آآآاه ساموووووووت.
- أنت مجنون وفاقد للأهلية، تنازلك أصلاً بلا معنى، موتك هكذا يسهل كل الأمور. سامحني.. الدنيا يا آكل يا مأكول!!



خرجت من حجرتها غاضبة، صوت التلفاز مرتفع، هذه العمة أخذت تتصرف بعد مدة وجيزة كما لو أن البيت ملكها تفعل ما تشاء! ستكلمها بشدة هذه المرة، الهدوء لا ينفذ مع الناس غير المبالية وخصوصاً.. ها هي متمسرة على مقعدها، التلفاز يضيء وجهها الذي شاخ، تتقاتل عليه كثرة التجاعيد وبعض البقع، ربما مرض جلدي قديم، نعم تتذكر هذا جيداً بينما كانت طفلة في بيتها، تقاسي اليتيم والألم. ها هي بشعر أبيض طويل، منظرها بدا مثل لقطة سينمائية متجمدة في إطار إعلاني لفيلم، كأنها كاهنة أو ساحرة، قد اختارت اليوم ثوباً أبيضاً ناصعاً وبسيط النقا طيع، مثل كفن يلم غربتها ووحدها!

داهمها الخوف فجأة من أن تكون.. الحمد لله، الحمد لله، هي ذي أنفاسها تجيء وتروح. غطتها بلحافٍ ما، تتسامح معها رغم كل شيء، لا ضير من فتح صفحة جديدة معها. أطفال الأضواء وأسدت الستارة تمنع تسلل تلك الأضواء التي بالشارع بلونها البرتقالي القوي ثم رجعت. رأت الدفتر مكانه عند التلفاز كما تركته، مرة أخرى تحدثها نفسها، ها هي تشتهي معرفة المزيد من حروف وكلمات الدفتر، دفتري يا عارف، بوابة تنفتح على تلك الأمور المهمة التي تدفنها عن أعين الناس.

الرغبة لا تتوقف عن استفزاز المحاولة من جديد، وها هو أسيراً بين يديها مثل كل مرة، لكنها حلفت على نفسها أن لا تفتح شهية الصفحات، للدفتر حرمة صاحبه الغائب ولكن.. تستسلم ببساطة، ها هي ينصاع شغفها الفضولي، يتجدد اشتعاله أكثر فأكثر ليتجول في بقاع أخرى لا تزال عذراء، نعم تتذكر هذه الصفحة بالذات، نصف الأسطر بهت حبرها، ربما بسبب قرب نفاذ حبر القلم الذي كتبت به.

((آآآآآآآآآآ)) هذا الألم يسيطر على ظهري من البارحة، النوم على الأسفلت مضطراً وليس لك إلا قطعة كارتون، بالفعل عذاب حقيقي. صارت البلدية تتقصى حصر البيوت الخربة وتلك المهجورة فتهدمها تحت مراقبة الشرطة، يظنون أنها تأوي مجاميع إجرامية.

صباح هذا اليوم مررت بالقرب من بيت الشاعر إبراهيم العريض، وزارة الثقافة - كما تقول اللافتة - قامت بشرائه لترميمه والحفاظه عليه. هه، لست أدري إن كانت الوزارة جادة بالفعل في دعم الحراك الثقافي بهذا البلد؟! أدياء كثيرون، يتم تمهيشهم عن خارطة الثقافة والصحافة تضج بالشكوى، الاحتفاء والتكريم لهؤلاء القادمين من الخارج فقط، هي عقدتنا القديمة - الأجنبي أولاً - ربما يتغير شيء هناك، من الجميل أن نتحلى ببعض الحلم والأمل في أحلك الظروف. أحسن شيء في هذه الجولة، أحد الهنود العاملين هنا في البيت، لحنني

أتطفل عليه، الرجل كريم ودعائي لمشاركته بقايا العدس والخبز مع الفلفل. هؤلاء الهنود حرارة الفلفل تولد في جيناتهم الوراثية، كل شيء يتناولونه تجده ملتهبًا بنيران الفلفل!

خرجت أكمل بقية جولتي، أحب المنامة أكثر من أي مدينةٍ أخرى قرأت عنها، كلنا تسكننا الأماكن التي نألفها وتختلط في لا وعينا، تطاردنا بشكل جميل ينزل مطرًا على الذاكرة. أستطيع رسم المنامة كأهبي حلم أسكن رياضه الخضراء، هناك ذكريات كثيرة حلوة تسكنني عنها، ألا يكفي أن صباي هنا في شوارعها وأزقتها أغنيةً أرددها وأنا عند (فرضة - ميناء المنامة) أراقب ما تبقى من السفن الخشبية، راسيةً في الميناء، أحلم بالإبحار نحو الضفة الأخرى من الخليج العربي.. نعم الخليج العربي، ما خطبها إيران تصر على تسميته (الخليج الفارسي) وكلنا جيران نتشارك حيزًا جغرافيًا واحدًا!؟

فجأة باغتتها طرق متواصل على باب الشقة انتزعها من مكانها، فأغلقت الدفتر. بعض المفاجآت كريهة الطعم تحمل قلقًا أكثر بجرات كريهة حينما تأتي ليلاً بالأخص.. صارت عند الباب تستفسر بقلق:

- من.. من عند الباب!؟

- زكية، افتحي الباب هذا أنا الحاج مرزوق!

- يعني أنت من بقية أهلي أفتح لك الباب في هذا الوقت؟ أنت مجنون تطرق الباب هكذا؟ أفرعني!
- زكية يرحم الله والديك، خليك من هذا الكلام، عارف يمكن يموت هل تفهمين!
- ماذا؟ ماذا تقول؟؟

*** **

لحظات الانتظار مثل كوابيس سوداء تلح على الروح وتجلبدها بقسوة، في الرواق هنا بالمستشفى يضطرب قلبها سريعاً، كل أحاسيسها ترتبك، تتصاعد اختناقاً وتتردى إلى هاوية الوجد، طنين تلك الأجهزة الطبية التي تحاصره، يستفز خوفها أكثر، يمارس لعبة سمجة وغريبة غير معروف مآلها.

- لا تخافي يا زكية، الله سبحانه وتعالى لطيف به. أنا لم أتوقع بعد هذه المدة أن أرى عارف.
- كيف وأين؟ أخبرني أنه هرب فقط من كم يوم.
- تعرفين أني تزوجت من النايلاندية، أخذتها في جولة على مزارع المنطقة الغربية حيث طلبت مني رؤية مناطق الريف و.. صار الموضوع مفاجأة، كأن القدر أرسلني، أسوي خير لنفسي ولو لمرة واحدة في عمري، لا يستحق عارف هذا المصير.

شرع يحدق في حزنها، فوضى من التعب وقلة التركيز جعلتها تلبس عباءتها بالمقلوب. كثيراً ما كان يتندر عليهما.. في النهاية عارف شخص أبله مخبول بالقراءة والكتب والتسكع، يلاقي زكية، واحدة سمراء قبيحة وفقيرة، كليهما يكملان بعضهما! يصلحان للزواج من بعضهما وكخبير طريف في الصفحة الأولى من الجريدة، من أجل الضحك المجاني وطرد الملل. يشعر الآن بالمزيد من الحرارة والندم على تلك الأفعال المريضة ونظرته إليهما. هكذا فقط لحظة شاهده بالكاد يرفع كفه وهو ملقي

على حافة الشارع، يصارع حتفه وفمه يفور بالزبد وأنين الموت!

هو ذا موقفها الشهم، يعطر اللحظة الفاصلة، إنها إنسانة نقية، لا تحمل ضعينةً لأحد، ها يتراكم خوفها وفي ثناياها حب طاهر يخترق صلابة الجدران الحياتية المقيتة، حب تتفتح براعمه ويتضح اخضرارها، تشرق عليه شمس أخرى. حب يسمو في هدوء دونما ابتذال، أمرها عجيب زكية. الموقف الآن غير مناسب، لكنه سيفعل ويعتذر لها وله.. هذا المسجى فوق سريره يتأرجح بين ضفتي الحياة والموت.

- زكية، إنها الرابعة صباحاً لازم أمشي.
- أنت ما قصرت، رحم الله والدك، أنقذت روح هذا الفقير.
- قبل أن أذهب، هذه حقيبة عارف وبعض الأغراض التي كانت قربه، سأرجع مرة أخرى أطمئن عليكما، يمكن العصر أو أحاول

أُتصل بهاني يمكن يجاوبني. لو احتجت شيئاً اتصل بي يا زكية،
في أمان الله.

ها هي قد بدأت تستعيد حواسها وتركز فيما حولها، خرجت قليلاً
من حالة الصدمة التي كانت تسيطر عليها، هكذا هي المفاجآت غير
السارة تسلب حواس المرء أو تشله مؤقتاً، الحاج مرزوق بدا مختلفاً.
تلك اللهجة التهكمية النزقة في حديثه تغيرت، أكيد عنده قصة. هي
أيضاً في أعماقها ليست حاقدة عليه، مرات كثيرة نرثي لحال الناس رغم
ما يحملون من عيوب، من منا لا يحمل جلده هذه البقع الكريهة؟!

تذكرت أنها تركت الحقيبة فوق مقاعد صالة الانتظار. إنها جديدة،
منذ عرفته لم تر عنده غير تلك البالية الكالحة اللون، ربما تعطف عليه
أحدهم أو حتى يكون قد غدر به! إحساسها الأثوي يكاد يتعرف على
شيء غامض، فتحت الحقيبة معتقدةً بأن حدسها يقرع أجراسه المخدرة
الآن وهو يرتاب من شيء ما سينفجر. هذا دفتر جديد، مشط، قلم
وعلبة بسكويت لم تمس و.. رسالة مغلقة!

دقات قلبها تتسارع ركضاً، ضجيج اللحظة يتصاعد في دمها خوفاً
وكل هواجسها تدلهم في قدوم العاصفة التي تشعرها وشيكة.. لم تمهل
نفسها لتفكر بأي شيء قد يقف حاجزاً بمواجهتها حتى تتراجع، ثم
فتحت الرسالة بيدين مرتعشتين..

((حبيبي عارف.. إن كنت محظوظًا بما يكفي وقرأت هذه الرسالة قبل أن تمس الأكل الذي جلبته لك "المكرونه"، ستُكتب لك النجاة؟! أو ربما تقرر أن تبدأ الأكل أولاً ثم تقرأ في التوقيت الخراب ولكن أأ... هذا صعب عليّ، أحلف لك بكل مقدس أني لست شريرة لهذه الدرجة حتى أَدس السم لك في الأكل! لكن ماذا أفعل؟ مصلحتي التقت مع هاني بما أني فشلت في إنقاذك من جحيم هذه الحياة، أنت رفضت كل عروض المساعدة التي قدمتها لك. كان لابد من هذه القنبلة المجنونة التي انفجرت في تفكيري وأهتدي إلى مغامرة مذمومة لا ذنب لك فيها سوى أنني أحبك ولا أريد لك عذابات أكثر، ربما لو قبضت عليك الشرطة لمرت بمتاعب أشد. قدرك غريب وحياتك أغرب يا عارف، أمثالك، الموت لنفوسهم المعذبة المسكينة راحة لا يدانيتها شيء. ألم تخبرني ذات يوم أنك تتمنى الموت لكون حياتك لا تُطاق. ها أنا ذا أحقق لك ما أردت وخذ موتك وارتاح.

لا أدري إن كان لي عند ربي دعاء مستجاب بعد كل خطاياي ونجاساتي وكل إجرامي، أدعو ربي أن ترتاح روحك مما هي فيه، أكيد سأسمع خبر وفاتك وسأنا لم كثيرًا لفعلتي السوداء، ولن أسامح نفسي لهذا، لكن عزائي الوحيد، أنك لن تقاسي بعد هذا شيئًا بتاتًا، ولتذهب روحك بسلام، ها هنا قلب سيظل يحبك دائمًا ويتذكر لحظات جميلة لا

تنسى. ساعني يا عارف، فهذه آخر مرة أراك، ما عدت أرغب بالعودة للوطن، لك كلمة حكيمة قلتها ذات يوم - هذه الأرض لا تنبت غير الملح والشوك - بت مقتنعة بكلامك، لا عودة لي، سأعلن مسيحيي هنا في بيروت بأي كنيسة، لم أعد منصوره الشيعة، أنا عارٌ على نفسي وأهلي سأهرب من جلدي، لكن أتمسك بشيء واحد هو أنت، أنت حي الوحيد. لن أترك زكية تأخذك مني هكذا بسهولة، هكذا أنا قررت نهايتك لأني أحبك يا عارف، اغفر لي أرجوك)).

روح خبيثة سطرت الرسالة، أحست بالخبيل الذي تسرب من لهجة منصوره التي أعماها الشر. كيف تتصرف هكذا بجنون؟! ها تجيء وتروح هواجسها تقفز حواجز مفاجأة أخرى، وهي التي ظنت أن دفتزه تحدث عن كل أسرارها، عارف، عارف يا حفرة مجهولٍ تعري نصفها ظلمةً أخرى لا تفضح مكنونها، من أنت؟ من هم أعدائك غير هذه المهبولة منصوره؟ إن كنت شملت روائح غدرهم، يحفرون خلفك وعرفت بشأنهم أو انتابك حيالهم شك، فلم لم تفضح زيفهم وبقيت هكذا صامتًا توارى أنين الجرح بجرحٍ آخر وتصطر متجملاً في صحراء غربتك؟.

أرادت أن تبحث عن شيء آخر في عمق الحقيبة، فجأة يدخل جناح العناية الفائقة ثلاثة أفراد من الشرطة يقف معهم طبيب يشرح لهم حالة عارف، ها هو يتأرجح على جسر الموت مغمض العينين يغرق في عالمٍ

آخر، شفتيه تنطقان كلامًا صامتًا لا يفك طلاسمه أيما مخلوق في هذه الحجرة.

*** **

- أوف هذا أنت؟ ألا تتركني قط أرتاح! آمنت بأنك شبح فزاعتي الذي أكرهه وألعبه في كل الأوقات، ماذا تريد مني الآن؟ ها أنت حي ولم تمت بعد يا وغد.. أنت حتى لا تحترم قداسة لحظاتي الأخيرة!

- تبًا لك.. قدر زيارتي لك على الأقل! أترى في هذا البياض الخرافي حولك شيئًا آخر غيري يا وسخ؟! لا أحد عندك هنا. لا شياطين ولا ملائكة ولا جن ولا حتى إنس، روحك عالقة في الفراغ الجهنمي، لا أحد يسمعك أو يكلمك سواي، هل تفهم يا تعيس؟! عمك زوربا وكل تلك الأشباح التافهة التي تتحدث معها في وحدتك، كلها طردتها أنا، مزعجة وتشاركني فيك يا مهبول!

- أرجوك، اتركني أرتاح.

- هههههههه.. أكثر الأشياء التي نتمناها تنقلب من وقت لآخر كوايبس لا نختارها يا صاحبي! أنا قدرك ولن تتنصل مني بهذه السهولة. ما كل هذه الأجهزة التي تحوطك؟

- لا تعبت بشيء لا يخصك، هل تفهم أيتها الفزاعة الكريهة
الرائحة؟
- أطمئن عليك فقط، لا تنسى، أنا هو أنت. لي صلاحيات كثيرة
عليك حتى وإن لم توافقني عليها. أتظن بأن تحطيمك إياي هناك
بمزرعة جدك قد فعلت شيء؟! واهم يا صاحبي إن كنت تتخيل
هذا. روحي غادرت ذلك الهيكل الخشبي وسكنت هنا في
رأسك السخيفة، أنا في دمك يا غبي، في أنفاسك، في جلدك،
وسأفرخ أولادي في خلاياك! قلت لك هذا من قبل لكنك
عنيد، تصر على التحدي رغم عجزك وبؤس حالك.
- أتوسل إليك.. أنا متعب ومحطم، هل تريدني أبكي لكي
تصدقني؟
- أسلوب الضعف هذا يجعلك رثاً مبحوح الصوت كما الأطفال،
يستندرون العطف بمكر البكاء. قدم لروحك شفاعتاً أخرى
عندي غير البكاء، فأنا في أرضك الحرام أمرح كما يجلو لي، هيا
إن كنت قادراً على طردي تعال.
- صدقني لا أريد هذه الحياة، اليأس أكل وجباته مني حتى ملني.
- وأنا مللتك أيضاً، من يسكن جسدك مثلي يتورط ولا يشفى
منك. أشعر بأني مكره على قول هذا، لكن لن أغادرك هل

تفهم؟ لو فعلت، أمرض وأموت، مصيرنا واحد! بما أننا أصدقاء حضرت الآن كي أخبرك.. حسب ساعتي الآن منصوره نادمه وتحاول الانتحار، حدث هذا من حوالي ساعة ونصف، كمية الحبوب التي تناولتها خدرتها فوق سريرها. أخوك النذل هاني نصبوا عليه نصف حلاله في صفقة وهمية. الحاج غلوم سافر مهاجرًا لابنه في كندا من أمس، زكية والحاج مرزوق وأمك وأختك والشرطة وطبيين كلهم هنا، ينتظرون اللحظة التي تخرج فيها من عنق الزجاجه. هيا ارتجل قصيدةً مما تكتب ربما أفل لك شيئًا ذا جدوى. تدري؟ حالك مؤلم، ولكن.. ها بعض البثور تنمو على جلدي وأنفي ينزف بسبب ورطتك الآن، يا إلهي ها هو الزيد يفور من فمي، أرجوووووك لا، لا، لا تتركني أموت لستُ مستعدًا للموت الآن، سوف أصالحك في كل شيء كنت أحمقًا فيه. ما بال هذه الأجهزة تستمر في طينها المجنون وتجعلني أهتر مثلك!؟

- افعل شيئًا، تشبث بي الآن أرجوك، المرء مرهون بقدره وعليه أن يقتات خبزه حتى وإن كان مرًا، أنت لا تكثرث لي.
- تثير شفقتي يا ملعون، كم هو رائع أن أنتصر عليك أخيرًا. رائع.. الفزاعة التي أمامي تحترق. اللعنة عليك ها أنت تحترق

هيسيسبي! تحررت من عبوديتك العاشمة، فقط لو يسمعي الآن
أحد غيرك لطلبت إيقاف هذه الأجهزة الإلكترونية المزعجة.
آآآآآ كم أشتاق إلى هذا الفراغ الأبيض، ما عندي شيء في
جعبتي، حتى أحلامي تبخر الآن، نبض أنفاسها يتوقف،
القصيدة التي أشتهي لن أكمل بيتها الأخير، كل الوجوه التي
أمامي ما بالها يخيم عليها الوجوم والصمت.. أنتم تتفرجون
على موتي؟!!

هذا عرض سخيف لا يصلح للفرجة، أيما كاتب يقدم عليه ينتحر
إبداعياً بلا شك، أنا لم ولن أفوض كاتباً روائياً يفتش أشياءي الخاصة
حتى يكتب قصتي، سأطرد كل الشياطين الذين اقتحموا جنتي، أنتم
مثلهم شياطين، أخرجوا من هذه المستشفى، لا أريد بكاءكم ولا
شفقتكم ولا دعواتكم، أرجوكم اتركوني أرتاح، للمرء موتٌ واحد لا بد
أن يُحترم، هكذا تقول شرائع السماء والأرض.

اللعنة.. كل السطور التي سبقت مكتوبة عني يا فزاعة الشؤم؟! يقع
العديد من الكتاب في فخ الهراء كما أنتم تقعون من أسرتكم وها أنا أقع
في فراغٍ آخر كأنما روحي ترقى درجات فنائها الأخير، لستُ أحتاج الآن
لوساطة المؤلف، متمصاً روحي يلعب بورقتها كيفما شاء، يا سادة
أعتقد أنني أوجعت رؤوسكم، فأنا مجرد رقم عابر أو حتى نسمة هواء

ذات صيفٍ وحشي، يمكن أن أكون غير ذلك، لا يهم. اتركوني أرتاح،
ممكن؟ انتهت حكايتي البائسة، ليطفى أحدكم مصباح غرفتي، كفوا عن
تحديقكم الجنائزي هذا، بطل الرواية يريد تذكرة موته ودفع حقها. الآن
سأخرب متعة الشياطين التي حاصرني فانتهكت حرمة أرضي وأموت
هههههههه، للمرة الأخيرة اسمعوني، عاملوني باحترام. ليطفى أحدكم
مصباح غرفتي أريد أن أرتاح.

يا سادة أفسحوا الطريق لأمي فقط، الرؤية تغييم في عيني أتركوها
تقترب بسرعة ولتباركني بنظراتها الحنونة تهبني ماء عفوها، لتقترب
بسرعة، فهو أسرع مني، كم هذا رائع ومؤلم، قبل أن تخرجوا ها أنا
أمامكم، هيا حدقوا فيّ جيداً للمرة الأخيرة وباركوا لي، ها أنا تحررت
أخيراً من عتمة الصندوق الذي وجدت نفسي فيه مجرد.. فزاعة!!

تمت في 12 ديسمبر 2013م



صدر للمؤلف

- أنثى لا تحب المطر - قصص - إدارة الثقافة والفنون / وزارة الإعلام - مملكة البحرين 2003م.
- من غابات الأسمنت - قصص - إصدار خاص / دار فراديس للنشر والتوزيع - البحرين 2006م.
- رجل للبيع - قصص - دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع / دمشق 2009م.
- وقت للخراب القادم - رواية - دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع / دمشق 2009م.
- وجوه متورطة - قصص - مركز جد حفص الثقافي / دار فراديس للنشر والتوزيع 2012م.
- وقت للخراب القادم - رواية.. الطبعة الثانية / دار دؤن للنشر والتوزيع - القاهرة 2013م.
- الركض في شهوة النار - قصص - الطبعة الأولى 2015 - أسرة الأدباء والكتاب - البحرين / هيئة شؤون الإعلام.
- شهية السرد الخليجي - دراسات - مركز كرزكان الثقافي والرياضي 2016 م.

- سِر البانوش المهجور / رواية، الطبعة الأولى - 2020 دار ومكتبة رؤى / مملكة البحرين.
- أنتِ الحزن الأول / ديوان شعري، الطبعة الثانية / دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر، 2021
- وقت للخراب القادم / رواية - الطبعة الثالثة، نوفمبر 2021 - الدراويش للنشر والترجمة، كاوفوبيرن / ألمانيا.
- اعترافات البيدق الأخير / رواية - مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2021 العراق.
- الركض في شهوة النار / مجموعة قصصية، الطبعة الثانية 2022 - مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع، العراق.
- وترقصين / مجموعة قصصية، الطبعة الأولى / دار بوفار للنشر، مصر 2022
- أين اختفى الأرنب بسبوس؟! كتاب قصصي للأطفال "إلكتروني" - الطبعة الأولى 2023 / مكتب خدمات سرديات عربية - مملكة البحرين.
- وجوه متورطة / مجموعة قصصية، الطبعة الثانية 2023 - دار ديوان العرب للنشر والتوزيع، مصر.

- العادات والتقاليد الشعبية بين الرمز والدلالة / كتاب مشترك،
أحمد المؤذن – أمينة الفردان، الدراويش للنشر والترجمة،
الطبعة الأولى 2023 ألمانيا.



للتواصل مع المؤلف...

almuathen73@gmail.com

Muathen1973-@hotmail.com

أو عبر موقع - فيس بوك - أحمد المؤذن

العنوان:

أحمد المؤذن

البحرين هاتف - 0097339251412

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

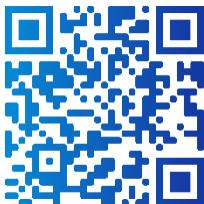
دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا - في محاولة منا لتغذية شريان الثقافة - نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشر أعمالها بين القراء والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.





هذا العمل الإبداعي برعاية داربسة للنشر الإلكتروني
بشراكة مع جروب ملتقى الأقلام المبدعة...



للاطلاع على الصفحة الرسمية لداربسة للنشر
الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.



للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على
الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.



فِزَاعَةُ بُوْجِه الرِّيحِ كَأَشْمِ

ثمة فِزَاعة متروكة في خواء الحقل الجاف
تلعب بها الريح، لكن تريث قبل تجاهلها أو المرور
عليها وحسب!

فهنالك خلف أسماها البالية قلبٌ رجلٍ حكيم أو
أحمق، مثقف، متصوف، مجنون، أتحدّك أن تتعرف
عليها أو حتى تحسن قراءة شيءٍ من أفعالها
وتدرك خارطة قدرها القادم، اقترب هنا وادخل
اللعبة!

دار البسملة
للطباعة والنشر



Bassmabook

0021277181493

Contact@darbassma.net